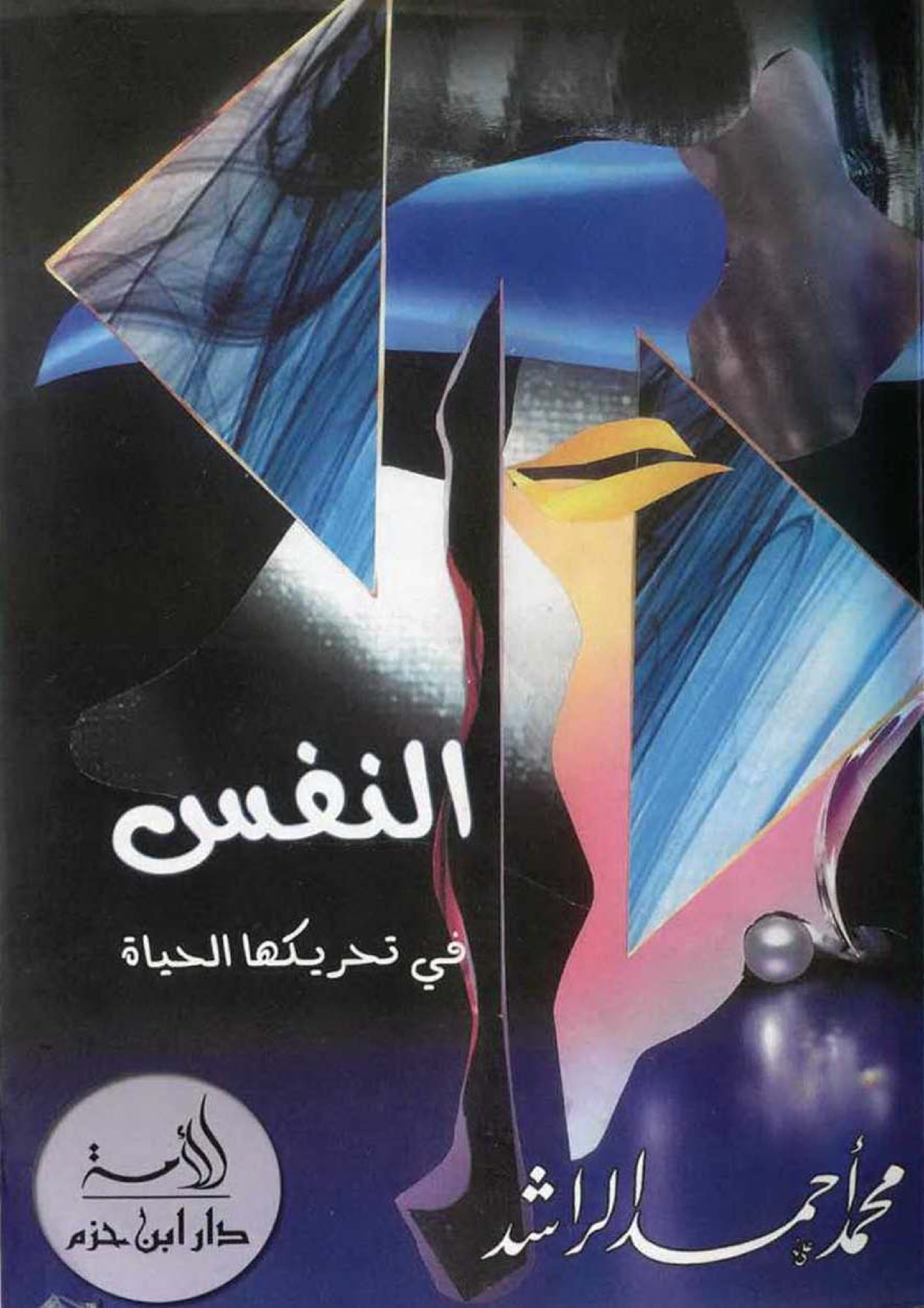
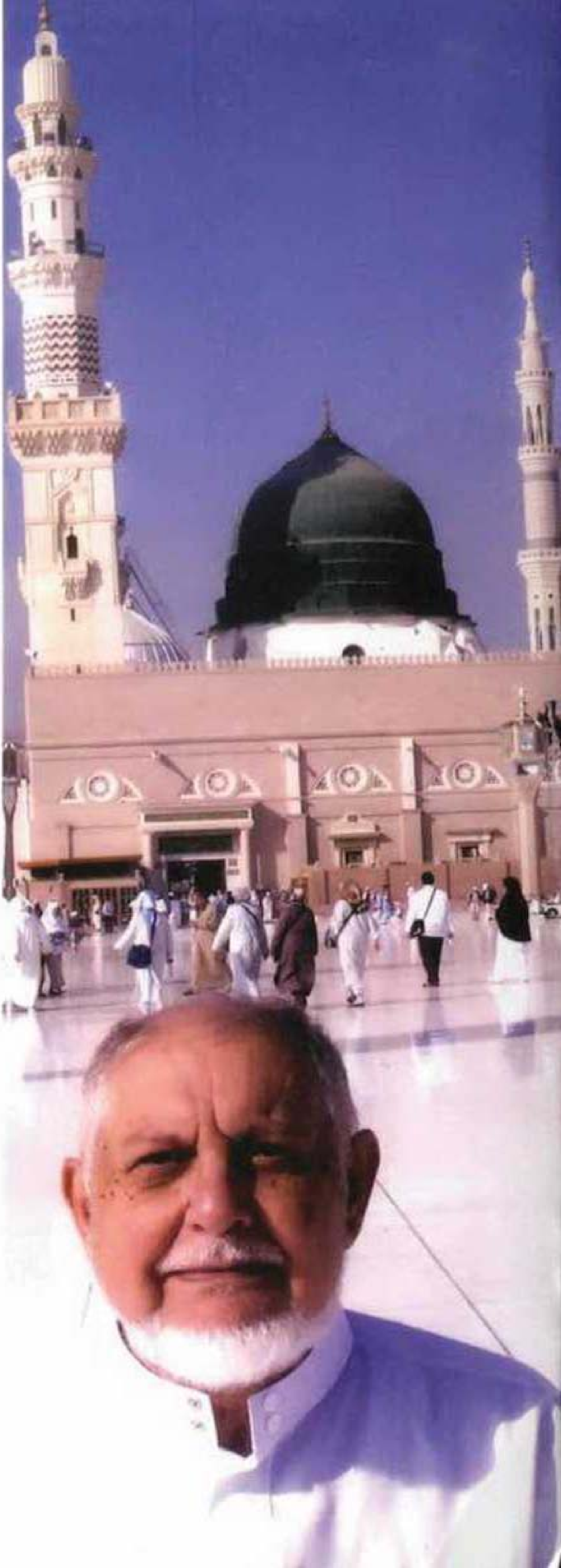

النفس
في تحريكها الحياة
محمد أحمد الراشد
الأمة
دار ابن حزم



إحياء فقه الدعوة

النفسُ ...

في تحريكها الحياة

وصفٌ للنفس الإنسانية وترددها بين المعروف والمنكر

واكتشافٌ لمداخل التأثير النفسي ومخارجه

ومُزاملة ضَرَبات الإبداع حين انفطارها

مع إيضاح وسائل المَلَكة اللغوية والطاقة التعبيرية

وتمييز البُنيوية الإيمانية المعرفية

ثم المقارنة بين مذاهب الفلاسفة في فهم النفس

من أجل سيطرة إسلامية على كتلة الحياة

محمد أحمد الراشد

بسم الله الرحمن الرحيم

((الإيحاء في لوحة الغلاف))

النفس .. حين تنغلق إلى شطريها الخيري والفسوقي

فتنسين في القعر البعيد بقعة الفطرة البيضاء

وكأنها تستظل بسُحب زرقاء حالمة

وألوان وردية وصفراء تتقدمها وكأنها تحميها

من شيطان أسود يترصد

لم يبرأ من حُمرة الإثم

ولكن لؤلؤة الإيمان مُصانة

في الحضن الرحيم

تستمد من انعكاسات الفطرة

المملكة العربية السعودية

www.alrashid-online.com

الطبعة الثانية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

الرياض / المملكة العربية السعودية

نتواجد
دار الأمة للنشر والتوزيع
01/2461705
[illegible]
02/6816027

للتواصل 01 2461905
02 6610578
alomah@gawab.com

الموزعون 0554461908
0544046062

الغلاف اقتراف راشد

مقدمة

□□ **المؤمن وجودٌ متفرد ... وهو محور الحياة .**

وذلك هو الذي اكتشفه شاعر " الوضوح " في الجزائر أخي في الله تعالى محمد برّاح حين سَما في تحليقه فسأل :

مَن تُرى في الكون مثلي ؟؟
ضاعَ من عاش من دون انتماء !
في صلاتي حينما أهتف : ربي ...
عندما أطرق باباً ... في انحناء ..
أشعرُ الدفءَ بقلبي ..
عند تكرار الولاء ..
ذاك سِرّ الكبرياء ..!!
لي شعور ... أنني سِرُّ الضياء ..!! (١)

فهو المؤمن سر الكون إذا أمر بالمعروف .

وانتماؤه الإسلامي الشرعي يعصمه .

وكلما سجّد هُدي إلى مزيد ثقة .

فيشمخ على الجاهلية في استعلاء .

لأنه يعلم أن نور قلبه هو نور سياسة الأمم .

وأن ومضة الاجتهاد في عقله هي روح الحضارة .

إنه مؤمن وكفى ..

ليس مثل سكير أضلّته متاهات الخيال ..

ولا مثل خائن يتعمد المستعمر أن يغلق عليه الدروب ...

● والمرء ينتهي عن السوء ويأنف منه ، من خلال مؤثرات عديدة .

---

(١) ديوان " نسائم الفجر " / ٤٧ .

على رأسها تقوى الله ومخافته ، فإن ذلك هو مظهر الإيمان ودليل وجوده .

ومنها الحياء من الناس ومن رقابتهم .

ومنها خوف العقوبة الدنيوية من ذي سلطان ، أو خوف تشهير السفهاء به .

ومنها أيضاً : رغبة الحفاظ على منزلته إذا كان رفيع الأخلاق وله مناقب ، فيخاف أن يخلط شراً بصلاح وجد طعم العز فيه ، وذلك منهج المرأة مع صالح حين استعرت شهوته فهَمّ وقارب :

فقالت : أما ينهاكَ عن تَبَع الصِّبا
مَعاليكَ ؟ والشيبُ الذي قد تَنَبَّبا [1]

أي : تبينا .

فاستحى من معاليه وسالفاته ومكرماته ، وأذعن لمنطق العفاف !!

لذلك نحرص على أن نذيق المتربي طعم المعالي مرة واحدة فيعتصم بها ...

وهكذا يكون الحفاظ على " المعالي " من محركات الحياة ، وفي التجمعات السياسية يتحول ذلك من لحظة إفاقه بعدما تطمعه نفسه أن ينفرد بذات جمال وإغراء ، كما هو شأن بعض الرجال ، إلى لحظة وفاء وإخلاص وعفاف عن الخيانة إزاء عميل يُغريه وسفير يلوّن له الوعود ، فيرفض الدنيّة في الدين والسيرة ، بما عنده من خلفيةٍ عَليّةٍ ومكرمات وسمعة ، ولذلك تكون تربية القائد أصحابَه وأعوانه على " المعالي " أساس الضمان لمستقبله وسبب الوفاء للفكر والمنهج والخطة والموقف والتاريخ إذا عصفت العواصف وهَطَلَ مَطَرُ المال ورُفِعَت النُصُب، و " تربية المعالي " عنوان لمحرّك حيوي نافذ ، ومَن ألهى جماعته بيوميات السياسة دون فكرها وتربيتها ، ولم يُلقّن أصحابه منطق الاستعلاء : فقد أذن لهم أن ينحروا رِقابَهم .

● وهذا الكتاب الذي يتتبع صفة النفس في دأبها في تحريك الحياة إنما عقدناه

---

(١) لسان العرب ٣/ ٧٥٣ .

لتعليم الدعاة نشأة إحساس " العلو " وولادته وتلوث البيئة بالوساوس والمثبطات ، وكان الحرص على تزويد الدعاة بفقه تحليلي وافٍ ينقلهم إلى تمييز طريق المعالي والنقاء ، وهو الطريق المستقيم الذي يتوازى مع الصراط الشرعي وينقذ السائرين فيه من أزقة ضيقة بجانبه ودروب غير نافذة .

● ومن الناس مَن هم الأهل لكل مكرمة ، وتكافئ أقدارهم منازل العز ، ولا تصلح الأبهة إلاّ لهم ، ولا يصلحون إلا لتمثيل العلو ، فيقول الشاعر [1] في تعريفهم أنْ :

انظـر فحيـثُ تـرى السيوفَ لـوامعاً

أبــداً ففــوق رؤوســـهم تـــتألق

وهذا من قوانين الحياة ، كمثل معادلة [2] :

* فما يأتي الجميلَ : سوى الجميلِ *

فللجميل أهل اختصوا به ، وكذلك الجهاد والاستعلاء والرئاسة والصدارة ، وليست تتألق الصوارم إلا بأيدي الصارمينا .

● والملاحظ في الحركة الحيوية أن نزعة الاستعلاء والشمم والتعفف عن الدنايا : هي نزعة قابلة للتوارث ، ولذلك تختص بها بعض العوائل والقبائل ، ويكون حَفَدة الرفيع السامي في شوق دوماً إلى الموضع الفوقي ، ولا يعطون الدنية في دينهم أو عرضهم ، أو حتى في مالهم ، وهي نزعة عند بعض الخلائق ، وفي القديم لاحظ ابن مُقبل [3] أنه كلما قصد وعَلاً وحشياً لصيده : يجده :

* على تُراث أبيه يتْبع القُذَفا *

أي المواضع العالية من الجبال .

وكذا يطير الصقر والطير الحُرّ في المستوى العالي .

---

(١) العقد الفريد ٦/ ٢٣٣.

(٢) العقد الفريد ٦/ ٢٣٣.

(٣) لسان العرب ٢/ ٤٦ .

● والتربية إذا وافقت موسم الهمّة والانفتاح النفسي وتصاعد العواطف ومواتاة الظرف : غيّرت وأنتجت مثل :

نَخَـــلاتٍ مـــن نخـــلِ نيـــسانَ أيـــنعـ

ـــــنَ جمـــيعاً ، ونبـــتُهنَ تـــؤامُ [1]

فالفسائل إذا غرسهن الزارع في شهر نيسان وسط الربيع : أينعن كلهن . كأنهن توائم من بطنٍ واحدة .

والجهد الدعوي إذا وافى الناشئ أول فورته ونضوجه ، وقبل وصول الملوثات إليه : أثمر ونجح ، وبإمكان كل داعية أن يسجل براءة بناء رجال ، تماماً كالذي يسجل براءة اختراع .

● عندئذ يعتد الصاعد اعتدادا ، وينغرس في جذر قلبه وقاع نفسه العميق معنى الحرية ، ويمضي في إتمام البناء ، ويبدأ يترنم بأغنية شاعر الاستعلاء الجزائري محمد برّاح [2] ...

(قد لا تحويني دائرة ...

إن كانت مِلكاً .. لغيي ..

مَن ذا يحاول إيقافي ..؟ أو يقتل خُطة أهدافي ..؟

خالفتُ قرارك ..! والوردَ رفضتُ .. وأزهارك ..!

وكسرت حِصارك ...)

فيكسر الطوق ، ويلتف على الالتفاف ، ويمضي على بيّنة من علم النفس الإيماني .. يرفع طبقة فوق طبقات أسلافه الأخيار ... □□

---

(١) لسان العرب ١/ ٣٠٧ .

(٢) ديوان الملاحم / ٢٩ .

١ الصُورة النفسيّة للحياة

□□ كان الأديب الروسي تشيرتيشفسكي يبحث عن أعلى الجمال وقمته ونموذجه الأوفى ، فتوصّل بعد طول تأمل إلى أن تمام البهاء (**الرائع : هو الحياة**)[١] . فصار مذهبه هذا يتوازى مع أصل عملنا ومنهجيتنا في استنطاق الحياة وحركاتها ، وأنها مكمن أنواع الفقه والتجارب والمعاني والمعارف التي توجه الإنسان ، بإطلاق يحد منه فقط تقديم المسلم للوحي على المظنون من دروسها ، **وما الوحي ببعيد عنها ، بل كل أحكامه فيها مراعاة لحقائق الحياة ، فإنما هي كتلة من الموازين ومفاد الحكمة ، وقد خلقها الله في أحسن تقويم وجعلها كياناً متكاملاً متعادلاً مستقر الجوانب ، ومنحه حركة دائبة تتوالى منسجمة في جزئياتها .**

● **لكن ما هو أروع من الحياة ذاتها : أن الله خلق الإنسان ليقودها ويستعمرها ويذلل أسرارها ويُسخّر معطياتها المادية ، بل وأبعد من ذلك : أن يكتشف علاقاتها وأنظمتها والأنساق التي تنتظم فروع المخلوقات وأصنافها ، فيجعل منها طريقة لقيادته لها ، وهو إنما يفهم كل ذلك من خلال مركزين قياديين فيه : العقل ، والنفس ، وهذا الكتاب محاولة لرسم طريقة المركز القيادي النفسي في التعامل مع هذه المعطيات الحيوية** ، مما يؤدي بالتالي إلى رسم جوانب من الصورة النفسية للحياة ، تعجز المساحة الضيقة عن الوفاء بكل خبرها وزواياها ، ولكن الإشارات النفسية الكثيرة التي كانت في كتب فقه الدعوة أو التي ستكون في الكتب والرسائل القادمة تتولى التكميل إذا استطاع القارئ التقاطها وجمعها وضمها إلى هذه الصورة .

● ولسنا نبتدع ، بل نحن نتبع ، إذ لنا سلف عددهم كثير اهتموا بالنفس وبيان أحوالها وطباعها وطرائق التعامل معها ، وهم بخاصة العلماء والزهاد الذين اشتغلوا بالتربية والتزكية ورعاية القلوب ، في كل الأجيال ، حتى قامت من كل

---

(١) الموسوعة العربية ٦/ ٤٧٧ .

كلامهم كتلة إيمانية واسعة المعاني ، وحاولت بعض المعاني المتكلفة الغريبة على حسنَ الإسلام أن تتدسّس ، ولكن نقد العلماء أبقى الكتلة النقية ظاهرةً مميَّزة ، ونفوا عنها التخليط ، وجعلوها محضة غير ممزّجة ، كالذي فعله العز بن عبد السلام ، ثم من بعده ابن تيمية وتلامذته .

● وكان " الراغب الأصفهاني " شديد العناية بدراسة النفس وتأويل الأمور تبعاً لطبائعها والمعروف من خصالها ، ولذلك أبدى حماسة وذهب بعيداً إلى درجة يظنها القارئ مبالغة ، وما هي بمبالغة ، فزعم أن دراسة القضية النفسية هي أفضل موضوع ، بل أفضل موجود في العالم ، فقال في كتابه " الذريعة إلى مكارم الشريعة " :

(إنّ الحكمة تُدرك بالقوة المفكرة ، وهي أشرف قوة في الإنسان ، وأنه يتوصّل بها إلى جنة المأوى ، وذلك أبلغ نفع ، وموضوعها الذي تعمل فيه : نفوس البشر ، وهي أفضل موضوع يُعمل فيه ، بل أفضل موجود في هذا العالم .) (١)

وهذا مذهب لم يتجاوز الحق ، بل الشواهد تؤكد أن الذي يملك نظراً ثاقباً في التأويل النفسي للأمور ، ويستطيع اكتشاف آثار النفس في التصرفات : يستطيع أن يسيطر بسهولة على زمام الحياة ، بما يفعله من تنمية الظواهر الإيجابية ، وبتجاهله لأصحاب التصرفات السلبية وعلمه بأنهم أسرى لخللهم النفسي لا يستطيعون ضرباً في الأرض ولا تأثيرا ، فيتركهم وراء ظهره ويمضي قُدُما .

وكلام الراغب يجعل النفس هي الموضوع الذي تشتغل فيه القوة المفكرة التي هي العقل ، أي أنها ليست قسيماً له مماثلاً ومركزاً ثانياً يأذن بالقيادة كما ذهبت ، ولا أرى بأساً ، ولكن منح النفس قيمة مساوية للعقل أليق بمكانتها وآثارها الضاربة في عمق الحياة .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة / ٣٨٦ بتحقيق د. أبي اليزيد العجمي .

□ ألقاب " الأميرة ذات الهمّة "!!

□ و (الرَوْح : النفْسُ ، يُذكّر ويؤنث ، والجمع : الأرواح .) وقال أبو بكر بن الأنباري (الروح والنفس واحد ، غير أن الروح مذكّر والنفس مؤنثة عند العرب .)(1) .

وهذا في الأدب والحديث التربوي ، وأما ما يغلب على ذهن الناس عند الكلام اليومي فإن الروح تنصرف إلى ما به حياة الأبدان .

● وكل شيء كثرت وجوهه وتفاصيله : تمنحه اللغة أسماء كثيرة مشتقة من هذه الوجوه ومن دقائق محتواه ، و " النفس " نالها هذا التكثير لأسمائها .

فمن أسمائها (2) :

▲ السَّفُوك : كأن ذلك إشارة لوفرة العاطفة فيها ، بحيث تتأجج فتدفعها إلى سفك دمٍ ، أو دمعٍ ، أو سفك الكلام الكثير ونثره ، وكل ذلك من السفك .

▲ والجائشة : فهي تجيش وتضطرب وتتحرك وتفور وتلح على صاحبها تدفعه لفعل موقف .

▲ والطَّمُوح : لميلها إلى المعالي والاستزادة والترفع والعزة ، حين اعتدالها ، ما لم تُصدم فتجنح إلى إحباط .

● (والنَّقيْبَة : النفس ، وقيل : الطبيعة ، وقيل : الخليقة .

والنقيبة : يُمن الفِعل) .

(ورجل ميمون النقيبة : مبارَك النفْس ، مُظَفَّرٌ بما يحاول .)(3) .

وفي هذا التعريف إشارة واضحة إلى أن النتائج الحُسنى تكون لها مقدمة نفسية مباركة محمودة ، فمَن تعكرت دواخله اضطربت ظواهره .

● (والضريبة : الطبيعة والسجيّة ، وهذه ضريبته التي ضُرِبَ عليها وضُرِبَها .) .

---

(1) (2) (3) لسان العرب 1/ 1250 ، 2/ 159 ، 3/ 698 .

(وفي الحديث : إن المسلمَ المُسَدِّد ليُدرِكُ دَرَجةَ الصُّوّام بحُسْن ضريبته . أي سجيّته وطبيعته .) [1] .

وليس من شاني هنا أن أشدد على تحقيق الحديث وما إذا كان صحيحاً أم ضعيفاً ، إنما شاهدي في لغة هذا الحديث حتى وإن ضعف سنده .

(وكذلك تقول في النحِيْتَة والسليقة والنحِيْزة والتُّوس والسُّوس والغريزة .) .

● ومن ثراء اللغة العربية في موضوع طبائع الناس وأخلاقهم : لفظ (تُوس) .

(والتوس : الطبيعةُ والخُلُق . يُقال : الكرَمُ من تُوسِهِ ، وسُوسِه : أي من خليقته ، وطُبِع عليه ...

وفي حديث جابر : كان من تُوسي الحياءُ . التُوس : الطبيعةُ والخِلقة . يُقال : فلانٌ من تُوس صِدقٍ ..

قال الشاعر :

* إذا الملمات اعتَصَرْنَ التُوسا *

أي : خرّجن طبائع الناس .) [2] .

وفي هذا الشطر إشارة مهمة تعظك أن لا تغتر بما يتخلق به الناس في أوقات السعة والعافية ، إنما انتظر عَصرة الشدائد لهم لتُخرج خباياهم وتكشف طبائعهم الحقيقية ، وهذه قاعدة في كيفية معرفة النفوس عند المؤمنين .

● (والخَلَد : بالتحريك : البالُ والقلبُ والنفس ، وجمعُه : أخلاد . يقال : وَقَع ذلك في خَلَدي ، أي : في رُوعي وقلبي) [3] . والرُّوْعُ : من أسماء النفس أيضاً .

● فهذه أسماء عشرون لهذه الأميرة المتغنجة ، تشير إلى عُلو كعبها .

---

(١) (٢) (٣) لسان العرب ٢/ ٥٢٢ ، ١/ ٣٣٨ / ٨٧٧ .

□ الرياح المتقلبة : تهز النفس ، فتعالجها بتوهيمها البطولة !!

□ **وفي حيثيات دراسة النفس : ان النفس القوية لا تبقى قوية ، بل يأخذ منها الاستهلاك ما يأخذ ، وهي تتعب وتضعف .**

قال أبو نخيلة الراجز :

إذا ذكَـرْنا ، فالأمــور تُذْكَــرُ
واسـتوعبَ الـنكائِثَ التفكّـرُ
قلـنا : أمـيرُ المؤمـنين مُغْـذِرُ

والنكائث هنا : النفوس .

(يقول : استوعب الفِكْرُ أنفسَنا كلها وجَهَدَ بها ، والنكيثة : النفس . قال أبو منصور : وسُمّيت النفس نكيثة : لأن تكاليف ما هي مضطرة إليه تنكُث قواها ، والكِبَرُ يُفنيها ، فهي منكوثة القوى بالنصَب والفناء .)[1] .

● **وكانوا يميزون حالات النفس وأنها عديدة ، فيقول الشاعر من ضمن ما قال :**

★ والنفسُ شتى شُجُونُها ★

والشَجَن : الهمّ ، والحاجة ، وهوى النفس ، وبكل ذلك يمكن تفسير هذه الملاحظة في أن النفس لها شجون شتى ، (وفي المثل : الحديث ذو شجون : أي فنون وأغراض)[2] .

وهذا التنوع هو المقدمة التي تؤدي إلى حيرتها وتفرّقها .

● وفي أدب العرب (يقال : ذَهَبَتْ نفسي شَعاعا : إذا انتشرَ رأيها فلم تتجه لأمرٍ جَزمٍ .)

(ورأي شَعاعٌ : أي متفرق .)[3] .

---

(١) (٢) (٣) لسان العرب ٣/ ٧١٤ ، ٢/ ٢٧٤ / ٣٢٧ .

فهذه أحوال من الحيرة ، هي سلبٌ ، وهي درجة من درجات النفس أن تضيع لديها الحسابات فلا تعرف الوجهة ، ومثل هذا الشرح لقوانين الحركة الحيوية يسعفها ويهديها الطريق .

● وقد يصل تأجج الأشواق إلى تبدّد القوة النفسية ، وهو قول ابن الطلب الشنقيطي [1] :

فَدبّتْ حُمَيّا الشوقِ في النفسِ واصطَلَتْ
تــباريحُ ، إلاّ تُــؤْدِ بالــنفسِ تُلعِــجِ

والتباريحُ : توهج الشوق .

وتُلعج : تحرق ، والمألوف استعمال اسمها ، فيقال : "لواعج الأشواق" .

فهو يخاف أن تُوْدِ هذه الأشواق بنفسه ، أي تذهب بها وتتلفها .

واستعمال "إلاّ" أسلوب بلاغي ، أي أن لا يكون لها أثر إلا أثر إتلاف نفسه .

وهذه درجة عالية من الانفعال النفسي ، يجدر بالمحلل للسلوك أن يعلم بها ويتابع طرائق ظهورها ويجعلها طرفاً في معادلة تقدير أحوال بعض الناس أو فَهم المشاكل .

● لذلك فإنّ مداراة النفس عند الملمات والمصائب والوقائع الكبيرة : علاج واجب ، ولا بد من تهوين الخطأ والخطر والخوف ، والتمويه عليها ، وبدون ذلك يجد اليأس إلى الروح سبيلا .

وذلك ما انتبهت إليه حكمةُ لبيد فقال [2] :

أكــــذِبِ الـــــنفسَ إذا حدّثــــتَها
إن صــدقَ الــنفسِ يُــزري بالأمــلِ

والطب النفسي المعاصر يفعل ذلك أيضاً ، ويخدع المنهارَ القَنوطَ وينسب له بطولة واقتحاماً وإنجازا ، فهو مذهب في حفظ الأمل والطموح والثقة والطبائع

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ١٠٤ .

(٢) لسان العرب ١/ ٨٢٨ .

الإيجابية ، ومن ثم فإنه محرك من محركات الحياة .

● ونفوس الصبيان تعتريها المشاعر وتهزها المواقف العاطفية أيضاً ، فيهتز قلب الوالد لذلك تبعا .

وتساءل النبي ﷺ فقال [1] :

(يا أم سُليم : ما لي أرى ابنك خاثر النفس ؟ قالت : ماتت صعوته .)

والصعوة نوع من الطير .

فقد ثقلت نفسه واصبح حزيناً لموت طيرته ، وإنما هذه الأقدار تدريب للأولاد على تقبّل ما سيكون عند الكبَر من حوادث تستبد بالعواطف ، وتنفض الأرواح ، ومن هنا تندرج في محركات الحياة .

☐ الطبيعة المزدوجة للنفس أخرجتها إلى انفلات

☐ ومحور المبحث النفسي ومركز دائرة التعرف على كُنه النفس وأحوالها :

قول الله تعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ ﴾ .

ومدلول هذه الآية يمنح كل المؤمنين فرصة لفهمٍ معتدلٍ واقعي وسطي لطبائع النفس ، ويتيح لكل ذي سلطة على أحد أن يشتق لنفسه منظومة من قواعد التعامل تكون كأنها مواد قانون يجعله الفيصل في التعامل مع الذين هم تحت إمرته وسيطرته . فالقاضي حين يحكم بين المتخاصمين والمجرمين لا بد له أن يستحضر معنى هذه الآية ، فيميل إلى تأويل يخفف الحكم ، أو العكس ، ويجعل من أخلاق الفرقاء قرينة ترجح أحد وجوه الأحكام . وضابط الشرطة يفعل ما هو قريب من ذلك ، ويلتمس العذر أو يشدد ، ويُرخي أو يضاعف الحزم ، ويأخذ بالريبة والظن السيء ويحتاط ، مسترشداً بمغزى ازدواج النفس وتناقضها . والوالد إزاء أبنائه يتمنى الأمثل ، لكن الضرورات ترده إلى نظر

---

(1) لسان العرب ١/ ٧٩٢ .

متسامح ، ويتغافل وما هو بغافل ، ثم يثور ويعزم العزمات إذا اقترب ولده من الخط الأحمر ، وكل ذلك إنما هو خضوع لضغط قوة التصريح في الآية إلى هذه الازدواجية التي هي أصل تحريك الحياة .

والدعاة يصطفّون ضمن هذه السلسلة .

فالداعية الفرد التابع عليه أن يكون واقعياً في النظر إلى قادته ورؤسائه ، لأن الآية تعظه بذلك ، فلا يطلب منهم العصمة ، بل هم من الخطائين ، ويرجو أن يكونوا من التوابين ، ثم ينظر إلى أقرانه بعين الاعتدال أيضاً ، فما من مسيء منهم إلا ويحمله انتسابه الدعوي على الاستدراك بإحسان ، فيرجع الميزان إلى تكافؤ ، ومن ثمّ فإن أهل الفلتات ما هم بضعفاء ، وإنما الضعيف هو الذي تراكمت خطاياه من دون إفاقة ، ولانَ وانحرفَ وأطال الغفلة .

وأما الداعية القيادي بالمقابل ، فتأويلات الآية توجب عليه الحلم وسعة الصدر والصبر تجاه أهل الإبطاء ، وأن يشكر المحسن ، ويحترم الاتباع ، فإنه لم يملك رقابهم ، وإنما حملتهم حكمة التعاون الجماعي على توحيد قلوبهم وتوكيله أن يلتمس لهم معالم الطريق ويكتشف قوانين الحركة الحيوية ليسلك بهم في المضايق أو الرحاب بما يحقق حكمتها .

فكل هذا إنما هو من زخم تأثير الآية ، وأمرها يبقى عريضاً يؤثر في جميع أطراف الحياة ، ولكن مدلولها التسامحي الذي يسبق إلى الذهن وما فيه من إبراء المخطئ الحسن النية لا يعني أبداً موقفاً سلبياً تجاه الخطأ ، فقد سبق وأن قررت رسالة " مرح الفطرة " أن مُراد الله القَدَري ليس هو شرع المؤمنين ، وإنما هم يراقبونه من أجل الاتعاظ ، وإنما مُراد الله الديني هو ديدن الوعاة ، ومعنى ذلك وجوب الأمر بالمعروف وإصلاح الخطأ بالحسنى والرفق ، وذلك هو الذي جعل " التربية " في المجتمع الدعوي منظومة مؤسسية دائمة ولها آدابها وأساليبها وجملة نسقات إيمانية وشرعية ومعرفية كأنها القانون الذي ينسق عملياتها ويميل بها إلى التوازن والاعتدال .

وإذا كان هذا قد اتضح : فأوضح منه أن نمط المفكر الدعوي بأن الآية تحرمه فرصة التنطع وطلب المثالية والأحوال التعجيزية ، فإن النمط الطوباوي الذي يذهب مع شتى الخيالات ليس من أنماط المؤمنين ، وإنما نحن نعيش ضمن حياة فيها غنم وغرم ، ومقدمات ونتائج ، وأقدار أقوى من إرادة البشر ، ونفوسنا شتى ، ولها درجات وسلالم علو وصعود ، ولكن لها درجات دركات تذهب سُفلا ، وقيادة شملٍ مائج يتمايل مثل هذا الميل تستدعي أنواعاً من المثقلات التي تتوازن بها المسيرة وتدع كل ذي نية بالاندفاع نحو الأمام أن يندفع ، طالما أن الدرب فيه أول ووسط وآخِر ، وكل أحد يحتل مكانه اللائق .

● والمرجع المحتكَم إليه في كل ذلك : أن نفوس كل البشر سواسية في انقسامها إلى شطرين ، في الأول تقى أو بقية من فطرة وعدل ورحمة ، وفي الثاني فجور ، أو زيادة من قسوةٍ وعدوان ، ولكن حب الله هو الذي يرجح المعادلة ، ويرتفع بالنفس المؤمنة فوق نفوس الغافلين ، وتلك هي تجربة الشاعر الدالاتي لما فحص حال أفعاله فوجدها تُصلح وتُفسد مع أنها تدور بحب الله في المدار العالي ، فقال [1] :

نفسي التي قد حلّقت ... بالحُبّ فوق الأنفُسِ
يوماً أراها أحسنَتْ ... صُنعاً وأياماً تُسي

فهذا تقرير يمثل الحال السائد ، وهو يحمل في ثناياه نصيحة بأن نلجأ إلى تقدير واقعي .

● وازدواجية صفة النفس تقود إلى ازدواجية الموقف أحياناً ، بحيث يقع الفرد في حيرة حين يرى المفارقة ، كمثل الشاعر الذي يقول [2] :

فَرِحْتُ ولي نَفْسانِ : نفس شَرِيسةٌ
ونفسٌ تعنّاها الفِراقُ جزوعُ

(١) ديوان "احبك ربي" / ٤١ .

(٢) لسان العرب ٢/ ٢٩٦ .

من الشراسة التي هي الشدة ، فهو شديد وجزوع في آن واحد ، وذلك تناقض ، لكنها هي هكذا النفس تتلاعب بأصحابها وتسيطر عليهم ولها الفوقية وصفة الاستبداد والسيطرة .

● **ولا تكون إحدى حالتي النفس دائمة** ، بل ربما هي وقتية ، كما في وصف أحيحة بن الجلاح لها حين يقول [1] :

★ ونفسُ المرءِ آونةً مَكُولُ ★

والمكول : القليلة الخير ، مثل البئر المكول القليلة الماء .

والشاهد في قوله : آونة .

فهي أحياناً وأحيانا ، في صعود ونزول .

● **لكن مراقبة نفوس الناس ورصدنا لها يرينا أن أكثر الناس لا يستطيعون المعادلة بين صفات التقوى والفجور فيهم** ، وهم لا يفقهون أصلاً حكمة الله في خلق النفوس على هذا النمط المزدوج ، ولكن الله تعالى يختار لهم رجحان إحدى حالتي الخير أو الشر فيهم وغلبتها عليهم ، فترى الشخص الذي تغلب عليه الخصال الحميدة ، ويكون مسالماً لا يضر أحداً ، وقد يرتقي به التوفيق الرباني حتى يكون مؤمناً ، ويأتي الشر من هؤلاء الناس في صورة خطأ وفلتة ، وربما في حالات الغضب والحرج فقط . ثم نرى الشخص الذي يغلب عليه الشر ، ويكون عدوانياً لئيماً ، وربما يفعل الخير في النادر ، أو قد يضطر إليه ويرائي به من أجل مصلحة .

لذلك قالت العرب : (خُلق الناسُ على ضرائب شتى) .

والضريبة : الخليقة والطبيعة .

والشاهد في ذلك : ان طبائع الإنسان شتى ، ومتضادة ، وبعضها يكافح بعضا ، وهناك عوامل ترجّح الخير أو الشر ، **وبذلك تتكون هويات نفسية عديدة كثيرة جداً** حسب تزايد مقادير الخير أو تراكم السوء ، وكل امرئ يحمل هوية من

---

(١) لسان العرب ٣/٥١٦ .

هذه ، لكن قَدَر الله يوزع حجومها في المجتمعات بشكل هو أقرب إلى التساوي ، إلا الإيمان ، فقد يختاره لكل المجتمع وتبقى عوامل التوريث تحافظ عليه ، أو يحرم المجتمع كله منه ، وتديم عوامل التوريث أيضاً ما هم عليه من كفر ، وهذا سر انقسام الأمم .

وتبعاً لطبيعة الهوية : تختلف مراتب الناس وتصرفاتهم .

والشاعر القديم يقول [1] :

إذا مـــا عــــلا المـــرءُ : رامَ العَـــلاءَ
ويقْـــنع بالـــدُّونِ مَـــن كـــان دُونـــا

فهي الطبيعة النفسية تطبع صاحبها بعزٍّ أو انحطاط ، وفي هذا التقرير إيماءٌ إلى أن العُلا منظومة متدرجة تامة ، وأن الدونية تُشكِّلها منظومة أخرى ، من الأخلاق والصفات النفسية ، وإنما تكون منظومات لأن هذه الأوصاف نسبية وتتصاعد درجاتها الكثيرة أو تتسافل .

● وعلم النفس الحديث والمعاصر لم يعاند القرآن في ذكره ازدواج النفس ، بل هو في العموم يتوافق مع مدلول الآية .

بل انتهى " فرويد " إلى مثل هذه التقريرات ، ورأى جانب الفجور والخير في النفس معا ، لكنه يقسم وازع التقوى إلى عادي وسوبر .

وهو يسمي الجانب الفجوري : " الهذا " أو " الهو " ، ويخففه بأن يجعله في الجانب اللاشعوري للنفس ، وأنه مصدر الغريزية أو البهيمية ، وبخاصة الغريزة الجنسية ، والنزوع إلى العدوان ، ويعتبره أسبق جوانب النفس إلى الظهور ، ويتطلب إشباعاً عاجلا .

لكن " الأنا " أو " ego " : تردعه وتكبحه .

و " الأنا العليا " أو " superego " تبالغ في ردعه ، والثنتان تعملان معاً في السيطرة على الفرد ومنعه من الغي .

---

(١) لسان العرب ١/ ١٠٣٨ .

وكأن " الأنا " فيما أفهمه منه تضبط الأخلاقيات بعامة ، والتدين .

و " الأنا العليا " في ظني أنها للأمور الحساسة ، من التضحية والإيثار ، والتصدي للإصلاح ، والقرارات المصيرية التي تصل حد المخاطرة بالروح [1] .

● والمناسبة تدعونا إلى أن نذكر أن عموم الدعاة أجفلتهم إغرابات فرويد ، فزهدوا به وبعلم النفس عموماً ، ولهم حق في ذلك ، فإن مجازفاته عظيمة ، ونعرف وجوه الخطأ فيها بما معنا من الوحي الذي نزل على محمد ﷺ ، ولكن المنهجية العلمية تمنعنا من الاستطراد واتهام كل علم النفس ، إذ فيه جوانب صائبة تُفصح عن بعض الصورة النفسية للحياة ونحن بحاجة لها ، بل وحتى **فرويد نفسه لم يُغلق على خطأ ، وقد نجد عنده صوابا ، والأصل أن نقتبس مفردات العلم من كل أحد ، وبشجاعة ، لأن معنا الغربال الشرعي الإيماني الذي يميز مذاهب الناس ومزاعمهم .**

● والحقيقة : أن هذا الاهتمام بالتحليل النفسي ديدن معرفي قديم . ففي ملحمة " أرغونوتيكا " التي كتبها أبولونيوس الاسكندري الرودسي في حدود سنة ٢٣٠ قبل الميلاد استطاع أن (يشير إلى المفارقات الدقيقة في نفوس شخصياته وحياتها) [2] .

والأدب يشارك في كشف صفات النفوس ، وفي أسرة واحدة قد تجد الصور المتناقضة ، تبعاً لأنواع النفسيات .

ففي قصة " الاخوة كرامازوف " العالمية تباين بين شهواني ، ومفكر ، وصوفي ، ورابع يرتكب قتل أبيه ، ولكل منهم نفسية مغايرة للآخرين .

ومعظم القصص التي تتداولها آداب الشعوب يدور سياقها مع صفات النفوس واختلاف الطبائع .

---

(١) أصل هذه التقسيمات في موسوعة المورد ٥/ ١٧٠ .

(٢) الموسوعة العربية ١/ ١٣٩ .

❑ صُور من استعلاء النفوس

❑ ثم النفس في إعلانها عن كُنهها : تكون أحياناً من الشرف والإيجابية والإقدام بحيث ينتصب صاحبها رائداً مجازفاً من أجل النفع العام ، وهي الحالة التي كان يفخر بها الشاعر البدوي العَجّاج حين قال [1] :

فقد أكون مرةً رَوّادا
أطّلع النجاد فالنجادا

فهو رائد لقومه مبالغ في الريادة ، يتقدمهم إلى كل أرض هي نجد مرتفعة ، ليكتشف المراعي ويدلهم عليها ، أي هو بعيد عن الأنانية والكسل بما عنده من مثابرة وتضحية ، ونفسُه نفس جماعية .

● ومن أحوال النفس في العلو ما يكون عند المحبين من حب دفين وهوى مكتوم ، لا تكاد تشعر به ، ولكن عند الرحيل والفراق والوداع يظهر [2] في صورة :

دمعةٍ كاللؤلؤ الرطبِ على الخدّ الأسيلْ
وجُفونٍ تنفُثُ السحرَ من الطرف الكحيلْ
إنما يفتضحُ العاشقُ في يوم الرحيلْ

وهذا من صدق النفس ونوايا الوفاء واستيلاء مفهوم العيش الجماعي ، بحيث تتصفى العواطف وتركن إلى التجرد ، وما من مُنكر في هذه الدمعات ، لأنها استجابة للفطرة الأصيلة ، فأين السوء إذا اختارت العفيفة الأصالة ؟

● والمُجامِل : الذي يقدر على جوابك فيتركه إبقاءً على مودتك . وهذا من سمو النفس ونُبلها .

---

(١) الخصائص لابن جني ٢/ ١٧٤ .

(٢) العقد الفريد ٦/ ٢٥٦ .

والمُجاملة : المعاملة بالجميل . وقال أبو ذؤيب [1] :

جَمَالَــكَ أيهـــا القلـــبُ القَـــريحُ

ســـتلقى مَـــن تُحِـــبُّ فتـــستريحُ

يريد : إلزم تجملك وحياءك ولا تجزع ، فإنما أحببتَ بحكم الفطرة ، ومَن خلق الفطرة واختارها لك : يُتمِّم لك أمرك ما دمتَ لم تفسق ولزمتَ العفاف .

● **والتقوى تُعلِّم النفوس القوية تأويل مصائب الدنيا أنها أجر أو تحت من الذنوب يجعل حساب يوم الدين أيسر** . وهذا الدهر الذي ينال منا : ظاهرُ أمره أنَّ أذيته بلا ثمن ولا تعويض ، وذلك قول الأفوه الأودي [2] :

حَكَـــمَ الدهـــرُ علينـــا أنـــه

ظَلَـــفٌ مـــا نـــال مـــنها وجُـــبار

والظَّلَف : ذهاب السلعة بغير ثمن ، والجُبار مشهورة في مباحث الفقه في : جناية العجماء جُبار ، لكن الشاعر متوهم ، فإن ذلك في الدنيا ، وأما مَن صَبر لنوائب الدهر فمأجور في الآخرة ، فضلاً من الله ونعمة .

● **بل عِزّة النفس خُلُق بعض الحيوان النجيب أيضاً ، لا أحرار الناس فقط** ، وإليها يشير الشاعر حين يقول :

كمِثل أتـانِ الـوحشِ ، أمّـا فـؤادُها

فـصعبٌ ، وأمّـا ظهـرها : فـرَكُوبُ

(يقول : هي رَيِّضةٌ ذليلةٌ ، ولعِزّة نفسها : يحسبها الناظر لم تُرَض .) [3] .

□ العِصامية ... عِصمةٌ وحِفظ لحيوية القلب .. !!

□ وعَرَفَ الإنسانُ المعاناة ، وشظف العيش ، وما تتطلبه الحياة من الإنفاق

---

(١) (٢) (٣) لسان العرب ١/ ٥٠٣ ، ٢/ ٦٠٦ ، ٣/ ١٠٨ .

الكثير على العيال والقرابة والضيف وإطعامهم وكسوتهم وتطبيبهم وتوفير المأوى لهم ، وفي الحياة المعاصرة ما يلحق ذلك من تعليمهم وتوفير بعض ما هو في عداد الترف لهم ، واكتشف أن لله حكمة في توزيع الأرزاق ، وأنه قد يمنع الزيادة عن بعض عباده ويجعل رزقهم كفافاً ، يديم حياتهم ، ولا يذيقهم الطيبات .

هنا ، ومع إلحاح الحال ، وتمنيات العيال والأزواج ، وحسرة فوات الأوفى الأكمل الذي تحدثهم به الأحلام : يكون امتحان النفس العظيم : أتجنح الى لين فتطلب من غني قريب أو صديق ، أم تصبر وتلوذ بالعفاف ، وتستمسك بطريقة عصام التي سوّدت عصاما ، وعلّمته الجد والإقداما ؟

وفي مثل هذه الحال اكتشف الإنسان لذة الإباء والأنفة ، وبهجة عزة النفس التي تترفع وتربي الذين يتبعونها من عيال على الصبر مترفعين .

وسمى الأدباء والمؤرخون والواصفون هذه الحالة : ' غِنى النفس ' ، وأجمعوا على أنها عند احرار النفوس هي أرفع حالة والذ شعور ، وأما من رجحت في نفسه عوامل الفجور على التقوى ، فإنها تكون حالة تفكير بانتقام من المجتمع وعدوان على الأغنياء ، فيعيش دهره في نوع توتر وعبوس وأسف .

وقد سجل الشاعر القديم قيس بن الخَطيم هذا الاكتشاف النفسي الخالد ، فقال [(١)] :

غَنِيُّ النفس ، ما استغنتْ : غنيٌ
وفقر النفس ، ما عَمِرَتْ : شقاءُ

● وصار في مفهوم العقلاء وأهل الإيمان أن من منازل حَرَج النفس : سؤال الناسَ شيئاً من مالٍ أو من حاجات الدنيا .

قال ابن حبان : (الهمُّ بالسؤال نصف الهَرَم ، فكيف المباشرة بالسؤال ؟ ومن

---

(١) لسان العرب ٣/ ٧٤٦ .

عزّت عليه نفسُه : صغُرت الدنيا في عينيه .)[1] .

وأورد قول الشاعر :

لا تحـــسبنّ المـــوتَ مَـــوتَ البلـــى

فإنمـــا المـــوتُ ســـؤال الـــرجال

● ووعظنا الحكماء أن نلجأ في الأيام العصيبة إلى الله تعالى ، ثم إلى ما نملك من قُدرة ذاتية ومعنوية استعلائية ، فإنما تخدمنا :

جَـلادةُ نفـسٍ بَـين جَنبَـيْ مُجَـرّبٍ

تهـابُ قـتادَ المَـنِّ مـنه الأصـابعُ

وهذا من تقريرات ابن أحمد دام الشنقيطي[2] .

فنفسُه الجَلدة التي تغذيها التجارب تمنع أصابعَهُ أن تكون السفلى ، فتأخذ من يدٍ عليا تمنّ ، بل تصبر وتتوكل ، وتؤمن أنها ليست مِن الناس تحرك الحياة حركة قوية ، بل هي ضعيفة ..

ولكـنّ غنـى الـنفسِ أمـضى عـزيمةً

مـن العَـضبِ جـلاّه الكَميُّ المصارعُ

فامتلاء النفس أنفذ من رمحٍ بيد محارب شجاع ، وعنها تكون تحريكات الحياة .

● والتزاماً بهذا النمط الرفيع من السلوك النفسي : أدرك أهل الرفق من القادة والزعماء حصول حالات حرج حقيقي ، وأن الأحرار يُضيقون على أنفسهم وعيالهم بما يكون منهم من وفاء لهذا المبدأ السامي ، فالتمسوا طريقاً لهم فيه تيسير ، وكان المُقدّم الأول في ذلك خليفة المسلمين الراشد الأول أبو بكر ﷺ ، وجعل من دستور غنى النفس أن : إذا جاءك من هذا المال شيء من دون طلب

---

(١) روضة العقلاء / ١٤٦ .

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ٢٩٥ .

واستشراف منك : فخذه وتموّله ، فإنه عطية الله إليك . ويمثل هذه الإضافة الرفيقة إلى قانون النفوس العصامية : هدأت فوائر ، وأنجدت عوائل ، واسترخى بال مشغول تستهلكه الوساوس ، بل : وانتقلت عقول من حالة الشرود والتعطل إلى حالة الإنتاج والحيوية والإبداع ، ولأبي بكر ﷺ ضلع من الأجر في كل ذلك ما تعاقبت الأيام وتعدّد المبدعون ، فإنه القادح الأول لهذه القدحة الخيرية المتوافقة مع منطق الشرع الحنيف .

● فإنما جعل الله الإنفاق والصدقات ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ البقرة / ٢٧٣ .

قال ابن عطية : (والضرب في الأرض : هو التصرف في التجارة .) (وكانوا لا يستطيعون الضرب في الأرض لكون البلاد كلها كُفراً مطبقا ، وهذا في صدر الهجرة ، فقلّتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد ، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة ، فبقوا فقراء ، إلا أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يحسبهم الجاهل بباطن أحوالهم : أغنياء .)[1] .

وهذه حالة تتكرر ، وفي كل جيل هناك أناس من المؤمنين هذه صفتهم ، والعصر الحاضر يشهد حالة ﴿ منع من التصرف في التجارة ﴾ من كافر ومستبد ، يمنعون المؤمنين ، بتضييق الفرص أمامهم ، وترويج الحرام في البنوك بحيث لا يستطيع المؤمن الاستفادة من التمويل والائتمان ، وبالانحياز إلى الفاسق في لجان إرساء المقاولات والعقود ، وفي أشكال أخرى ، فيحصل أن يكون هناك مؤمنون إبداعيون لهم ذكاء وقوة وفطرة تجارية ، ولكن المحيط يماكسهم ، فتراهم فقراء وتحسبهم أغنياء ، لعفتهم عن الحرام والشبهات ، ثم لعفتهم عن طلب المساعدة .

---

(١) تفسير ابن عطية ٢/ ٤٧٠ .

وأغنياء الدعاة وقادتهم مدعوون إلى فهم حالة هؤلاء النبلاء الذين تؤهلهم ظواهر الأحوال لكي يكونوا تجاراً وأغنياء ، ولكنهم آثروا التقوى ، أو آثروا الجهاد ، أو رابطوا في ثغور العمل الدعوي المتنوع ، فمواساتهم واجبة ، بل التوسيع عليهم وتفريغهم والإجزال عند المقدرة ، لأن إبداعهم عند ذاك سيتفجر ويتضاعف ويزداد ، ولربّ خُطط يبتكرونها تدفع الدعوة صُعداً قيمتها في حياة التنافس السياسي والفكري مئات أضعاف ما يُنفق عليهم ، وهي إشارات لا يفهمها إلاّ ذو حظ عظيم من أغنياء المسلمين ، وخُطة التفريغ مُحكمة ، ويجب أن تمضي .

● ومما يُنبيك عن أن هذا النمط من غنى النفس صحيح : ذهاب الفلاسفة إليه واستحسانه وجعله أصلاً من أصولهم في التربية والسلوك ، بَيْدَ أنّ الفلسفة ترى صواباً ، ثم تندم وتميل إلى تأويل خاطئ يحشر نفسه بجانب ذاك الصواب ، وهذا دأبهم .

وقد (توجه فكر سقراط بأكمله بقصد الوصول إلى الاستقلالية والسيطرة الداخلية) ، وهذا صواب وحق ، ويمثل بعض وجوه اقتراب سقراط من التوحيد ، فإن عقيدة الإسلام تدعو لمثل ذلك أيضاً ، ولكن (تأملات صغار السقراطيين مالت جميعها نحو تمكين الإنسان من الوصول إلى الاكتفاء الذاتي ، وبالتالي من الانطواء على ذاته) [١] وهذه توظيفات جيدة لمعطيات النفس الإنسانية في جانبها الخيري الزاكي ، ولكن هذا الانطواء وقوع في الخطأ الصوفي السلبي ، إذ المسلم ينهى عن المنكر ويُصلح ويجاهد أشكال الشر .

□ صور فاضحة من السَلَب والعيوب النفسية

□ وبمقابل الإيجابيات النفسية وهذا السلوك العفيف المستعلي : تسفل النفس أيضاً وتتردى وتهبط في دركات من اللؤم والقسوة وإيذاء الآخرين ، فتسجّل

---

(١) الموسوعة العربية ١/ ١٥٠ .

لطخات داكنة في صورة الحياة قبيحة يشمئز منها السوي .

● من ذلك ممارستها الهجاء والإقذاع الذي فيه كذب ومبالغة ومعاكسة لأخلاق الناس في الستر ، فيصبر المهجو العفيف ويبلع ريقه ، أنفة من أن يرد عليه فيهبط إلى مستواه ، فتكون كلمات الهاجي أغنية في لسان كل مثيل له في المجتمع منكوس الطباع ، ولذلك استكبر عمر ﷺ سلوك الحطيئة المسرف في الهجاء ، فقال له :

(كاني بك عند بعض الملوك تُغنّيه بأعراض الناس) .

(أي تُغنّي بذمهم وذم أسلافهم في شعرك ، وثلبهم .)[1] .

فلولا أن الهاجي يظلم ويكذب ، والسامع يقبل ، لما تمت السلسلة الانحرافية ، ولكنها حَلَقة تتداخل في حلقة ، وفي ذلك إشارة إلى قابلية في النفس الإنسانية لسلوك سفلي مبني على ظن سوء يقع في المستوى المنحطّ ، ونسبة السامع إلى الملوكية إشارة إلى أن أردأ الظن القبيح يتضاعف بوجود سلطة وحماية وتطلعات فوقية ، وأما الفقير والحيادي البعيد عن البَطر فإنه أقرب إلى الستر واحترام الغير في الغالب ، والحطيئة فقير ، لكنه شَذّ عن طبقته وانتهج الإقذاع ، بسبب وراثي ربما ، أو لذنب كبير جناه ، فعاقبه الله بذلك ، لأنه كان يشتم نفسه إذا لم يجد ثغرة يدلف منها لشتم الناس ، واستعمال عمر لكلمة الغناء تشير إلى فرح الحطيئة بما يرتكبه من ذم ، فهو لا يقوله في الستر ، ولا على عجالة ، بل يترنم به ويصدع ، دلالة على طرب نفسي يستولي على دواخله ، وهذا الوصف لهذه الحالة النفسية الشوهاء جزء من علم النفس الإسلامي ، وحري بمناهج التربية والإعلام في الدعوة الإسلامية أن تنتبه لها فتمنع الإذن بمقدماتها في المحيط الدعوي لئلا تتطور فتكون عيباً في الأداء يحرف نفوس الدعاة .

اي أن كلماتنا في تبليغ الدعوة ، في إعلامنا وحديثنا اليومي : يجب أن تكون عفيفة موضوعية ، ولا تردّ الهاجين لنا بالمثل .

---

(١) لسان العرب ٢/ ٧٣٨ .

• ومن ذلك نكران الصديق عند الغنى ، وقد كانا عند الفقر على وصل .
وفي ذلك يقول الشاعر :

هَـل في القـضية أن إذا اسْـتَغْنَيتمُ

وأمِنـتمْ ، فأنـا البعـيدُ الأجـنبُ ؟

فهو يتساءل لم جعلوه كالأجنبي عندما أصابوا أمناً وغنى .
وهذا النكران ربما يولد حزازة في النفس ، فيتبدل الولاء ، فتتحرك الحياة .
وقد يكون جماعياً ، وأقواه أن يكون من حاكم أو متنفذ ، فيصل على أكتاف ناس ، ثم يهملهم ، فيوالون غيره ، ويحرصون على إضعافه وتبديله ، والتاريخ مليء بهذا الجنس من التحريك .

• وتكون النفس بهيمية ، كما سماها الفقهاء ، ونفس أبي نؤاس الأولى منها حين يقول :

إنمـا العـيشُ سَـماع ومُـدام ونـدامُ
فـإذا فاتـك هـذا فعلـى الدنـيا السـلامْ

أما نفسه الثانية عند شيخوخته فقد أنطقته بعض الزهديات الجيدة ، والله أعلم أيهما أثقل في ميزانه .!

• **ومن أخلاق النفس النازلة : أن تستعين بالمؤذي** ، مثل سلوك أبي عمرو لما بلغ في البخل المدى ، فقال مَن غفل عن ذلك وأراد زيارته [(١)] :

أتينـا أبـا عمـروٍ فأغـرى كلابَـه

علينـا ، فكِـدنا بـين بيتـيه نـؤكلُ

وكم في صدور السياسة اليوم مَن له من أهل الإعلام أجراء يذبون عنه ويوسعون منتقديه شتما ، ونكاد بين بيته الحزبي وبيته العولمي نؤكل .

• و "الجَرْدَبان" (هو الذي يضع شِماله على شيء يكون على الخوان كي لا يتناوله

---

(١) لسان العرب ٢/ ٣٥٤ .

غيره . وقال ابن الأعرابي : الجرْدبان : الذي يأكل بيمينه ويمنع بشماله .)[1] .

ويكون من الناس الذين همهم بطونهم والطعام ، ويفخر ويقول [2] :

أنـــا شماطِـــيط الـــذي حُـــدِّثتَ بِـــهْ
متـــى أُنَـــبَّهْ للغـــداء : أَنْتَـــبِهْ

أما إزاء نداء البذل فهو نائم سادر .

لكن حين يوقظ للأكل يسارع .

فياويلنا : كم من " شماطيط " في المجتمعات المعاصرة تخذلنا .. !

● وتلبث النفس اللئيمة تتسافل حتى يكون البعض نبّاشاً للقبور يسرق أكفان الموتى ، فيعجب السوي : كيف يصل إنسان إلى هذا الدَرَك البعيد في السفلية .. !

● فإن لم يجد السفلي فرصة للعدوان أو الشراهة : أصابه الإحباط ، فيفرغ غضبه على غَنَمه ، ويكون مثل الذي قال [3] :

تفـرّقت غَنَمـي يـوماً فقلـت لهـا :
يا ربّ : سَلِّط عليها الذئبَ والضَبُعا

● ومن ظواهر هبوط النفس : غَدْرُ الغانيات وقول الشاعر [4] :

فـلا تحـسباً هِـنداً لهـا الغـدرُ وحدها
ســجيةُ نفــس : كــل غانــية هــند

فغدر الغانيات سجية نفسية لازمة .

و(كأنه قال : كل غانية غادرة أو قاطعة أو خائنة) .

وتتبدل السياسة بتأثير هذا الغدر .

وانظر غدر شفيقة القبطية ، برئيس الوزراء بعدما ركبته كالحمار ، ففضحته أمام زوجه ، كما في الفلم المشهور الذي صوّر قصة حقيقية .

---

(١) (٢) (٣) لسان العرب ١/ ٤٣٥ ، ٣/ ٥٧٣ ، ٢/ ٥١٠ .

(٤) الخصائص لابن جني ٣/ ٢٧١ .

فالحياة تحركت حركة كبيرة ، وتبدلت الحكومة ، وسقطت شخصية سياسية كبرى ، بغدر غانية .. !

● ومن منازل السلب النفسي عند النساء : عدم المبالاة بالأمر السيء الوارد . مثل المرأة التي طلقت مرات ، تكون قد بسأت بالطلاق ، أي لا تباليه ، وأنست به ، وتسمى مثل هذه المرأة : المُراسِل ، وقد تزيَّنُ لآخر[1] .

● فهذه صور متناثرة من غفلة النفس وغرابة شأنها تقابل صور العفاف والنجابة ، وإنما سقناها وكدّرنا خواطرنا باستعراضها من أجل أن نتذكر طبيعة الحياة التي نريد أن نقودها ، فنجعل من الظواهر السلبية سبب احتياط في تخطيطنا ، وأن ننزل بتمنياتنا إلى المستوى الواقعي ، فالناس الذين نتعامل معهم هم هذا الخليط ، بل في الخليط عشرات الهويات النفسية الأخرى التي لم نذكر لها مثالاً ، بل مئات الهويات ، مما يجعل مهماتنا التبشيرية والتربوية والسياسية في غاية التعقيد ويلزمها وعي وانتباه .

☐ نماذج من الأساليب الإبداعية في التعامل مع طباع النفس

☐ وقد اتضح لي بعد طول تأمل أن " النفس تعالج نفسَها وفق معطياتها الذاتية " ، وأنّ أنفذ طرقها في ذلك نوع من الحلم والوهم ، أو الالتفاف على المعنى المباشر وتطويقه من مكان قريب بمعنى مثيل بديل ، وهذه مسالك ذكية تدل على براعة كامنة في أصل تكوينها تتلطف بالسلب حتى يكون إيجاباً ، وتداري التمنّع حتى يُسلس القياد ، فيكون في ذلك تصديق الحكمة التي تجزم بأن اللبق يأخذ باللطف ما لا يأخذه بالعنف ، ومدار التصرف أثناء ذلك مناورات إبداعية تترفق مع ذي غَنَج يفرض لنفسه ثمناً عالياً ، فما تزال المساومة تغريه أن ينزل بالسعر إلى مستوى السُوق والتقدير الواقعي .

---

(١) لسان العرب ١/ ١١٦٧ .

● فمن ذلك : اني وجدتُ مساحة صغيرة في النفس يمكنها أن تؤثر في صاحبها تأثيرات عميقة مهمة ، وتكون كأنها الضابط للمنعطفات النفسية الكبيرة ، في عمليةٍ تربوية أسميها " آلية إثارة الأصداء النفسية الإيجابية " وهي التفاتة حَرِية ان يتلقفها كل طبيب نفسي أو أستاذ في علم النفس ليطورها ويتوسع في استعمالها كمحرك من محركات الحياة .

ويبدأ وعيُنا لهذه الطريقة من ملاحظة بسيطة لشاعر قديم مجهول عندي ساقته روح الدعابة ومراقبة استيلاء معاني الغرام على العاشقين إلى تسجيل هذه الملاحظة التي تلقفناها فحلّلناها فكشفَتْ عن قابليتها لتكون مذهباً تربوياً .

يقول هذا الشاعر[1] :

فحيَّتْ ، فحيّاها ، فهبّتْ ، فحلّقتْ

مع النجم ، رؤيا في المنام كذوبُ

هكذا هي ، حكاية عابرة وملمح خاطف لحال محب ولهان ، لكنّ صنعة التحليل تحيلها إلى مذهب كامل في استثمار المعطيات النفسية لتوليد أحوال إيجابية مُنتجة تدحض اليأس والقنوط والتراجعات وأنواع السلبيات .

ولفهم مُراد الشاعر يلزمك أن تتخيّل نفسك تشاهد فلماً سينمائياً فيه بطل يسرح ويمرح ويذهب إلى الأقاصي وتواتيه الفرص ، فيتحرك ، ويطمح ، ثم فجأة يصحو ، فإذا هو في حلم لذيذ .

فالبطل في هذا البيت من الشعر هو عاشق محب استبد به الغرام فملك عليه أحاسيسه وعقله ، وأصبح دائم التفكير ، فلما نام : توالت مشاعره واستمرت ووجّهت احلامه . فكانه راى حبيبته تأتيه وتلقي عليه التحية ، فيجيبها بتحية ، فترفرف بجناحين لها كانها حمامة ، فيلحقها هو ايضاً بجناحين ما كان يدري انه يملكهما ، فحلّقت في طيرانها صُعداً حتى علت إلى مستوى النجوم ، فيحلق معها

(١) لسان العرب ١/ ٧٠٠ .

ويطير بموازاتها ، ويلبثان ساعة ذات بهجة مع تيارات الرياح السامية في جَذَل وفرح ، ثم يصحو ليكتشف أنه في منام ، لكن هذا الخيال الكاذب إنما هو شيء ثمين مبهج ، والذي قاده إليه هو وجود خيال في الحقيقة ، فهو فائز .

وهنا نكتشف الصلة المنتجة والعلاقة بين الخيالين ، وفي فهمنا ان الخيال الكاذب إنما هو صدى وانعكاس للخيال الابتدائي الذي كان في اليقظة ، وهذا الفهم يتجانس مع التحليل الفرويدي المعروف ، ولا ضير ، فإنه صحيح في جزئه هذا ، والعاشق لا يتبرم من هذا الكذب ، بل يعكسه في عالم الواقع في صورة مزيد حب لمعشوقته ، فهو يستعمل صدى الصدى ، أو رَجْع الصدى ، ليؤسس عليه تنمية لحبه ، أو ليكون مورد حب أعمق .

هنا يقودنا الذكاء إلى سؤال مهم صيغتُه : إذا كان عمق الحُب قد حلّق بالمحب عالياً في وهم انعكس حقيقة وذهب إلى عمق أبعد : فلماذا لا تكون المشاعر الأخرى الإيجابية كذلك وعلى نفس الطريقة ننميها بآلية شحنها بالعواطف لتحصل أصداء في المنام وهمية ، تنعكس ثانية في صورة أصداء حقيقية في الواقع تزيد الإيجاب ؟

من هذه المشاعر الإيجابية التي يمكن أن تستفيد من هذه الآلية : الثقة بالنفس ، والشجاعة ، والطموح ، وروح التحدّي ، وجميع الإبداعيات ، فبطريقة استعمال الأوتار العاطفية نستطيع تعبئة المتربي تعبئة عالية المستوى ، لندع هذه المشاعر تسيطر على أحلامه ، ثم نواكبه ثانية عندما نحس ونلمس أن صدى الصدى قد بدأ يتحكم به ، فنزيد الشحن ، فتتصاعد أحاسيسه ، فتكون جولة جديدة من صدى الصدى قابلة للتكرار ثالثة ورابعة حتى يكون الإشباع ، لأن فطرة النفس وطبيعة الخلقة التي خلقها الله عليها تقبل هذا الإملاء والتطوير والتنمية والاستجابة للمؤثرات والأصداء ، وهذا السياق موجود في يوميات الحياة ، وعلماء النفس قد انتبهوا له ، ويجيء شرحنا كتأصيل إسلامي أو تأصيل عربي له ، وهو درس لدعاة الإسلام أن يتعاملوا

مع حقائق الحياة كوحدة واحدة ، وأن لا تحرمنهم شؤون الحب والعشق والغرام عن استثمار ما فيها من معطيات وتدارسها ، ولا ينافي ذلك ما عندهم من إيمان وحياء ، ورُبَّ ملاحظة غرامية كهذه تفجر ينبوعاً من التأثير التربوي الجهادي ، وسماحة الأخلاق مَعْبَر لذلك ، واليبوسة التقشفيَة تمنع مثل هذا الاقتباس ، والتحريك الإبداعي يكون قريباً منا جداً لحن الدعاة إذا عشنا مع الرقائق النفسية والحب الإيجابي ، في عفاف ، وفي غير حرام .

● وأصل القول : ان هذه الطريقة الإبداعية في إثارة الأصداء النفسية **الإيجابية : قائمة على رعاية "الحُب" واستثمار عطاياه والتحليق مع مستوى عُلوه الرفيع ، فتتولد بهجة النفس ، ويدفعها انشراحها إلى توظيف ما أودع الله فيها من صفات لجيبة في إدارة الموقف الذي تجد أنها صارت من أجزائه ولا بد من تعاملها معه ، فتدير شأنها بنجاح ، وتفتح بالابتسامات المغاليق ، وتتسع أمام خطواتها الدنيا ، وتتضح آفاق الحياة ، فتتقدم تقدم الواثق .**

يمثل هذا الإدراك والفهم لقيمة الابتسامة والحب : حرص الحكماء القدماء من السلف على تشكيل القوة النفسية في جمهور المسلمين ، وكان قول القاضي ابن حبان البُستي في كتابه عن العقلاء :

(ولا يُحَب للعاقل أن يَغْتَمّ ، لأن الغمّ لا ينفع ، وكثرته تُزري بالعقل ، ولا أن يحزن ، لأن الحزن لا يَرُدُّ المَرْزِئَة ، ودوامه يُنقصُ العقل .)[1] .

أي لا يردّ المصيبة الثقيلة .

وهذا نمط من فهم القدماء في العلاج النفسي ومنع الكآبة أن تتأسس في ثنايا الحزن ، والتركيز واضح في الكلام على أن الغم والحزن يتلفان العقل ويستهلكانه ، والنفس متصلة بالعقل ، فينالها الضرر أيضاً .

● **وهذه الأمور والمعاني والمجالات ليست وعظية فقط تتعلق بتربية مسلم موعوظ ، وإنما هي أمور كبار إذا كان محلها هو نفوس رجال كبار يقررون**

---

(١) روضة العقلاء / ٢٠ .

السياسة والمواقف الفاصلة ، ويعني ذلك أن النتيجة تنعكس على كل الأمة ، بل وتمتد لأجيال متلاحقة ربما ، ومن ذلك حركة الرهبة في نفوس القياديين من تحمّل مسؤولية تراجع في حال الأمة السياسي أو حال الدعوة .

وانفتاح نفس الداعية القيادي للقيام بواجب الإمارة الدعوية أو السياسية العامة ، أو انغلاقها : أمر عجيب جداً عند مَن مَنحه الله تعالى بعض فقه المسؤولية الإيمانية . فالظروف والتعقيدات وطبائع الجيل : لها كلها تأثير في همة الداعية لقبول التكليف أو الاعتذار والتعفف .

فنفوس بعض القياديين تستولي عليها حساسية مفرطة أن تكون ذات تقصير ، فتمتنع عن حمل المسؤولية والإمارة والوزارة والمكانة القيادية ، خوفاً من التبعات ومن تهمة تلوكها أفواه الناس أو عامة الدعاة ، مع أنه لو أخذها فغالب الظن أنه يُبدع ويُحسن ويؤديها بنجاح .

ويسمى هذا الشعور "الوجيس" .

وقد شرحه ابن عطية في معرض تفسيره لقوله تعالى : "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ" طه / ٦٧ ، لما تخيل حبال السَحَرة وعصيهم من سحرهم أنها تسعى .

قال ابن عطية : (قوله تعالى "فأوجس" : عبارة عَمّا يعتري نفسَ الإنسان إذا وقع ظَنُّهُ في أمر على شيء يسوؤه ، وظاهر الأمر كله الصلاح ، فهذا الفعل من أفعال النفس يُسمى "الوجيس" .)[1] .

وذلك موقف عبد الرحمن بن عوف ﷺ حين طلب منه سعد بن أبي وقاص ﷺ أن يأخذ الخلافة ، فقال : (ثكلتك أمكَ ! إنه لن يلي هذا الأمر أحدٌ بعد عُمر إلاّ لامه الناسُ .)[2] .

فهو يخشى أن لا يبلغ نموذج عمر ، فتعفف .

---

(١) تفسير ابن عطية ١٠/ ٥٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٨٧ .

ومما لا يعرفه كثير من الدعاة أن الرؤيا الصادقة ربما ألقت فراسة دقيقة في دواخل أنفس المتعففين تصدهم صدًا ، وإنما كان زهد عبد الرحمن بن عوف من هذا القبيل ، فقد قال لمن استغرب ذلك منه :

(إنما منعني رؤيا رأيتها في زمن عمر بن الخطاب ﷺ : رأيته يمشي ، والناس يهرولون خلفه ، ولا يُدرِكون بهرولتهم مشيه . فأوّلتُ ذلك : الخليفةَ الذي يكون بعده ، فكنتُ أرجو أن لا أكونه .)[1] .

فهو يلحظ مرحلة فتور قادمة ، وبوادر فتنة ، وقصور عن سمت جيل التضحية الصابر على لأواء البذل . فتأخذه رهبة ، فيدفع عنه الإمارة خوفاً من عوائدها ، إذ غيره يتشوف ويطيل العُنُق .

إلا أن نفس ميزان التقوى الذي يؤخره : ربما يحثه على التقدم إذا كان هو محور الكفاية ونقطة التلاقي .

فما يزال كل سوي تتقاذفه الموجتان المتعاكستان حتى يختار الذي هو أهدى وأتقى من القرارين ، فيمضي أو يحجم .

● وفي إبداعٍ آخر يُدلي مُتعمق في علم دواخل الأنفس برأيٍ جديد ويجعله هو الميزان الذي يضبط الخيار الصحيح بين هاتين الموجتين وهذين القرارين في حمل المسؤولية أو تركها .

فقد وجدت ملحظاً مهماً عند شاعر ينصح صاحبه أن لا يستبدّ به الخوف ، ويعلّل ذلك بتعليل رَصَدِيٍ استقرائي هو وليد مراقبة ، فيقول[2] :

قـل للفـؤاد إن نـزا بـكَ نـزوَةً

من الخوفِ : أفرِخْ ، أكثرُ الرَّوع باطِلُهْ

أفرِخْ : أي : كُن ساكن القلب .

---

(١) المغانم المُطابة في أخبار طابة ٣/ ٩٥٤ .

(٢) لسان العرب ٢/ ١٠٦٨ .

فعبارة "أكثر الرَّوع باطِلُه" عنوان لاكتشافٍ نفسي ينبغي أن يقوم على محوره ومداره نصف الطب النفسي، وأن ينطلق من هذه الحقيقة ومن إفهامها للناس وللمريض الخائف القلِق، لأن أكثر خوفه وَهْمٌ ولا أساس له، وإنما هو تخيُّلٌ وفَهْمٌ خاطئ باطل، ولكن النفس من شِدّة حساسيتها إذا صدمها شيء أو نفضتها هِزّة: اضطربت منظومة موازينها الفطرية المودعة فيها، وتخرج إلى مبالغة في تقدير حجم الضرر أو مصادر الخطر، فتكون جفولة مذعورة، فيها إحجام، وتعاف الفرص، والمال والمصالح، وتميل إلى الزهد والقناعة وقِلّة المغامرة. فيضمحل فيها الطموح، وترغب في السِّلم، والانسحاب عند المزاحمة والصدام والمنافسة والحرب، ثم تبدأ تُفلسِف قناعاتها المبنية على هذه الاستنتاجات الخاطئة التي أدى إليها اضطراب منظومة الموازين، وتتصور أنواعاً من العلاقات الجديدة تزعم أنها أصلح لها وتبدأ تتعامل وفقها وتسعى إلى تحوير خططها ومواقفها بموجبها، والنفس الجماعية في هذه الأنماط هي مثل النفس الفردية، فيكون الجيش أو الحزب أو المنظمة أو الشعب كله ربما ضحية أوهام الخوف الباطل، ويكون السدور حتى يظهر شجاع منهم فطرته أقوى من الصدمة، فيؤذن في الجموع ويوقظ أشواق الطموح.

ومن هنا كان التوكل والتفويض إلى الله سبب قوة نفسية للمؤمنين، بل وعنواناً من عناوين الإيمان واليقين، والسياق القرآني في تأكيد غلبة المسلم على اثنين من الكفار، وغلبة الفئة القليلة الصابرة على الفئة الكثيرة، وشواهد الأقدار الربانية في معارك بدر والفتوح وملاذ كرد وحِطين: كلها تعظ المكافئ إذا تهيّب أن يتأول خيراً ويبتسم ويقتحم.

● وفي انتقال قريب مقداره أقل من ذراعين: نصادف نوعاً من الإبداع آخر يظهر على لسان امرأة من عامة المسلمين كأنها تجردت للتامل في أحوال النفس ومحاولة فهمها، فاطلعت على فوارق بسيطة في هذه المنظومة الدقيقة من الأحوال وسلسلة المقامات والمنازل الإيمانية، فحرصت على ان تنبهنا لذلك،

مجتهدة أن ننتبه لنفهم طرائق عمل النفوس من غير جزاف وخطأ في التقدير كانت قد وقعت في مثله دهراً ثم أفاقت .

وهي عجوز طعنت في السن حضرت مجلس التربية في أحد مساجد بغداد ، فقامت ووعظت جميع الزهاد فقالت :

(كنتُ في حال الشباب أجد من نفسي نشاطاً ، وأحوالاً ، أظنها قوة الحال ، فلما كبرتُ زالت عني ، فعلمتُ أن ذلك كان قوة الشباب فتوهمتُها أحوالاً .)

قال أبو علي الدقّاق : (ما سمع هذه الحكاية أحدٌ من الشيوخ إلاّ رقّ لهذه العجوز .) وقال : (إنها كانت منصفة .)[1] .

فهذا تقرير مهم من هذه العجوز فيه بيان مكامن اختفاء التشخيص النفسي السليم عند الإنسان إذا أراد معرفة نفسه ، وانقطاع العلاقة أحياناً بين عقله وروحه بحيث تختلط التقديرات وتصعب عليه دراسة حاله ، فهذه المرأة لم تفرّق بين قوة الطاقة الجسدية ، والقوة الروحية ، فظنتها أحوالاً وهبها الله كثمرة للعبادة ، وهي نهضة تقوى عامة ، أي أنها ما كانت ضعيفة الإيمان في الحقيقة لمن يفهم ظاهر تبكيتها لنفسها ، بل كانت تطيع الله في أوامره ، لكنها كانت تظن أنها في مستوى أعلى من التقوى العامة ، وهو مستوى ورود الطوارق والإلهامات حتى تتحول إلى " أحوال " لابثة فيها صفاء الفهم الإيماني لجزيئة من الحق والعقيدة ، فهذا هو التقدير الوسطي الصحيح لأسف العجوز ، ولكن تبقى ملاحظتها صحيحة في أن سهولة الاستجابة لدواعي التقوى في الشباب بسبب وفور الطاقة يلتبس أحياناً على المرء فيظنه نوع ارتفاع في درجة اليقين ، وهذا وصول إلى رصد دقيق للفوارق البسيطة في طباع النفس ودرجات هممها يفيد الراصد ويجعله لا يركن إلى هدوء ، بل تتغذى وتيرة الطموح عنده ونوايا التحليق العالي .

وكأن بعض شباب الدعاة تكون عندهم هذه الحالة ، ولا أراها ضَعفاً ، فإن تسخير الشباب لقواهم في طاعة الله هي ممارسة لحال " الشكر " تامة إذا صحت

---

(1) الرسالة القشيرية / ٨٣ .

النوايا ، ولكن مغزى الحكاية أن تفحص نفسك وتعرف مكوناتها الخيرية واختراقات السوء .

وكأنهم قد ظلموا المسكينة ، فإن مثل هذه الحالة قد اعترت رجلاً تركياً في عصرنا ، ففهمها سعيد النورسي بفهم آخر ، وهو يرويها ويروي جوابه ، فيقول :

(قال لي أحد الأتقياء في " قسطموني " شاكياً : لقد تردّيت ، وتقهقرت عن حالي السابق ، إذ فقدتُ ما كنتُ عليه من أحوال وأذواق وأنوار .

فقلت له : **بل قد ترقيت ، واستعليت على الأذواق والكشفيات التي تلاطف النفس وتذيقها ثمراتها الأخروية في الدنيا ، وتعطيها الشعور بالأنانية والغرور ، وقد طرتَ إلى مقام أعلى وأسمى وذلك بنكران الذات وترك الأنانية والغرور ، وبعدم التحري عن الأذواق الفانية .**)[1] .

وهذا الجواب عندي أعدل وأحكم وأتم من فهم أبي علي الدقاق لقضية العجوز .

• ومن الأساليب التحليلية الذكية للطبائع النفسية : اكتشاف تقي الدين أحمد بن علي المقريزي لما أسميه : " **ظاهرة الإلقاء النفسي في تقويم الحاضر والمستقبل** " ، وهي قضية تدخل في منهجية الفهم ، ولكنها تؤثر في مواقف الناس سلباً عند الذهول عنها ، وإيجاباً عند إدراكها .

ويوجزها قول المقريزي : (لا تزال الحال المستقبَلة تُتصور في الوهم خيراً من الحالة الحاضرة ، لأن مَلالة الحالة الحاضرة تُزيّن في الوهم الحالة المستقبلة ، فلذلك لا يزال الحاضر أبداً منقوصاً حقُه مجحوداً قدرُه ، لأن القليل من شرّه : يُرى كثيراً ، إذ القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، وإذ مقاساة اليسير من الشدّة أشق على النفس من تذكّر الكثير مما سلف منها .) .

---

(١) الشعاعات للنورسي / ٣٧٤ ترجمة إحسان الصالحي .

وأكد ذلك فقال : (واعلم أن المسموع الماضي لا يكون أبداً موقعه من القلوب موقع الموجود الحاضر في شيء من الأشياء ، وإن كان الماضي كبيراً والحاضر صغيراً ، لأن القليل من المشاهدة أكثر من الكثير بالسماع .)[1] .

بمعنى أن الطبيعة النفسية تنقل فهم الماضي والحاضر والمستقبل إلى مناظير نسبية فيها إيهام واضطراب في الحساب والتقدير ، بسبب قوة المنظر المحسوس وضعف الوصف المسموع ، أو أن التقادم ينحت من أثر المنظر في النفس ، ولذلك فإن من تمام المنهجية في فهم موقعنا أو مستقبلنا أن ننخلع عن التأثر بهذه الطبيعة النفسية ، ونقيس بدونها ، وهذا ممكن ، ولكن للنفوس القوية فقط التي فيها صلابة وإمكانية للاستقلال عن الحدث والمنظر والمسموع واللجوء إلى تقدير حيادي ما أمكن ، وكأن ذلك لا يُتاح بشكل كامل ، لوجود بقايا من الحساسية النفسية والعواطف لدى كل فرد مهما كان عالماً وحريصاً على الالتزام المنهجي ، ولكن يمكن الوصول إلى مقاربة ، وهامش تأثر أقل ، والمران المتكرر عبر كثرة القياس ورؤية القرائن تزيد عنصر الدقة وضوحاً ، واستيفاء التمام ربما كان من المستحيل .

والذي يهمنا كدعاة من هذه الالتفاتة المنهجية : أن لا نوسع أنفسنا شتماً وتبكيتاً واتهاماً بالضعف والتسيب لمجرد توصلنا إلى تدوين صورة تخطيطية نزعم أنها ستبني لنا مستقبلاً جيداً وتحقق الأحلام الوردية التي نغمض أعيننا من أجلها أحياناً فنتكلف الخيالات العريضة ، فإنّا لا ندري حجم وأنواع المعاكسات التي تنحت من آمالنا ، والتي تأتي من داخل الصف وخارجه . ثم أن لا نبخس تاريخنا قيمته ، ولا نقلل من فضل أجيال دعاة ربّونا وسبقونا لمجرد أننا نعجز بحكم الفطرة عن تصور حجم أعمالهم وعن تصور أنواع التحديات التي واجهوها والمعاناة الحقيقية التي وقعوا فيها ، والحرص على واقعية التقدير ودقته واجب ، ثم الله لا يكلف نفساً إلا وسعها إذا نوت نية صالحة واقترفت من الممارسة المنهجية ما أمكنها ، إنما نود أن ننبه إلى أن محيطنا الدعوي يشهد تناجياً

---

(١) إغاثة الأمة بكشف الغمة / ١٣/ ١٥ تحقيق د. جمال الدين الشيال .

لا يراعي فقه المقريزي في منهجية التقويم ، ويرتكبُ بعض المستعجلين جُزافاً من القول فيه ظلم للأجيال التي سبقتنا بإحسان ، وتقريع للركب الحاضر الذي فيه بركة واضحة ، وإحالة إلى وعود غيبية بَرّاقة لا ندري خبر الأقدار معها ، والإنصاف أولى ، وخيرية المعاصرين موصولة بطيبات الروّاد ومناقب المؤسّسين ، والتقدير بعد التمحيص والدرس أدق من القول العفوي والهَرْس .

● ومن إبداع الناس الذي لا نعرف أول مَن قَدَحه : اللجوء إلى " أطراف الحديث " ، أي (مختارها ، وهو ما يتعاطاه المحبّون ويتفاوضُه ذوو الصبابة المتيّمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأخف وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهة وكشفاً ومصارحة وجهرا .)[1] .

وهذا يكشف التفافاً حاذقاً على الممنوع ، وبُعداً نفسياً في البناء اللغوي ، ويزداد هذا الأسلوب حضوراً في الحياة اليومية من خلال ذهاب الأدباء والعشاق وأهل الأمثال إلى " التشبيه " ونسبة أجزاء بدن الإنسان إلى مثلها من أجزاء جسم الحيوان ، كقولهم : عيون المها ، مثلاً ، ولذلك أسرع مجنون ليلى إلى الخيال وتصوّر ظبية وقعت في شَراكه أنها ليلى ، فأطلقها وهو يتمثل ويقول[2] :

أيا شِبه ليلى : لا تُراعي ، فإنني
لكِ اليومَ مِن وحشيّةٍ لَصديقُ

أقولُ وقد أطلقتها من وثاقِها
لأنتِ لَلَيلى ما حييتُ طليقُ

فعيناكِ عيناها ، وجيدُكِ جيدها
سوى أن عظمَ الساقِ منكِ دقيقُ

ونصف الأدب تشبيه وقياس يجري على رؤية الموافقات والمطابقات ، ثم هو

---

(١) (٢) لسان العرب ٢/ ٥٨٤ ، ١/ ١٢٥٦ .

أسلوب قرآني ومسلك في صنعة الحوار والمنطق والتفهيم مطروقة ، وتتوافق مع تحليلنا لحركة الحياة وأن هناك مماثلة بين حياة الإنسان وحياة بقية المخلوقات ، وأن فطرةً مقاربةً جامعة تضمها وإياه .

وفي هذا المذهب الإيمائي الذي استرسل الناس فيه ما يؤيد ما قلناه في رسائل أخرى من جدوى عناية الدعاة بأساليب "المجاز" اللغوية التي تتيح الإيماء والإشارة الخفية وتضيف للكلام جمالاً ورونقاً وتشرح في كثير من مواطن الإبهام مُراد العقيدة وتأويل النصوص ، وهذه المناسبة التي حشر فيها مجنون ليلى نفسه في سياق التعرف على حركة الحياة تدعونا إلى أن نفهم أن ترويج الطرق الأدبية الإيمائية في بعض الكلام الدعوي تتيح لخيالاتهم أن تنطلق ، وتؤثر فيهم في اللاشعور ، بحيث ترق أحاسيسهم ويتاح لهم التحليق والتجول الوهمي العالي ، فيكون سبباً يجعل نفوسهم وأرواحهم وقلوبهم تندمج وتتوازى مع الطموح والثقة وباقي الصفات الإيجابية ، وتعود لتفتح مكامن الحب في دواخلهم وتستريح فيها ثم تنطلق مرة أخرى تُصلح وتقود عملية السيطرة على الحركة الحيوية . ويتأكد مثل هذا المنحى في تعاطي الأدب الرمزي هذه الأيام بسبب استيلاء لغة الاصطلاحات الجافة في عصر الكومبيوتر والرقميات ، بحيث آلت المشاعر والعاطفيات إلى ضمور وأصبح الشباب أشبه بالآلة الميكانيكية المبرمجة ، وأحسن أحواله الآن أن يكون له عقل متوقد إبداعي بلا فؤاد طري ، ونحن نخاف على مثل هذا النموذج أن يجنح إلى خشونة في التعامل وزيادة انهماك في عمله الرقمي وجداوله الإحصائية فتبرد روحه مع الأيام ، وهذا ما لا يريده الله ولا يرتضيه ديننا القيم المتعادل الموزون ، وكل الدين دعوة ليقظة القلب والانشغال بالتسبيح والصلاة ، ثم تجربة البشر وطرائق الفلسفة تدفع نحو تدارس المعارف ، وأكثر معادنها ظهوراً : الأدب والشعر والفن وتوزيعات المبدعين للألوان والخطوط والرموز التجريدية التي تدغدغ الحواس ، ومجاز الشعراء الذي تقوّيه موسيقى الشعر الانسيابية المسترسلة التي سرعان ما تنمو لها أجنحة تطير بالنفس

وتضعها في المجال الرفيع .

● **والذي أظنه أن هذه الإبداعيات الأربع في الرؤيا الكذوب ، ووهم العجوز ، والخلل في تقويم الحاضر والمستقبل والماضي ، والركون إلى أطراف الحديث : كل واحدة منها تصلح أن تكون موضوعاً رئيساً في التدريب الإبداعي والإداري** ، ولو أخذها مُدَرِّب نبه لبق لاستطاع أن يصوغ منها مساقات تدريبية أصيلة مأخوذة من حقائق ديننا ومستلة من ثنايا ثقافتنا الذاتية وأعرافنا ومعارفنا ، وبريئة من تقليد الغربيين ، ومثل هذه المباحث والتحليلات هي جزء من أسلمة المناهج التدريبية الإدارية والفكرية ، والتي هي بدورها تمثل بعض أسلمة العلوم .

□□ وبهذا نكون قد وضعنا ألواناً كافية لإبراز معالم الصورة النفسية للحياة ، ونكون قد كشفنا عن هويتها المعنوية □□□

□□ شاهدُنا الرئيس في إثبات الحركة الحيوية ، والتنبيه لها ، وتكرار إثارة حضورها في الحياة الفكرية والنفسية في المجتمع الإيماني : القرآن نفسه ، فقد فهم المفسرون أن اصطلاح " البَعث " في القرآن الكريم يتعلق بمبحث الحركة ، لأنّ (البعث : التحريك بعد سكون ، وهذا مُطرِد مع لفظ البعث حيث وقعت ، وقد يكون السكون في الشخص ، أو عن الأمر المبعوث فيه وإن كان الشخص متحركاً .)[1] .

□ دوران إلكترونات الذرة هي منبع الحركة الحيوية

□ ولطول تأملي في موضوع " حركة الحياة " : صارت خلجاتي النفسية ، ومشاعري ، وما أملك من ومضات عقلية : كلها تتركز نحو هذا المعنى ، وأصبحت أرى ما لا يرى البشر ، فإذا رأيت سوار ذهب في يد طفلة : أتخيل كتلة الذهب كتلة ذرات ذات تسع وسبعين إلكتروناً تدور وتتحرك دائبة في مداراتها ، وتتجمع منها حركة ربما تدفع هذه الطفلة إلى الحركة ، بل كلما صببتُ الماء على يدي : أراه كتلة جزيئية متكونة من ذرات الهايدروجين والأوكسجين تدور إلكتروناتها وتنبض ، وكما جعل الله كل شيء حي من رواء الماء : جعل له حركة تغريه أن يلغي السكون ، أصلها حركة الإلكترون الفريد المتوحد لهذا الهايدروجين ، وتزداد تعقداً بتدريج مع زيادة عدد الإلكترونات ، لتكون حركة متدرجة ليست فوضوية ، ولا أزعم أن هذا الدأب الذري وانتقاله إلى صورة حركة مرئية للحيوان هو حقيقة علمية ، ولكنه خيال أتخيله متولد من استبداد فكرة تناسق حركة المخلوقات ، فما نظن منها أنه جامد : يتحرك حركة ذرية

(١) تفسير ابن عطية ٩/ ٢٤٧ .

دائمة ، والحيوان والنبات يتحركان حركة ظاهرة ، **ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ، وقارئ نظرية الحركة الحيوية يلزمه أن يبالغ في تأملها إلى الدرجة التي يستولي فيها عليه هذا الخيال** الذي ما هو برمز وخداع ، ولكنه حقيقة بالغة الصغر ، فيتمثلها كأنها كبيرة مرئية بالعين المجردة وعملاقة ، **وكأنها آلة أمامه تشتغل وهي ذرة** ، وبتأمل آخر يرى تكوّن جزيئة من عدة عناصر ، ويتمثل حركة أكثر تعقيداً فيها ، كأنها آلة معقدة ، فإذا استوى له هذا التصور فإنه يؤذن له أن يفترض فيه بداية الحركة الحيوية التي تكثف في صور شتى ، وتكون **هي** نقطة انطلاقه لفهم التوزيع القدري لحركات الحياة ، وسيكتشف **أن "النفس" هي الروح الكامنة خلف توليد هذه الذبذبات الحركية** ، بتنوع صفاتها ، فتدفع الإنسان والحيوان إلى أنواع التصرفات ، بل قد اقتبس الله تعالى للنبات شيئاً من هذه الطبيعة النفسية ، فهو بها يتجانس مع المحيط ومعطيات المناخ والغذاء .

□ ثم بدأ الحيوان والبشر في رصد الحركة

□ **والفِطرة تجعل الأم ترقب أول حركات الولد** ، وتظل قلقة حتى تطمئن ، حتى شبّهت العربُ ذلك بالوسوسة ، فقال الشاعر الكُمَيْت في ذلك يصف بيض النعام حين يقارب الفقس :

على تـوائِم أصـغى مـن أجنّـتها

إلى وسـاوس ، عـنها قابـتِ القُـوَبُ

والقوب : قشور البيض .

وهو يعني أنه : (لما تحرّكَ الولدُ في البيض : تَسَمّع إلى وسواس . جعل تلك الحركة وسوسة .)[1] .

---

(١) لسان العرب ٣/ ١٨٣ .

فالنعامة ، وكل أم ، في هذه اللحظات او الأيام الأخيرة : تصل إلى درجة الوسوسة في ترقّب حركة الولد الأولى ، كيف تكون ، وهل هي مضمونة ؟

هذه هي لحظة ولادة حركة ، وتملي التجربة المتراكمة الموروثة على سامعها أن يأمل منها مشاركة في التحريك ، ويطمئن إلى استمرارية الوتيرة ، وهذا الحال النفسي دليل على إعجاز كامن في الحركة هو سر الحياة والتغير ووراثة النوايا والأفعال .

● فإذا كان ذلك هو حال الحيوان : فإن حال الإنسان في رصد الحركة أوثق وادل وأوفى وآكد ، والإنسان المتعلم المعرفي الذي يتعاطى الأدب او العلم أبرع من غيره في اكتشاف مفاصل هذه الحركة ، وصفات النفس التي تتولى التحريك والتغيير ، وانظر مثلاً كيف وصفوا أدب تولستوي وغوصه في أعماق الواقع ، فقالوا : (تمتاز واقعيته بشموليتها في كشف العالم الداخلي للإنسان في حركته الدائمة وانسيابه في تغيراته وتناقضاته .)[1] .

وقائل ذلك ناقد متمكن وأديب وباحث ، هو الأستاذ بديع حقي ، ولذلك تكون جُملته التي تصف (الإنسان في حركته الدائمة وانسيابه في تغيراته) زاخرة بالمعاني ، وهو يعرف ما يعني .

● وفي الزمن القديم دارت فلسفة أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠م في هذه المدارات النفسية ، وهو فيلسوف له تخليط كثير ومال إلى الفكرة الصوفية في الفناء ، اي فناء نفسه العاقلة في بعض الأحيان واندماجه مع الله ، وقال بوحدة الوجود والاتحاد والحلول ، وأقواله في ذلك منكرة بلهاء ، لكنه كأنه تأثر بالأجواء المسيحية الأولى ، وتمكن من رؤية جانب من الصواب بعد احتجاب اكثره عنه ، فقال أقوالاً تشهد لمفهومنا عن النفس ولمنهجية حركة الحياة ، وقد قيل (إن علم النفس الأفلوطيني هو علم تدرّج مراتب الحالات الروحية) ، أي كان فكرة المنازل والمقامات جزء من منهجه ، ويبدو له الكون (سلسلة من الصور ، ترتبط كل صورة منها بالصورة التي سبقتها ارتباطاً متدرجاً في المراتب ،

(١) الموسوعة العربية ٧/ ١٧٨ .

وهي موضوع للنظر العقلي) ثم (هو يسعى إلى إثبات قيمة دينية للمذهب العقلي) ، وهو يؤمن بوجود وسيط بين العقل والمادة ، وهذا الوسيط هو النفس ، وهي إلهية في جزء منها ، كأنه يضفي على " تقواها " انتساباً للألوهية يعاكس حالة " فجورها " . وكل موجود عند أفلوطين له نفس ، ويرى (انحلال الحياة الروحية وتلاشيها بتبعثر النفس وتشتتها) ، وعنده أن (الغرور والتهور هما اللذان يجعلان النفس تلقي بنفسها في أحضان الجسم)[1] ، أي تصير مادية بعد تحليقها العالي وسُموها ، وهذه لغة صوفية إسلامية أيضاً .

ونظريتنا في حركة الحياة : " تلفيقية " ، تحاول تجميع أجزائها من صواب متفرق عند كثير من الفلاسفة والمفكرين والأدباء ، وهذا الجزء من صواب أفلوطين يصلح أن نجعله بعض الفلسفة التلفيقية التي نحاول تجميعها وصياغتها ، وهو غير أفلاطون الذي سبقه بقرون .

وكان من الفيلسوف الفرنسي " برغسون " المتوفى سنة ١٩٤١ والمنحدر من أصول يهودية أن اعتنى بفلسفة أفلوطين وجدّدها ، وصاغ مذهباً سماه " مذهب الاندفاعة الحيوية " ، وكأنه يلحظ فيه أن الصعود في مدارج النفس الأفلوطينية ومراتبها يتسارع في النهاية ويتحول إلى اندفاعة ، فإن كان يعني ذلك فهي مقاربة للمعنى الصحيح الذي نحوم حوله ، وإن كان يريد أنها تنتهي باتحاد وحلول فباطل ما يقوله .

❑ زهور .. تُدغدغ الطموح .. تنمو بين القبور ..! !

❑ وللنحات السويسري البرتو جاكومتي ١٩٠١-١٩٦٦ فلسفة غامضة في شأن الحركة ، ولكن قواعدنا الإيمانية الإسلامية تشرحها وتفكّ سرّها وتكشف غموضها ، ففي آخر حياته مال إلى جعل (الوجه الذي يمشي يكتسب سكونية

---

(١) الموسوعة العربية ٢/ ٩٣٥ .

الوجه الثابت ، في نوع من التناقض بين الحركة والثبات .) .

(وفي نص شهير كتبه جاكومتي في عام ١٩٤٦ شرح كيف أن الموت يفرض نفسه في واقعه اليومي الفاتن . ومنذ تلك اللحظة شرح كيف بدأ هو برؤية مظاهر الحياة تحت أوجه الموت ، فرأى الحركة تحت مظهر الثبات ، وتنوّع الواقع المعيشي تحت مظهر الثباتية النهائية ، والتعددية تحت مظهر الفردية ، وكان كل مخلوق يبدو لناظريه حياً ميتاً بآنٍ واحد .) .

و(منذ عام ١٩٥٠ اهتم فلاسفة أمثال سارتر وبونتي ، وكتّاب أمثال جُنيه وباتاي ، وشعراء أمثال بونج وشار : باعمال جاكومتي واهتموا بمفَرداتها ، واعترفوا أنها تجسد نحتاً وتصويراً ورسماً وحفراً خلاصات فكرهم ومنهجهم ورؤيتهم للواقع الإنساني .)[1] .

وهذه الغرابة ، التي تزداد جفلة المؤمن منها بسبب ذكر سارتر ، ممكنة التأويل ، وتزيد فهمنا لطبيعة الحركة الحيوية وأنها توحي بالسكون أحياناً .

فهذا المذهب يرى مسحة من الحركة في السكون ، ومسحة من السكون في الحركة ، وعندي أن الفطرة هي التي أتاحت لهذا الفنان ومن أيده من الفلاسفة والشعراء أن يروا هذه الظاهرة التي هي صواب وحق ، ولكن أحدهم لن يَعدُوَ قَدْره وتظل رؤياه ناقصة ، للكفر المستولي عليهم .

● ومكمن الحق : أن ترقُّب الموت عمل إيماني ، وذلك من شان المؤمنين ، وكان النبي ﷺ يزور البقيع مستغفراً ومذكراً لنفسه ، والوصية الإيمانية أن اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً ، وهذا الاستحضار لمعنى الموت وهجومه قد يزداد حتى يغدو المؤمن يتلفت كثيراً لئلا يغفل عن رؤية ملك الموت إذا أراد القدوم عليه ، وليستغفر في لحظته الأخيرة ، وهي حساسية مفرطة رُويت عن بعض الصالحين ، وقد يراها بعضنا تكلّفاً وما هي بتكلف بل هي تربية بالمنظر ساقها القدر إلينا في فعلة هذا الصالح تشابه قصة الذي بنى له حصناً في الكوفة تذكيراً

---

(١) الموسوعة العربية ٧/ ٤١٦ .

لأهلها بمعنى الجهاد ، فكذلك هذا يقوم منظر تلفته واعظاً للناس بمعنى الموت القريب الداهم الذي يفجأ ولا يستأذن ، وكأنه سكون يطرأ على الحركة ، وذلك هو سر منهجية الشاعر أبي العتاهية الذي جعل معظم شعره وصفاً للاحتضار والكفن والقبر والتشييع ، وأخذت بها التربية الدعوية بلا نكير من خلال امتلاء كتاب « الرقائق » بمواعظ الموت ، فاستدللنا على أن وجودية سارتر وهذا الفنان التقتا في هذه الزاوية على الأقل مع فهمنا الإيماني لمعنى استيلاء الموت على جُملة البشر والمخلوقات ، وسير شائبة الموت السوداء في صفحة الحركة الحيوية . وسر النقطة الوامضة التي تصدح بالاستمرار بين ثنايا صفحة الموت السلبية الراكدة ، فما من حركة تامة النبض ، وما من موت ثقيل الجثمة أبدي الأثر . من بين القبور تنمو الزهور ، فيدغدغ جمالها بذرة الطموح في القلب فتستيقظ .

● وبعيداً عن الغموض الفلسفي في هذا المنطق : فان عمل هذا النحات ينهض كمثال واضح لنجاح الفن في خدمة الأفكار وترجمتها في عمل جمالي . فوجودية سارتر ومذاهب الشعراء والكتاب وجدت لها صياغة فنية مَرئية ذات أبعاد ، ولم تبق عائمة ، وهذا الذي نريده من الفنان المسلم الدعوي : أن يُنتج صياغات لونية وحجمية تشرح معنى الإسلام وفيها إيماء واضح إلى معانيه .

❑ هجمة التمدن .. على سكينة النفس

❑ والانسياب مع الفِطرة هو أوضح تصوير للنفس ، والفطرة إنما تعمل في المحيط الهادئ الطبيعي المسترسل ، بعيداً عن الضجيج والصخب والآلة الذي يكون في ازدحام المدن ، ولذلك صارت سُنة المؤمنين وعادتهم : تقصد العُزلة بعض الأحيان ، والخلوة التي تتيح التأمل ، وتفضيل القرى والبراري ، ولكن لأن هجر المدينة لا يمكن ، ومعايشة الناس ضرورة ، ورعايتهم بالوعظ والنصح واجب إسلامي : صارت المراوحة في ذلك ، وتقسيم الأوقات بالحسنى ، والتخطيط

الحضري الإسلامي ينبغي أن يقلل فرص الازدحام في المدن الصلدة التي تصير حياتها ميكانيكية ، ويعمد إلى نشر القرى والمدن الصغيرة وتوفير الخضرة والمساحات الفارغة بينهما ، لإعانة الفطرة على الحياة والظهور ما أمكن .

● وليس هذا هو إحساس المؤمنين فقط ، بل في العالم الغربي مال بعض الأدباء والعلماء إلى التذكير بذلك ، وقاموا واعظين منذرين منذ زمن .

فممن أشاد بحياة الريف الكاتب البرازيلي أزيفيدو ١٨٥٧-١٩١٣ من خلال روايته " دمعة امرأة " سنة ١٨٨٠ التي (جاءت إبداعية الطابع تقوم على تمجيد حياة الريف ، حيث " الأحلام العارية ، والنفوس الصلبة " .)[١] .

وها هنا التفاتة جيدة ، فإن حياة الريف ليست تمنع هدوء النفس فقط ، وإنما صلابة النفوس أيضاً ، في زمن يريد الإعلام العام ترويضها وتسهيل تبعيتها لوصفات اليهود في الفكر والأخلاق والفهم السياسي ، فالصلابة عنصر حصانة واستقلال ، ثم تترسخ هذه الإيجابيات النفسية من خلال الأحلام الساذجة البريئة من التكلف ، والتي تنطلق على رسلها بعفوية فتزيد نقاء الروح .

ومن أرهبته حياة المدينة المعاصرة الشاعر المكسيكي توريس بوديت المتوفى سنة ١٩٧٤ ، وقد أصدر ديوان " الأيام " ، وفيه (يعبر الشاعر عن قلقه من لاإنسانية ظروف المعيشة في المدينة ، وعن شوقه إلى طمأنينة الحياة الريفية) ، ثم في ديوان " المنفى " : (عاد الشاعر إلى موضوع عدائية ولاإنسانية البيئة المحيطة بالفرد) ثم في ديوان " حدود " و " بلا هدنة " أظهر (معاناته من تطور المجتمع الحديث) ، وكان هذا الشاعر رجل دولة أيضاً وتولى وزارتي التربية ثم الخارجية[٢] .

● بل يقف العالم الاجتماعي المصري الدكتور أحمد أبو زيد موقف النذير العريان الذي يحذر من قسوة مدن المستقبل ، فينقل عن (مقال طريف نشر في عدد مايو / يونيو ٢٠٠٣ من مجلة New Life Magazine عن (مدينة المستقبل) قول الكاتب فريدريك جيمسون - وهو من المهتمين بتطور فن العمارة - إن

---

(١)،(٢) الموسوعة العربية ٢/ ٢٩ ، ٧/ ١٤٠ .

بعض الدراسات أبرزت أنه بقدوم عام ٢٠٢٠ سوف يتعدى سكان المدن خمسة مليارات نسمة ينتمي معظمهم إلى العالم الثالث ، وأنه من بين المدن العملاقة الثلاثين الأولى سوف تكون منها سبع وعشرون في الدول الأكثر تخلفا ، وأن تسع عشرة مدينة ستكون في آسيا) (كذلك يلاحظ جيمسون أن ثمة ميلا واضحا نحو المبالغة في إقامة المباني والمساكن المترفة والشديدة الارتفاع ، والتي لن تجد في كثير من الأحيان من يسكنها ، نظراً لارتفاع تكلفة الإقامة فيها ، بشكل يعجز معظم الناس حتى في الدول الغنية عن تحملها . والغريب أن هذا التسابق نحو تشييد هذه المباني لم تسلم منه مدن العالم الثالث ، وقد يكون ذلك ناجماً عن الرغبة في مسايرة التغييرات التي تحملها تيارات العولمة) ويذكر أن (ثمة كثير من المشكلات التي بدأت بوادرها في الظهور الآن بالفعل ، والتي يمكن ردها إلى متطلبات العولمة ذاتها ، وإلى التقدم العلمي والتكنولوجي ، أي إلى العوامل التي تعتبر أساس قوة مدينة المستقبل التي سوف تعاني - على الرغم من الثراء والرفاهية والانفتاح على العالم والقدرة على المنافسة - من ازدياد حدة التباين الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بين السكان واتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء اتساعاً رهيبا يحمل بين جوانبه كثيراً من الشرور؛ إذ سوف يتزايد الشعور لدى قطاعات كبيرة جدا من السكان في هذه المدن المترفة المتعددة الثقافات بحالة البؤس والفقر والفجوة الاقتصادية الواسعة التي تفصل بينهم وبين الأغنياء ، وكذلك الهوة السحيقة التي تباعد بين الذين يعيشون في تلك المباني الشاهقة ، والذين لا يجدون مأوى لهم وسط ذلك الثراء الفاحش ، الذي يحيط بهم من كل جانب . وبطبيعة الحال سوف يكون الشعور بالحرمان والفقر والبؤس والظلم الاجتماعي أكثر مرارة في مدن العالم الثالث ، حيث يتوقع الكثيرون ارتفاع معدلات البطالة ، نظرا للاعتماد المباشر والمتزايد على التكنولوجيا المتقدمة؛ وكذلك استفحال أحداث العنف والجريمة . وتفرض هذه الاحتمالات نفسها على المشتغلين بتخطيط مدن المستقبل ، بخاصة في العالم

الثالث ، وتدفعهم إلى البحث عن حلول تمنع أو على الأقل تحد من مخاطر هذه الاتجاهات والنزعات .)[1] .

فماذا فعلت الدعوة من ضغط لدرء هذه المفسدة الآتية ؟

إن هذه التخوفات إذا تحققت فإنها ستلغم الأرض أمام الإصلاح الاجتماعي الذي تبتغيه الحركة الإسلامية ، وإن بذلنا التربوي عليه أن يتضاعف إذا أريد سد الثغرة ، وعلينا أن نستعد للتعامل مع نفوس قلقة وربما عدوانية ، ومن صفاتها القسوة وقلة المبالاة بالأخلاق الإيمانية ، والانشغال بتوفير أمنها ومتطلبات معيشتها ، ومعنى ذلك استنفاذ الطاقة الدعوية في الأمر الاجتماعي فقط ، بحيث لا تبقى طاقة أخرى للحياة العلمية والمعرفية ، بل ولا للممارسة السياسية ربما ، وكأنّ من اللازم أن نحتاط من الآن للأمر قبل وقوعه بالضغط على المخططين والحكومات لتقليل السلبيات التي يتخوف منها الدكتور أبو زيد وغيره من علماء المجتمع ، والإعلام وسيلة إلى مثل ذلك ، لأن مجال شغلنا هو مع الناس ، ونريد للناس الإيمان ، والإيمان يحتاج السكينة والهدوء ، ومدن المستقبل تهددهما .

ومما يزيدنا ثقة بهذا الرأي في وجوب إيجاد تصاميم للمدن جديدة تعالج المسألة الاجتماعية : أن هذا الإحساس قديم ، وقد نادى به المعماري الأميركي الشهير " رايت " .

لقد (أعلن رايت في كتابه " المدينة المحتجبة " الصادر عام ١٩٣٢ عن نفور شعبي من الحياة المدنية العصرية ، وحمله هذا الأمر على معالجة مشكلة تطوير شكل جديد للجماعات . ظهر هذا التطور في مخطط مدينة " بروديكر " .)[2] .

أما عندنا فلم يظهر حتى الآن ، لعدم وجود " رايت " عربي وإسلامي .

● وعالم الذرة الشهير " هايزنبرغ " هو ممن رَصَد أثر التقنية في إحداث تحول سلبي في نمط الحياة ، ولكنه لا يميل إلى المبالغة في ذلك ، ويذكرنا بأن هذه القضية

---

(١) مجلة العربي عدد ٥٧٠ مايو ٢٠٠٦ .

(٢) الموسوعة العربية ٩/ ٧٥٧ .

ليست جديدة ، لأن الآلة موجودة منذ أزمان بعيدة (ولو بشكل بدائي ، بحيث أن رجال الماضي قد اضطروا إلى لتفكير بهذه المسائل نفسها .) و(أن العالم الصيني "دشوآنك دسي" قد تحدث منذ ألفين وخمسمائة عام عن الخطر الذي يجره على الإنسان استعمال الماكنات) و(قال :

لما اجتاز دسي فونك منطقة شمال نهر هان ، رأى رجلاً شيخاً يعمل في بستان . وكان قد أعد سواقي للري ، فرآه ينزل بنفسه في الجب ويصعد منه وبيديه وعاء مملوء بالماء فيفرغه في السواقي . فإذا به بعد أن يرهق نفسه إرهاقاً كبيراً لا يحصل إلا علي نتيجة زهيدة .

قال له دسي فونك : هناك وسيلة لسقاية مائة ساقية في يوم واحد . ويمكن بقليل من الجهد الحصول على نتائج كبيرة . أفهل تريد الاستفادة منها ؟ فانتصب البستاني واقفاً وحدق فيه وقال : وما هي ؟

قال دسي فونك : تأخذ رافعة من الخشب تكون ثقيلة المؤخرة ، خفيفة المقدمة وهكذا يمكنك أن تستسقي الماء بوفرة .

فعلا الغضب وجه الشيخ ثم قال وهو يضحك : لقد سمعت معلمي يقول : ان من يستعين بالآلات ، يؤدي أعماله كلها بلا تفكير ، كأنة آلة ، ومن يؤدي أعماله آلياً يصبح قلبه آلة ومن في جوفه قلب كالآلة يفقد طهره وبراءته ، ومن فقد طهره وبراءته أصبح مريباً في تحركات فكره ، وريبة الفكر لا تتفق مع الحس الصحيح . إنني لا أجهل هذه الأمور التي جئت بها ، ولكني أستحيي أن استعين بها .

يشعر كل منا أن هذه الحكاية القديمة لها نصيب كبير من الصحة ، لأن "الريبة في تحركات الفكر" هي النعت الأمثل لحال البشر في الأزمة الحالية : فالتقنية والآلة قد اقتحمتا العالم اقتحاماً لم يخطر اتساعه على بال الصيني الحكيم . على أن أجمل الآيات الفنية ما أبدعت إلا بعد ألفي عام ، وأن براءة النفس و طهارتها التي يتحدث عنها الحكيم لم تفقد كلها في يوم من الأيام ، بل تراءت على مر

الأجيال و هي بين ارتفاع وانخفاض بدون أن تفقد خصبها . وبالنتيجة : ان تمامي الجنس البشري قد تم بفضل الآلات ، لذلك لا يمكن ان يعزى إلى التقنية نفسها ضياع حس ترابط المجموع في كثير من النقاط .

ربما كنا نقارب الحقيقة إذا ألقينا تبعة كثير من التعقيدات على النمو الفجائي السريع - بالمقارنة مع التحولات السابقة - للتقنية خلال الأعوام الخمسين الأخيرة . والحق أن هذا النمو السريع - بالنسبة إلى القرون السابقة - لم يدع للإنسانية الوقت الكافي لتتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة . ولكن هذا نفسه لا يفسر تفسيراً جيداً (أو أنه يفسر تفسيراً ناقصاً) السبب الذي من أجله نجد عصرنا يواجه بلا ريب موقفاً جديداً تماماً ، لا مثيل له في التاريخ مطلقاً .

أصبح الإنسان الآن وحيداً مع نفسه .

قلنا منذ البداية انه ربما جاز اعتبار تغيرات أسس علم الطبيعة الحديث دليلاً على التغيرات الأساسية الطارئة على حياتنا ووجودنا : تغيرات تبدو في آن واحد في نقاط كثيرة ، سواء أكان ذلك في التطورات الحادثة في نوع حياتنا أو عاداتنا في التفكير أو في الكوارث الخارجية من حروب وثورات . وإذا نحن حاولنا ، ابتداء من وضع علوم الطبيعة الحديثة أن نتقدم خطوة فخطوة نحو الأسس المتحركة ، فإننا لا نشعر بأننا نبسط الظروف كثيراً إذا قلنا ان الإنسان يجد نفسه - للمرة الأولى عبر التاريخ - وحيداً مع نفسه على هذه الأرض بلا رفيق ولا خصم .

وإذا قصدنا كفاح الإنسان للأخطار الخارجية ، يصبح ما قلناه حقيقة مبتذلة . فقد كان الإنسان في الماضي تهدده الوحوش الكاسرة والأمراض والجوع والبرد ، وغير ذلك من قوى الطبيعة ، وفي غمرة هذا الكفاح كان كل تحسين يطرأ على التقنية يعني تقوية لموقف الإنسان ، أي تقدماً . وفي عهدنا هذا ، حيث غدت كثافة البشر على الأرض تتزايد كل يوم ، فإن تحديد إمكانات العيش ، وبنتيجة ذلك الأخطار ، ينشأ قبل كل شيء من أفراد البشر الآخرين الذين يطالبون بحقهم من خيرات الأرض . ولكن هنا لم يعد نمو التقنية بالضرورة تقدماً . وأن

عبارة "أصبح الإنسان وحيداً مع نفسه" لها شمول أوسع في عهد التقنية .

كان الإنسان قديماً وجهاً لوجه أمام الطبيعة التي تسكنها مخلوقات من جميع الأنواع فتؤلف مملكة تعيش وفقاً لقوانينها الخاصة . وكان على الإنسان أن يتلاءم معها بوجه ما . أما اليوم فنحن نعيش في عالم قد غيره الإنسان إلى حد بعيد ، بحيث نواجه أينما سرنا البنيات التي أنشأها : مثل استعمال أجهزة الحياة اليومية ، وتهيئة الغذاء بواسطة الآلات ، وتغيير المناظر من قبل الإنسان ، بحيث أن الإنسان أينما سار ، فإنه لم يعد يلاقي سوى نفسه .)[١] .

● وتخوّفات هذا العبقري الألماني إنما حصلت لأنه من العلماء الكبار في الفيزياء النظرية ، التي هي صَنعةٌ تأملية وتحتاج عمقاً في التدبّر والتفكير المجرد ومحاولة الوصف والاستنتاج واستنباط الفرضيات المتنوعة ، ولذلك تومض له على جانبي طريقه الفيزياوي مثل هذه الومضات في السلوك والأخلاق والطباع النفسية ، وتأتي قيمتها تبعاً لهذا العمق الذي وُلدت فيه ، فما هي من الفرضيات الطارئة ، بل قيمتها أنها من نتاج الطبقات التحتية ، والإسلامي أجدر أن يفهمها ويحاول إنزالها عَبر خططه على الواقع ، لأنها وليدة الفطرة الكامنة وراء التكلفات في المنازل الجوّانية التي لم تتلوث وأتاح لها الحَفر والتنقيب الظهور ، والإنزال على الواقع يعني حُزمة من الملاحظات والشروط والدراسات النفسية تنجزها المراكز البحثية الدعوية ، وبخاصة مراكز الدراسات الاستراتيجية والنوادي التنموية ، وتقدمها إلى دوائر البلديات ، ووزارات الإسكان والتخطيط ، واللجان البرلمانية المختصة ، والأجهزة الإعلامية ، ويكون منها إلحاح في ذلك ، وتجعل الأمر قضية حية في قلوب الساسة والإداريين ، عسى الاستدراك الاحتياطي المسبق يحصل ، ويقل الخطأ ، فيكون الواجب الدعوي التربوي والإصلاحي أسهل ، وهذه آفاق في التفكير يتبرم الداعية المتسيب من تأكيدنا على السير بموازاتها ، ولكنها حق ، وهي علامة الدعوة الجادة التي تُبصر

---

(١) كتاب فيرنر هاينزنبرغ وفيزياء الكم / ١٨٨-١٩١ ، ترجمة وجيه السمان .

أقدار السوء قبل قدومها فتدفعها بأقدار التخطيط الخيري ، ومجموعة المعماريين الإسلاميين وأساتذة العلم الحَضري يمكن أن يكونوا قادة هذه القضية .

□ النظرية النسبية الجمالية تتيح لعنصري الزمن والحركة أن يضربا في الأرض

□ والمسلم حساس في القضية الأخلاقية والسلوكية أكثر من غيره ، لذلك **يحفل من آثار التعقيد والآلة في الحياة اليومية** على عموم الناس الذين هم موضع **اهتمامه** الإصلاحي ، لأن زمن الخضوع لهذه التأثيرات إذا طال يتحول إلى طرائق **فوضوية** ونزعات عدوانية تطبع يوميات الناس بالقلق والتوتر النفسي .

● **لكن من شأننا أن نغرس في الناس السكينة** والهدوء والإيمانيات ما **استطعنا** ، وذلك يؤسس منظومات أخلاقية متناسقة منسابة تمنح الحياة **والاستقرار** والثبات .

● **هنا ينشأ عندنا منعطف مهم يجدر بنا فهمه ، فإن الاستقرار المنشود إذا حصل قد يتحول إلى كُمون واسترخاء وفتور ، وذلك من مسالك النفس الإنسانية ، بينما نحن نريد تحريك الحياة ، ووضع المسلم في خضم هذه الحركة الإنتاجية الإيجابية النظامية التي تعاكس النمط الفوضوي ذاك ، وهذا التحويل والتحريك يحصل بعضه من خلال تداول الفكر الإسلامي والمواعظ الإيمانية** ، ونحن الأساتذة في ذلك ، والوتيرة التربوية حاضرة في الحياة الدعوية ومن الممكن جداً التماس طرائق تكثيفها وتطويرها .

● لكن الوسائل المساندة على جانب هذا الطريق الفكري التربوي مطلوبة أيضاً من أجل بلوغ الإتقان ، **والفن والأدوات الجمالية هُما من أنجح الوسائل المعرفية في غرس هذا التأثر الشعوري واللاشعوري معاً في نفوس الناس** . وتهذيب السلوك الصلب والميل إلى اللين وخفض الجناح والاستسلام لخطط الإصلاح ، ثم

معالجة احتمالات الكمون والفتور عن طريق إلقاءات نفسية فيها تدريب على الحركة النظامية الهادفة ، فنحن لا نريد للناس أن يكونوا سلبيين جامدين ، بل نريدهم أن يسيروا بموازاة خطتنا الإصلاحية ، وهذا لا يحصل إلا بحركة وخروج عن حالة السكون ، والحركة لا بد أن تكون موزونة لكي تكون مثمرة ، وبعض هذا التحريك إنما نحصل عليه بأن نتيح للناس ولدعاتنا معاً رؤية مكثفة شبه دائمية لأعمال "فنية حركية" نوزعها في المدارس والجامعات وزوايا الشوارع ، بل وبإدخال نسخ صغيرة منها إلى بيوتهم ، فيحدث التأثير التلقائي المتدرج ، ويشارك الفن عندئذ في إنتاج السكينة النفسية ذات النمط المتحرك الإنتاجي .

● (إن الفن الحركي قاد الفنان عملياً إلى هجران حدود التصوير الضيقة) . وإن مصطلح "الفن الحركي" (انتقل من المصطلحات العلمية المتعلقة بالطاقة ، ودخل في مفردات الفن التشكيلي .)[1] ، وهو يعني أن يخرج الفنان من حدود اللوحة المجردة أو الشكل النحتي ، إلى تأليف مجموعة مجسمة تمثل منظومة مترابطة وبعض أجزائها متحركة بفعل الريح أو بآلة ، ويستعمل لذلك الألواح الخشبية والمعدنية ، والأشكال الهندسية الكروية والهرمية وغيرها ، والصفائح وأنواع القضبان والرقائق والأوعية والمخلفات الصناعية ، مع استعمال تأثيرات الألوان والأضواء والانعكاسات ، بحيث ينتصب هذا التشكيل الفني في النهاية كأنه مسرح تتناغم فيه حركات ومناظر تنفذ إلى أعماق المشاهدين وتودع فيها بعض المعاني الإيجابية التي قصدها الفنان ، وعادة ما تكون هذه الأعمال كبيرة توضع في الساحات العامة ومداخل العمارات والمؤسسات ، وعندئذ يلزمنا التفتيش عن روابط وصل بين الفنان المسلم و البلديات ومكاتب المعماريين لتسويق هذا الفن ونشره في المدن ، ولكن من الممكن أيضاً إنتاج نسخ صغيرة منها تباع كهدايا وتوضع في البيوت على المناضد والرفوف ، لتقوم بدور الوعظ التدريجي والتعامل مع اللاشعور عند أهل البيت وضيوفهم ، أو عند طلاب المدرسة ، أو

---

(١) الموسوعة العربية ٨/ ٢٠٢-٢٠٨ .

منتسبي دائرة ومكتب إذا وضعت في الصالات ، بل ربما حتى في حدائق المساجد ومداخلها ، لتربية المصلين بمعناها الرادف لوصايا الإمام .

● **ومن ضمن هذا الفن الحركي : (الأعمال التي أدخلت الضوء والحركة ،** والأعمال الأكثر تجهيزاً ، وهي تلك التي صيغت لتكون مشهداً أو بيئة) .

(ولم تكن ولادة ذلك الشكل من أشكال التعبير الفني إلا نتيجة مباشرة لتسارع التطور التقني والعلمي ، وتخصيص كثير من فناني الطليعة قسطاً من أبحاثهم للتعبير عن الحركة ، كالمستقبليين) . وكان الفنان دوشان (أول مَن أدخلَ الحركة في العمل الفني ، فاهتم بمظهر الحركة الآلي بوصفها موضوعاً ، ليقترب بذلك من المستقبلية) (وينجز تشكيلات تهدف بدورانها إلى خلق خداع بصري أو مكاني ، وإلى دوشان هذا يعود استخدام التسمية ' متحركات ' التي أطلقها في معرض حديثه عن أعمال الفنان الكساندر كالدر التي عُرضت في كل من باريس ونيويورك في عام ١٩٣٢م . ومن المعتقد أن مسألة اللاوزن ، كجزء من التقليد الحركي : تعود في نشأتها إلى كالدر الذي أثر تأثيراً طاغياً في فن زمانه .) .

وفي بعض نماذج كالدر : (كلما تأرجحت إحدى الرقائق : تولدت علاقة جديدة مع الأخريات .) وتتحكم في ذلك (أمور أخرى ، مثل نقاط التوازن المتعددة ، وطول الأسلاك ، ووزن هذه الرقائق .) .

(وانطلاقاً من روحٍ وفكر مغايرين : طوّر البنائيون الروس بوساطة تجاربهم التي اجروها على المكان : إمكانات الحركة ، بوصفها علامة بَصَرية للزمن . والحقيقة أن مفهوم الواقع ودراسته أديا الدور الأكبر عند هؤلاء الفنانين المتمرسين بفن المختبرات . كَتَب ' غابو ' : **إن للنحت البنائي أبعاداً أربعة .. ونحن نسعى إلى إدخال عنصر الزمن في العمل الفني ، وبالزمن أعني : الحركة والإيقاع .**) .

ولقد (كانت دراسة ظواهر الحركة النفسية الفيزيولوجية عموماً : الشغل الشاغل لفناني الاتجاه الجديد .) (ودفَع الفنانين إلى إقامة معارض مهمة سجلت بداية الاهتمام الجماهيري الواسع بظاهرة الفن الحركي .) .

و(كان الفنان البلجيكي بول بوري واحداً من الأوائل الذين استخدموا المحركات الكهربائية في تجاربهم التشكيلية ، وكانت أعماله تتبع إيقاعاً غير متوقع في زمن متمدد بوساطة حركات بطيئة إلى أقصى الحدود ، مُغفلة وصامتة ، وفوق طبيعية ، وهي تشكيلات من المطاط أو النايلون والألواح الخشبية ، ومن القضبان أو الكرات المعدنية ، تقدم للمُشاهد تنظيماً تشكيلياً .) .

وأيضاً ، وفي هذا السياق : (جرّب كثير من الفنانين الأمريكيين خاصة : " الأضواء - الحركية " مطورين تقنيات مستحدثة : لوحات ضوئية متحركة ، مواشير ودارات فيديو ، وأنابيب معبأة ببخار الصوديوم واليود والزئبق ، وأنظمة بسيطة أو معقدة لتعديل مصادر الضوء وتغيير مساره ، والحصول على احتمالات لا حدود لها لمُركَبي الضوء والحركة ، بدءاً من التشكيلات الضوئية الثلاثية الأبعاد ، وانتهاء بأعمال البيئة والأعمال المشهدية ، مروراً بالنواتئ ومعلقات المعادن العاكسة وتأثيرات التصوير الضوئي الفوري) وذلك التصوير بإشعاعات الليزر .

و(استثمر فنانو الحركة طاقة التعبير الطبيعية الحركية) (فلقد أوحى مبدأ المتحركات التي يحركها الهواء ، لجورج ديكي ، بتشكيلات فولاذية لا تصدأ تتجلى في المكان بحركات مديدة) كذلك (يدفع الماء ، وقد اتخذ شكل قطرات مكثفة ، الضوء إلى اللعب داخل مجسمات من زجاج) ودخلت (القوة المغناطيسية في الأعمال النحتية) (عبر الحركة التي تبعث الحياة في تشكيلات الحديد .) .

وهكذا (رَسَم الفن الحركي مع هذه الإمكانات وثرائها توجهات عالمنا العامة في عالم الإبداع ، فبوساطته خرجت الفنون المفتونة بديناميكية العالم المعاصر من عزلتها النسبية لتلتقي مع مباحث العلم والتكنولوجية .) .

وهذه مجرد إشارات توضح كيف (يسعى فن الحركة إلى استقطاب جمهور تتضاعف أعداده يوماً بعد يوم ، ويعمل على تنشيط العمارة بابتكاره الأعمال البيئية والمشهدية . إنه فن يتوجه إلى العين التي تبصر ، واليد التي تتدخل ،

والمشاهد الذي يشارك ، من دون أن يقتصر في توجهه على جماعة من المجربين أصحاب الامتياز ، لا سيما أن تحقيق أثر حركي غالباً ما يستوجب عملاً جماعياً يقوم به فريق كامل .) .

(فمن البديهي أن يصير مفهوم الفراغ ، المتوارث من عصر النهضة ، والقائم على إدراك عالم مرئي توحده أنظمة علم المنظور التقليدي ، مفهوماً قاصراً وعاجزاً عن تلبية متطلبات العصر الحالي . وعليه فإن إدراك معطيات الواقع المتجددة على الدوام بالعلوم والتقنية : تتطلب من الإنسان تطوراً ديناميكياً ، فالنسبية اكتشفها الفن كما اكتشفها العلم تماماً ، وهذا ما دفع فريقاً من المبتكرين المدركين للحاجات الجمالية الجديدة إلى استخدام الحركة وسيلة من وسائل التعبير في تجاربهم في الحيّز) أي (المكان و الزمان التشكيلي المرتبط بالزمن .) .

وكل ذلك هو من إبداع الأستاذ فائق دحدوح في تلخيص فن الحركة [1] .

ولكن انظر كم في ثنايا هذه المباحث الفنية من شهادة تمنح مزيداً من الموضوعية لنظرية الحركة الحيوية ، وتحويل الحركات من الفوضوية والتلقائية العفوية إلى أنساق جمالية وهندسية نظامية في تأثيرها ، وجعل التحريك والحركة موضوعاً علمياً وتخطيطياً يساعد الدعاة على فهم الحياة أولاً ، ونمط جريانها وانسيابها ، أو عُتوّها وهديرها وعنفوان تعاملها ، ليكون الإمساك بها ثانياً وقيادتها والسيطرة عليها ، وهذه المسكة بقرني الثور المندفع بالزخم القوي ، ثم ليّهما وصَرْعِه وتذليله : هي الفن الذي ينقص المصارع المسلم .

☐ وقد نتمادى النفس في العناد ..!!

☐ وإنما يستولي علينا مثل هذا التخوف من التأثيرات السلبية التي تطرأ على أخلاق الناس ونطلب لها التربية والإيحاء الجمالي كعلاج : لأننا نعاني

---

(١) الموسوعة العربية ٨/ ٢٠٢-٢٠٨ .

من أنواع سوء عديدة تصرع الناس وتجعل تعاملهم معيباً وجافاً يابساً ، وفي ساحة الحياة قطيعة رحم وبخل وقسوة وجزافية في إصدار الأحكام ، وقائمة العيوب طويلة .

• وانظر مثلاً لذلك كتابات الأديب الأميركي مارك توين ١٨٣٥-١٩١٠ . فقد كان ناقماً على (حماقات البشر والمظالم الاجتماعية) ، وعلى (الجنس البشري اللعين) واستعداده (للكذب والوقوع في الخطأ) وهو في ذلك ينتقد (حتى الفقراء الذين كان يهتم بمصالحهم ، **ولكنه ينتقد فيهم خنوعهم**) ويسميهم (الحشرات الآدمية التي استكانت لعيش المزابل ، وستظل مقيمة فيها إلى أن تنبذها المزابل ذاتها .)[1] .

فهو إن كان صادقاً : فذلك مبلغ من القبح عظيم ، وإن كان مجازفاً : فتلك عدوانية منه وتعميمات يعوزها التمييز .

• وسطوة الثأر علامة سلبية ، ولربما يكون اخذ الثأر حقاً في وقت ظالم لا يحكم هو او قضاته بالعدل ، ولكن القلق الذي يعتري النفس من جرائه علامة سلبية جزماً ، وهي التي يقول فيها الشاعر[2] :

فتُشفَى حزازاتٌ ، وتَقْنَعَ النفسُ
ويُشفى هَوىً بين الضلوع دخيلُ

ودخيل هنا بمعنى أنه مستقر في الأعماق ، فالحزازات تلبث حارة تقلق صاحبَها حتى ينال ثاره ، فتقنع نفسُه وتبرد ، ويسكن هواه الذي يفور في أعماق كيانه الداخلي .

• ومن خبر النفس أنها حساسة ، وتبيعنا غنجاً ودَلالا ، ولا تكاد تسطيع أن تمسها ولو بوردة ، فإنها تأنف ، وترفض العتاب المباشر ، والناس تدرك ذلك

(١) الموسوعة العربية ٧/ ٢١٠ .

(٢) لسان العرب ١/ ٩٥٦ .

فتلجأ إلى التفاف وتعريض وتورية ، ومن ذلك قول الشاعر منذ قديم الزمان :

ألا يـــا صـــاحبيّ دعـــا مَلامـــي

فـــإن القلـــب يُغـــريه المـــلامُ

فهذه حركةٌ قلبية تؤدي إلى حركةٍ حيوية ، وهي من أسرار النفس الإنسانية ، كيف أنها تتعلق بشيء وينغرس حبُّه فيها ، فإذا خالف مذهبها مخالف ومال إلى اتهامها بأنها ارتكبت الغلط : مالت بالمقابل إلى العناد والتمسك وزيادة الغرام بذلك الشيء ، وكثير من تغيرات السياسة وقرارات الحروب تجد لها مثل هذا الجذر النفسي .

● وتلك هي صفة العِناد في النفس ، فإنها تفعل عكس عادتها إذا لم تُشكر او توجهت لها تهمة ، ومن ذلك القول السائد :

(إذا ابتغى الأمير الريبة في الناس : أفسدهم .) وهناك من يرويه كحديث نبوي شريف .

(أي إذا اتهمهم وجاهرهم بسوء الظن فيهم : أدّاهم ذلك إلى ارتكاب ما ظنّ بهم ففسدوا .) [1] .

فتتحرك الحياة حركة سلبية بمثل ذلك .

● ومما كان عبد الصمد بن المعذّل الشاعر يقوله [2] ، أن :

هـي الـنفسُ تَجـزي الـوُدَّ بالـودِّ أهلَه

وإن سُـمتَها الهجـرانَ فالهجـرُ ديـنُها

إذا مـــا قـــرينٌ بـــتَّ مـــنها حِـــبالَه

فأهـــون مفقـــودٍ علـــيها قـــرينُها

وهذا غوص عميق في حقائق النفس .

---

(١) لسان العرب ١/ ١٢٦٤ .

(٢) البصائر لأبي حيان التوحيدي ٥/ ٥٨ .

فالنفس تطلب من صاحبها أن يعاملها بالاحترام والصون والعدل ، فهي عزيزة رقيقة ، لها شفافية وحساسية ، وتستقيم ما استقام صاحبها لها ، وإذا عوكست كافات بالمثل ، وثارت ، وتعوجّ لمن يعوجّ . لذلك يكون (العلم بالنفس) وأحوالها وطباعها أول فن السيطرة النفسية ، وقد تغلبها المادة والآلة والقوة وحصار المكان ، لكن لن تنتزع منها الرضا وإن طال الزمان ، فتظل متوثبة متطلعة لانعتاق ، حريصة على الإعلان عن وصفها ، ولذلك فإن أقصر الطرق للسيطرة على حركة الحياة وأدومها : منح النفوس حرياتها ، ولا خوف من أن تكون النفس الفجورية ذات فرصة آنذاك لتصول مُفسِدةً ، لأنّ الحرية ستشمل الفطرة ، ولن تنحرف نفس يفتأ سواء الفطرة يُعلّمها ويقودها ، فقد هُديت السبيل منذ الخَلق ، فتبرأ ويظهر الأصل عند كل ظرفٍ حُرٍ ، مهما طرا من تشويه بالقسر والإيهام والحجر .

● لكن هذه الحرية النفسية ترجع بقضية النفس أحياناً إلى حالة الحساسية التي تعجبنا منها ، فتدخل في شِدّة التدين ربما ، أو في ظن مخالفة المثل العليا ، فتنصدم اندفاعتها الإيجابية بسلبية المبالغة في الشعور بمشاعر الإثم ، وأصل هذا الشعور من التقوى الحميدة ، ولكن الإفراط يخرج بالأمر الحميد عن حدوده المقبولة .

وحديث علم النفس هو عن (مشاعر ناشئة عن وعي المرء أنه انتهك بعض القواعد الأخلاقية أو الدينية أو الاجتماعية . وهي تعتبر عاملاً من العوامل التي تورث أصحابها ، في كثير من الأحيان ، حصراً نفسياً anxiety واضطرابات عصبية متفاوتة الشدّة ، سواء كان انتهاك تلك القواعد الأخلاقية أو الدينية أو الاجتماعية حقيقياً او وهمياً .

ووفقاً لنظرية فرويد : تنشأ مشاعر الإثم عندما ينتهك المرء بعض مُثل " الأنا العليا " .)[1] .

وفي قواعد الإيمان القرآنية جاء ذكر " النفس اللوامة " على طريقة المدح ، فوجود

(١) موسوعة المورد ٥/ ٤٤ .

النفس التي تحاسب صاحبها وتلومه سُنةٌ إيمانية محكمة ، إنما البأس في قطع الرجاء من رحمة الله ، والأصل التوازن والوسطية والحُسنى وإرداف كل خوف بأمل .

□ وضوح الفهم الإسلامي للنفس وانغلاق الطروح الغربية

□ لكن نادي الغربيين ، من أدباء وعلماء نفس وزعماء إصلاح : تشعّبتْ بهم السُبل ، وكثرت أقاويلهم ، ولم ينتبهوا إلى بساطة التعليل الإسلامي الذي يجعل التوحيد أساس إصلاح النفس وإصلاح الحياة .

● فمن ذلك : " السلوكية " ، وهي (مدرسة في علم النفس تقوم على أساس الدراسة الموضوعية للسلوك ، وتعتبر السلوك مجرد استجابة فيسيولوجية للمنبهات البيئية الخارجية والعمليات البيولوجية الباطنية ، والسلوكية لا تأخذ بنظر الاعتبار عوامل الوراثة أو الفكر أو الإرادة .

وقد لقيت في الولايات المتحدة الأميركية قبولاً وانتشاراً واسعين لم تحظ بمثلهما في أوربا ، رائدها الأول جون واطسون عام ١٩١٣ .)[١] .

وقد تكون بعض هذه الدعوى صحيحة وتصدق على بعض الحالات ، ولكن كما شوهت وجهَ الفلسفة المبالغاتُ وأحادية السبب : حصل ذلك في علم النفس ، والمَخرج " تلفيق " ذكي يجمع بين أجزاء الصواب المتناثرة في كل النظريات النفسية مما يوافق تقريرات القرآن .

● وظهرت نظرية لطبيب ألماني في القرن التاسع عشر زعم فيها أن (لبعض الصفات والنزعات التجريدية ، من مثل الكبرياء والشجاعة والجشع والموهبة الفنية : مواقع معينة في الدماغ ، وأن أيّما تضخم في جزء بعينه من الدماغ يدل على إفراط في الصفة أو النزعة المرتبطة بذلك الموقع .)[٢] .

---

(١) (٢) موسوعة المورد ٢/ ٤٩ ، ٨/ ٣٠ .

والبحوث الحديثة في الدماغ والأعصاب تردّ على ذلك .

ولكن قول ابن القيم في وجود أجزاء في القلب لهذه الصفات قريب من ذلك وهو أقرب إلى الصحة ، لأنه وإن كان عمل القلب ما يزال مجهولاً في العلم رغم ذكر القرآن له ، إلا أن صرفه هاهنا في مسألة النزعات إلى التكوين النفسي الـ وارد و مقارب ، وهذه الحصص الأخلاقية يمكن أن تستند إلى أجزاء نفسية ضمن النفس الكلية ، وتضخم الجزء النفسي يقره العلم النفسي المعاصر .

● ونجد أيضاً : الطبيب النفساني النمساوي أدلر ، مؤسس علم النفس الفردي الذي يَعتبر حب السيطرة أقوى الدوافع البشرية على الإطلاق ، (وهو يقول بأن فكر الإنسان وسلوكه محكومان لا بالغرائز الوراثية ، كما زعم فرويد ، بل بدوافع اجتماعية مختلفة ، وأن الدافع البشري المهيمن هو كفاح الفرد من أجل التفوق و السيطرة ، تعويضاً عن شعوره بالدونية أو النقص ، ويقول بأن للإنسان نفساً مبدعة تبلور أسلوب حياته وتوجهه نحو هدف في الحياة لا يكاد يعيه ، وبأن كل شخصية هي ، بهذا النوع من النظر : جميعة متفردة من الدوافع والخصائص والأشواق والقيَم .)(1) .

ومرة أخرى يظهر عيب الأحادية ، فهذا الكلام صحيح ، في الأعم ، مع مبالغة في أحوال عقدة النفس ، لكنه لا ينفي الوراثة ، والله تعالى يقول : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ ، فهي أحوال مودعة فيها ، وتأتي التأثرات والإبداعات مكملات .

● كذلك نشأ توجهٌ أدبي شعري ووعظي يحاول كبت جماح دواعي الإثم عن طريق تذكير النفس بالموت وأحوال القبر وما قبل ذلك من النزع الأخير والاحتضار ، ثم الحزن الذي يعصف بأهل الميت وأصدقائه ، وهذا كله يقره الدين ، وأورد القرآن فيه آيات ، ومارسه النبي ﷺ ، ثم من بعده جمهرة الصحابة

(1) موسوعة المورد ٥/ ١٨٢ .

التابعين و العلماء ، واشتهر أبو العتاهية بالتركيز عليه ، وديوانه كله إنما هو ذكر الموت والقبر والاحتضار ، والأدب ذهَبَ إلى توسيع هذا الأصل التربوي الديني والمبالغة فيه ، ونتائجه إيجابية إذا كان بالمقدار الذي ورد في الدين الإسلامي ، وسلبية إذا كان إسراف ومبالغة ، وقد يؤدي إلى إحباط وانطواء وسلبيات عديدة ، وفي الأدب الغربي شيء من ذلك أيضاً تزعمه توماس غراي (١٧١٦ - ١٧٧١) الإنكليزي ، وأعماله تعتبر نموذجاً لمدرسة المقابر ، وهو مصطلح يطلق على عدد من الشعراء الإنكليز الذين نزعوا في القرن الثامن عشر إلى التركيز على موضوع الموت (بما تشتمل عليه من وصف مسهب للمدافن ، وتأملات في قصر الحياة وسرعة زوالها ، ودعوة إلى مواجهة الموت في شجاعة ، وكثيراً ما تضم مشاهد تصور بعض الثكالى وهُن ينتحبن فوق أجداث أزواجهن على نحو يتفطر له فؤاد المراقب .)[١] .

وترجمات د. عبد الوهاب المسيري لكثير من هذه القصائد تشهد .

□ وكأن ما نقلناه هنا وفي رسائل حركة الحياة من دقائق فهم التراث الإسلامي والعربي للنفس وأحوالها أصوب وأقرب إلى أن تتشكل منه حقائق علمية ، وبخاصة ما ذهبَتْ إليه تقاريرنا من أن النفس درجات ، ومن أنها تبقى مفتوحة النهاية جشعة لا تشبع ، فمن هذين الوصفين نستطيع استنباط حلول كثيرة نسبية لأمراض النفس هي أوضح من حلول علماء النفس الغربيين وإطلاقاتهم .

● فمن أبين الإشارات إلى أن النفس درجات : رصد امرئ القيس لها ، وبيان ضعفها التدريجي وعجزها المتابع قبل موتها الكلي النهائي ، وذلك قوله[٢] :

فلـــو أنهـــا نفـــسٌ تمـــوتُ جمـــيعةً

ولكـــنها نفـــسٌ تُـــساقطُ أنفُـــسا

وتساقط الأنفُس : كناية عن طروء الثقلة على الهمة ، وتأخر النهضة ، وأنواع

---

(١) موسوعة المورد ٥/ ٢٥ .

(٢) لسان العرب ١/ ٤٩٨ .

الفتور التنازلي ، قبل الاستسلام التام ، ومكان الاستشهاد انها تفقد خصائصها شيئاً بعد شيء ، فهي درجات إذاً ، وكل درجة كأنها نفس مستقلة .

● وتردف ذلك : ملاحظة الحكماء : أن هذه النفوس لا تشبع ، وليس لها حد اكتفاء ، بل هي إلى الشراهة أقرب ، وتلتهم ما يكون أمامها التهاماً ، لذلك فإن النفس الجائعة لا تكون مستعدة لبذل وعطاء مادامت تفهم أنها لم تنل جميع مُرادها .

وذلك قول الغنوي [1] :

ومــن لا يَــنُل حتــى تُــسدَّ خِلالُــه
يجــد شــهوات الــنفس غــير قلــيلِ

هكذا وردت في اللسان ، ولكني أراها : ومن لا يُنِل ، أي يتوقف عن العطاء ولا يُنيل غيرَه حتى يتُم لنفسه سد جميع حاجاته ، فإنه سوف يجد شهوات نفسه كثيرة ولا يصل يوماً إلى اعتقاد أنه قد امتلأ واكتفى ، لذلك يكون وَعدُه فارغ المعنى ، والأخلاق الحميدة تكون في أن لا يُعلّق خُطة إنالته الآخرين على وعد حصول الكفاية ، بل لينفِق مما آتاه الله فوراً ، فإن البركة هي التي تنمي موارده حينئذ لينفق أكثر ، ومن انتظر اليسار : استطالت حدوده ، فهو في لهث ورهق ، ولا يكاد يصل

ويليق لمن يروم تحريك الحياة أن يفهم هذه الخصلة النفسية ، وأن يبادر إلى البذل ، فإن النفس لا تشبع ، واستمرار الجمع فيه تخدير لا تأجيل فقط ، فهو يتوقف عن تحريك الحياة انتظاراً للامتلاء ، حتى إذا امتلأ يكون قد نسي أنه أراد المال للتحريك ، فيستمر سلبياً ، بينما الذي يحوز القليل ويُنفق منه : يحرك الحياة ويتدرب ويظل عِرق المبادأة والتغيير عنده نابضاً لا يخدر ، فيكون مؤهلاً دوماً للمنافسة والسبق والتأثير ، فإذا كان صحيح النوايا : بورك له ، فيتضاعف بالبركة مدى تأثيره في تحريك الحياة □□□

(١) لسان العرب ٣/ ٧٤٧ .

□ يستغرب بعض الدعاة من محاولات التقعيد التي نريد منها اكتشاف حركة الحياة ، ويضيقون ذرعاً بالمعادلات التي نزعمها، ويقولون : بحاجة بدل ذلك إلى إشارةٍ عمليةٍ واضحة ، وأن نواجه التنفيذ مباشرة .

وما أمانيهم بصواب ، بل الأمر كما قال رائد علوم الإدارة "لوين" :

"النظرية هي أكثر الوسائل عملية" .

● فهذا التمادي في استعراض جزئيات الصور الحياتية ، ونثرها ، ورصد مقدار النبضات : إنما نجريه كله من أجل إعادة تشكيلها في أنساق وحقائق تترتب منها نظرية عامة ، وبذلك ينضبط جهد جميع المحركين في إطار واحد وأسلوب متجانس ، بدل التباين ، أو ربما التناقض .

(والنظرية تلعب بذلك دورَ القائد ، أو إشعاع الضوء وسط لُجة من المتاهات .)[1] .

● ومن المهم لقارئ سطور "حركة الحياة" أن يحافظ على طول المدى على وتيرة ربط جميع شواهد ودلائل وأجزاء حركة الحياة برابط موضوعي واحد يستحضر خلاله عملية تكامل المعنى تدريجياً ، وانتساب كل قصة وشاهد ومغزى تنبه له باحث أو شاعر إلى موضوع الحركة والتحريك ، وبدون ذلك تبقى المعاني المتناثرة مجرد روايات طريفة مؤنسة تُحقق عمران العاطفة ، ولكن النظر العقلي المنطقي يستنتج من كل رواية آثار حركات تجتمع بكثرة الدراسة وسعة الشواهد لتكون دَفعة للحياة ، أو ربما عاصفة ، وثروة من الحركات التي يسيطر عليها دُعاة يصرفونها بحكمة واعتدال عَبر إنزالها مكانها اللائق في الخطة .

(1) الاستراتيجيات الإدارية لمحمد حامد سليم / ٢٤ .

□ تجارب الفيزياء ومراقبة النبات تكشفان الاندفاعة الحيوية

□ بل الفيزياء الذرية تقول بأبعد من الفهم الثنائي البدهي من وجود ... وأجزاء للحياة تتضام لكشف كُنهها ، ثم وجود حركة يمكن رصدها ، فهما ... واحدة ، وقد أوضح العبقري الدانمركي " بور " منذ ما يقرب من قرن كامل ... ان الجُسيم المتحرك ، والموجة التي تواكبه : تمثلان مظهرين متنامين لحقيقة واحدة

وهذا تقرير مشهور في فيزياء الكم ، وأظهر من أن نلتمس له مرجعاً نذكره

وقد أصبح هذا الفهم من المسلّمات العلمية ، **فلا يوجد جُسيم ساكن** ، بل هو **متحرك، ومعنى ذلك أنه لا توجد حياة ساكنة صامتة ، وإنما هي حياة متحركة دائبة ، وكان الاصطلاح الأوفق ينبغي أن يكون : " الحياة المتحركة** " ... في اصطلاح حركة الحياة من إيحاء بازدواجية تمثل طروء حركه على كل شيء ... الحياة ، بل هذا شيء لا يوجد ، وإنما **الحياة لا توجد إلاّ متحركة ، وجذرها** الذي **تبدأ منه : الذرة التي امتلأت طاقة وحركة و زخما شديدا** .

● ويظهر ذلك حتى في حياة النبات الذي نظنه مأسوراً إلى قالب من السكون ، بينما تحتوي حياته حركية تغييرية .

فقد (اكتشف النباتيون بعد زمن طويل أن الأخضورة في مكان مُعين ليست مجموعة عشوائية من أنواع نباتية متنوعة لا ترابط بينها ، بل هي مجموعة محددة من النباتات ترتبط فيما بينها بقوانين تتحكم بحياتها الجماعية .)

والأخضورة اصطلاح علمي يعني (محصلة تأثير العوامل البيئية في ... تعيش في مكان معين) أو الكتلة الخضراء في مكان ما .

وكان من كليمنت الأميركي أنه اعتمد (دراسة حركية الجماعات النباتية بوصفها وحدات قابلة للتغيير ، ويمكن معرفة أصلها والتنبؤ بتطورها ومستقبلها وعُرف هذا الاتجاه باسم الطريقة الديناميكية الحركية لدراسة الأخضورة .)[1]

---

(١) الموسوعة العربية ١/ ٣٩٤ .

مما يوضح وجود حركة في سلوك النبات ، وعمليات تغييرية ، وينتج من تفاعله مع البيئة تأثير في الكتلة الخضراء من الناحيتين النوعية والكمية ، وهذا يدل على أن رصد حركة الحياة هو أكبر مما يظن المستعجل ، وأن المخلوقات تتخذ من الحركة وسيلة للاستمرار والدفاع والتطور، وهذه اللمحة العلمية مهمة لتكميل وصف الحركة الحيوية العامة ، وشاهد على أن رصد الإنسان المفرد للمنظر الحيوي قد لا يريه حركة حاصلة لكنها بطيئة ، كمثل حركة النبات ، ويحتاج الأمر إلى عدة أجيال تتعاقب الرصد وتكتشف التطور في الكتلة النباتية في الأرض التي تعيش فيها .

• فليس من شرط جزء الصورة الحيوية أن يكون مرئياً ، بل يكون فاعلاً مؤثراً وهو خفي ، ولكن العلم يخبرنا عنه ، مثل غاز النيتروجين الذي رقمه الذري ٧ والمسمى قديماً بالآزوت ، وهو يؤلف أربعة أخماس الهواء تقريباً ، وكان العلماء يظنون انه غير صالح للحياة ، ثم اكتشفوا انه عنصر لازم لبناء المواد الهيولية التي هي قوام الحياة في الخلية ويدخل في تركيب الأحماض الأمينية وغيرها ، ولمركباته أهمية صناعية ، ومنها النشادر الذي هو نايتروجين وهايدروجين ، واوكسيد النايتروجين ، وبعض الأسمدة منه .

لكنه يتعدى أن يكون جزءاً في تركيب الحياة وفي صورتها إلى أن يكون مصدر تحريك للحياة أيضاً عند تكوينه حمض الآزوت الذي يسمى ماء الفضة ويستعل لفصل الفضة عن الذهب ، وكان جابر بن حيان الكوفي أول من اكتشفه [1] واستعمله في القرن الثامن الميلادي ، وذلك تحريك ، لأن هذا الفصل بين المعدنين هو حلقة في السلسلة المدنية العلمية الحضارية التي طوّرت الحياة إلى وضعها النابض الحالي ، كما أن هذا الحامض هو مرحلة في اشتقاق الأسمدة الآزوتية والنتروغلسرين ، ويعني ذلك أنه عظيم التأثير في الحياة المدنية ، وأنه مصدر حركة حيوية .

---

(١) الموسوعة العربية ٢/ ٢٩ .

وبإمكان الراصد لصورة الحياة ثم لحركتها أن يستطرد فيقيس خبر معادن وعناصر أخرى على هذا الأداء النيتروجيني لتتضح له الحقائق اكثر .

☐ تخفيفات علمية في برهان حركة الحياة وصفاتها الجمالية

☐ والفيزياوي الفرنسي : الأمير دو بروي ١٨٩٢-١٩٨٧ حين اكتشف وجود صفات مَوجية ترافق الجسيمات المادية للضوء ، ونال على ذلك جائزة نوبل سنة ١٩٢٩ : إنما انطلق من وجهة نظر يؤمن بها تقول (يحب الطبيعة للتناظر)[1] ، وهذا تعبير شائع نقبله ونصححه ، ونقول : إن الله خلق خلائقه على سُنة التناظر ، وأنها صفة في صورة الحياة تترك أثرها في سلوك المخلوقات وفي شكل الجزيئات المادية وأنواع المركبات الكيماوية ، وبذلك يكون التناظر صفة جمالية من ناحية ، وطريقة تخطيطية وتوزيعية للطاقات والأعمال والأشكال الهندسية تراعي إيجاد أفضل نتيجة للأداء العلمي ، وأتم امتلاء للحيّز والفراغ . ولهاتين الصنعتين الجمالية والتخطيطية خصائص قيادية ، وفهمها يتطلب نظراً كثيراً تأملياً في آفاق الحياة وكُنهها وصُوَرها ، ومن هنا تكون نظرية الحركة الحيوية ورسائلها منهجاً قيادياً يمنح النظر الاجتهادي التناظري للقائد ، فيستعملها لاكتشاف التناظرات في الحياة كما استعمله دو بوري .

● ولكنْ بمقابل قانون ' التناظر ' : تخضع الحياة لقانون ' التمايز ' أيضاً ، فيكون الاختلاف بين المخلوقات ولو بجزء يسير .

وأهم مظاهر التمايز مما يخص مبحثنا : تنوّع النفوس ، وعدم تطابقها ، مما يوجب ' النسبية ' في فهمها والتعامل معها .

وأصل ذلك يبدأ في البُنية الذرية ، ذلك أن حال الذرة تحدده أربعة أعداد ' كُمُومية ' مختلفة القيمة ، نسبة للكَم الذي هو جزء الطاقة الصغير ، و (أن البنية

---

(١) الموسوعة العربية ٩/ ٣٩١ .

(... الإلكترونية للذرة تعتمد أساساً على مبدأ ' باولي ' ، أو مبدأ الاستبعاد ، ومفاده : لا يمكن أن يكون لإلكترونين في ذرة واحدة مجموعة الأعداد الكمومية نفسها ، فالإلكترونات في الذرة الواحدة ، لكونها فرميونات : تختلف بعضاً عن بعض ، على الأقل بأحد هذه الأعداد الأربعة .)[1].

وهذه الظاهرة هي جذر التنوع النفسي وغيره ، وهي شاهد على وحدة القوانين الحاكمة للمخلوقات ، وتمثل أصل الوعي القيادي الذي يراعي التمايز ويجعل الخُطط تلين لفحواه .

● وجولاتنا في رحاب العلوم وفيزياء الكم تتيح لنا أن نقول : **أنها ليست الخطط العلمية فقط تراعي التمايز والتناظر معاً ، بل والأشكال التنظيمية الإسلامية أيضاً .**

● **فكأننا نجد جذر التنظيم وتوزعاته كامناً في صورة حيوية تتمثل في بُنية الألماس الذي هو كربون من الناحية الكيماوية .**

فقد وجد العلماء إن هذه البنية الداخلية تتألف (من تكرار أعداد لا نهائية من وحدات مكعبة متماثلة تدعى الخلايا الأولية البنائية ذات الأبعاد المتساوية والمحددة بـ ٠,٣٥٦ نانومتر . تتراص تلك الوحدات بإحكام في الاتجاهات الثلاثة من دون فواصل بينها ، فتكوّن بلورة يختلف قَدها وشكلها باختلاف أعداد وحداتها ومرحلة النمو التي تتوقف عندها .

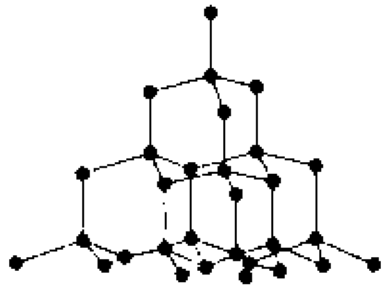
تأخذ الخلية البنائية لبلورة الألماس شكل مكعب تتوزع عناصر الكربون فيه فتوضع في ذُراه ومراكز وجوهه ، إضافة إلى توضّع أربعة عناصر في مراكز أربعة من مكعباته الثمانية على التناوب **وبذلك يكون كل عنصر كاربون في الخلية مرتبطاً بأقرب أربعة عناصر كاربون مجاورة موزعة تناظرياً على رؤوس رباعي وجوه منتظم**) (وترتبط عناصر الكربون بعضها ببعض في جميع الاتجاهات المحددة بروابط تكافؤية متينة ' روابط ذرية ' تجعل المسافات فيما بينها مساوية

---

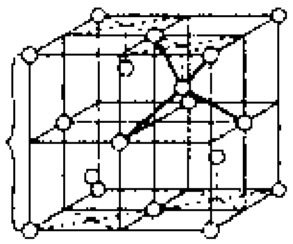
(١) الموسوعة العربية ٢/ ٧٦٠ .

١٥٤ ,٠ نانومتر ، وبذلك يمكن النظر إلى بلورة الألماس النموذجية على أنها جزء واحد ضخم ذو روابط ذرية متينة جداً تكسبه القساوة) [١] .

فهذا هو أساس الطريقة التنظيمية التي نتبعها لإيجاد كتلة متراصة صلبة من الدعاة ذات علاقات متينة بين أعضائها ، وبذلك تتكون الخارطة التنظيمية في منظرها الكلي على غرار الشبكة البلورية العامة للألماس ، كما في الشكل التالي :



الشبكة البلورية العامة للألماس



الخلية البنائية الأولية التي توضح أماكن توزع الكربون فيها

بنية الألماس الداخلية

هذه الشبكة التنظيمية المشابهة لشبكة ألماس تكون العناصر القيادية والفكرية فيها قد أخذت مواضعها في المكعب (في ذراه ومراكز وجوهه) كما في الألماس ، أي أن الشبكة التنظيمية تهب الذرى والقمم إلى العناصر المؤثرة ، وكذا الوجه التنظيمي ، مثل المؤسسات : نضع القياديين في مراكزها ، توافقاً مع طبيعة الخَلق الرباني ومع مظاهرة خضوع المخلوقات لقوانين موحدة تحدد سلوكها .

● **وأهم مكامن الماس هي الاسطوانات الانفجارية التي خضعت لحرارة** عالية ، وهو اصطلاح يعني جذور البراكين القديمة الخامدة وقنوات صعود السائل البركاني من باطن الأرض إلى ظاهرها . **وهذا هو الشأن أيضاً في المكامن الاجتماعية لوجود الدعاة ثم الوعاة القياديين ، فهم لا يوجدون في كل طبقات المجتمع ، بل في الأماكن التي فيها حرارة الفكر ، أو حرارة الأداء المهني والعلمي ،**

---

(١) الموسوعة العربية ٣/ ٣٥٦ .

أو حرارة تراث ثوري وسياسي كان له تأثير ، فهذه أجزاء من المجتمع العام لها بيئة يمكن أن تنتج الأشخاص الذين يحسون بالمسؤولية ويتصلبون في المواقف ، وأما البيئات الباردة فأهلها متسيبون لا أباليون ، وانظر من شواهد ذلك ما رويناه في صناعة الحياة من تصدي أهل "باب الشيخ" في بغداد لإنكار المنكر منذ قرون عديدة ، وفي العصر الحديث وقف أهالي الأعظمية ببغداد أيضاً مواقف شجاعة ، وفي دمشق تؤثر عن أهل الميدان والشاغور حمية وفاعلية .

ويطرد تمايز المحلات والحارات في كل مدينة قديمة مشهورة ، ولذلك تقول له في الاغنية وهي تتحرش به وتتحداه ..

إن كـنـت يـا واد م الحـسـينية

انـا برضـو يـا واد بولاقية !!

وهذا لأن شباب حي الحسين وبولاق وعموم أهلهما لهم تاريخ وشخصيات قوية وتراكمات أخلاقية وشجاعة وإباء .

☐ اجتهادات تقيس قضايا الدعوة على ظواهر الميكانيك

☐ ومن خلال نظرية حركة الحياة ، وما انتهينا إليه من وحدة المؤثرات الحيوية وتجانس مفرداتها وتشابه التصرف الإنساني مع الحقائق الهندسية والعلمية : أستطيع أن أجد نوعاً من العلاقة بين طرائق التأثير القيادي في مجموعة بشرية وطرائق حصول الاتزان في المركبات والآلات الهندسية عبر أجهزة التعليق .

و (أجهزة التعليق في المركبات هي مجموعة الأجهزة التي تربط بين جسم المركبة أو هيكلها وجهاز الحركة فيها ، وتسمى أيضاً مجموعة التعليق . وتقسم مجموعة التعليق بحكم موقعها المركبة إلى كتلتين :

كتلة تحتية مؤلفة من عناصر السير ، مثل العجلات والمحاور التي ينتقل تأثير وزنها إلى سطح الطريق بالتماس المباشر .

وكتلة فوقية مؤلفة من جسم المركبة أو هيكلها وما يضمه ، ينتقل تأثير وزنها إلى الكتلة التحتية فسطح الطريق من خلال أجهزة التعليق .

وفي أثناء حركة المركبة وعملها ، بسبب وعورة الطريق ومنعطفاته ، أو سبب تشوه العجلات وعدم توازنها ، أو بسبب قوى العمل : **تؤثر في المركبة قوى وعزوم دينامية عِدة** ، يمكن تحديدها استناداً إلى جملة إحداثيات من حيث حركتها هي : المحور الطولي الموافق لاتجاه حركة المركبة X .

والمحور العرضي للمركبة والموازي لسطح الطريق Y .

والمحور الشاقولي للمركبة والعمودي على سطح الطريق Z .

وينتقل تأثير هذه القوى والعزوم من خلال مجموعة التعليق إلى جسم المركبة **فتسبب إزاحات خطية وزاويّة لأجزاء المركبة** ، مما يؤدي إلى اهتزازات كل من كتلتي المركبة الفوقية والتحتية وترجحاتها .

وتتلخص مهمة مجموعة التعليق الأساسية في ضمان سلاسة حركة المركبة وثباتها قدر الإمكان ، وتحقيق راحة القيادة وسلامتها ، ويتم ذلك بتخفيض تأثير الحمولات الدينامية ونقلها بمرونة معينة في اتجاه محدد ، مع امتصاص الاهتزازات المرافقة لها وإخمادها ، ولا سيما اهتزاز الكتلة الفوقية في الاتجاه الشاقولي ، وكلما كانت نسبة الكتلة التحتية إلى الكتلة الفوقية أقل ارتفعت درجة سلاسة حركة المركبة ، على أن تكون مؤشرات مرونة عناصر مجموعة التعليق وقدرتها على الإخماد متناسبة مع كتلتي المركبة)[1] .

ومن مجموعة التعليق : النوابض الصفيحية ، ونوابض الضغط الحلزوني ، والمصادم المطاطية ، والوسادة الهوائية ، وجسور الربط ، والإطارات المرنة .

(ومن المهم جداً لمجموعة التعليق تعيين سعة التواء العناصر المرنة في حالتي التحميل في الثبات والحركة ، لأنها تحدد بدورها تواتر الاهتزازات . ومن المعلوم أن تواتر الاهتزازات التي تحقق شروط سلاسة حركة المركبة والتي يتحملها

---

(١) الموسوعة العربية ١/ ٤٣١ .

الإنسان بسهولة لا يزيد على ٢,٥ هرتز ، بالمقارنة مع تواتر السير العادي على الأقدام الذي يراوح في المجال ١ - ١,٥٪ هرتز ، ولحالة السير النشيط في المجال ١,٧ - ٢,٥ هرتز ، وفي المركبات ذات مجموعة التعليق المرنة يتغير تواتر الاهتزاز عكسياً مع الجذر التربيعي لسعة الاهتزاز أو التواء العنصر المرن ، وهذا يتعلق بدوره بمقدار الحمولة المؤثرة فيه ، لذلك ينخفض تواتر الاهتزازات مع زيادة حمولة المركبة .) .

فهذه الدراسة الهندسية التي هي خلاصة بحوث طويلة اعتمدت الوف التجارب والاختبارات : تصلح أن تكون أساساً نقيس عليه صلة الأداء القيادي بالتكوين الدعوي السفلي العريض ، لنجد نوعاً من التشابه ووحدة المظهر وطرائق القياس .

فكأن الوحدات التنظيمية الصغرى ، والكبرى ، واللجان ، والمحاور الإدارية ، ومجموعة الشورى ، ومجاميع الاختصاص : تمثل كتلة التعليق في الجسم الدعوي .

والمحور الطولي يتمثل في مدى تحقيق الشروط التي يمليها الشرع والفكر الإسلامي ، والانسجام مع الأعراف والأخلاق والغايات التعبدية .

والمحور العرضي تمثله المواقف ومقدار تلائمها مع المحيط وطلبات الناس التي تمثل الطريق الذي نسير عليه .

والمحور الشاقولي تمثله الاجتهادات القيادية ودرجة إغرابها أو صحتها ، وحالات الاختلاف في التقدير السياسي ، والنوايا الدنيوية التي تزاحم التجرد المفترض ، وطبيعة التعامل القيادي و درجات الحزم واللين ، وعزلة القيادة عن اتباعها أو قربها منهم بالحوار والتشاور ، والتواضع والتكبر عند الطرفين من قائد ومقود ، ودرجة الكارزما والجاذبية التي يتمتع بها القيادي ، ونصاعة تاريخه وبياض صفحته .

فالدعوة مثل مركبة تتحرك تحت تأثير هذه المحاور كلها ، والنجاح يكون في سلوك ثلاثي يقابلها يحقق السلاسة عبر التوافق ومراعاة الثوابت ، والبعد عن مواطن الشبهة ، ودرجة التديّن ، ودرجة حيازة العلم الشرعي والمعرفي

والواقعي ، وإتقان الأسلوب الإداري ، والتزام الأخلاقيات العالية ، وعملية السير الناتجة عن تحريك الدعوة بواسطة قرارات قيادية يطيعها الأعضاء تكون مستقرة بعيدة عن الانشقاقات والجدال والملهيات كلما كانت مراعاة الشروط والتصورات المثلى أكبر ، وتزداد نسبة الاهتزازات في الجماعة والرجفات عندما تنفرج زاوية التفاهم المتبادل ، أو حين تقل الثقة ، أو يحصل إغراب أو شذوذ ، أو تظهر الأبراج العاجية ، أو يكون السباق نحو المكتسبات الدنيوية .

لكن الحمولة الدعوية الثقيلة تقلل الاهتزاز، وهي حمولة الإنجاز المتكرر الناجح لمشاريع دعوية نفعت الناس وزادت الثقل النوعي للدعوة ، وكذا تقادم الدعوة وثقل تاريخها ورسوخ اسمها ، وكذا امتداد تأثيرها وضخامة حجمها ، فكل ذلك وقاية من الاهتزاز ، أو ذلك رصيد مُدخر يعوض الاستهلاك الطارئ .

وهذه التشبيهات تزيد الداعية إيماناً وثقة بدعوته ، ولكن طريقة القياس الدعوي على العلم الهندسي إذا تولاها غيري ممن يحسن علم الهندسة ويحيط بواقع الدعوة فإن أمر الفائدة يتعدى مجرد زيادة الثقة ليكون منه استنباط جديد تخطيطي واسع ، وتلك هي أهمية المثل .

❑ جمهرة من أهل الرأي يسايرون الحركة الحيوية

❑ وإذا فهمنا مجمل فكرة حركة الحياة جيداً ، وأقررنا بصواب طريقتها في ترتيب صور الحياة الجزئية واستنطاق فحواها للوصول في كل مرة إلى معادلة أو قانون أو مغزى يكون هو مفتاحاً من مفاتيح فهمها : فإننا عند ذاك يمكننا أن نفهم نقاط تلاقي مثل هذا الأسلوب والنمط مع أنماط أخرى تشهد لها ، نطق بها علماء آخرون ، فنكتسب قوة إلى قوة ، وتعزز طريقتنا .

● فمن هذه الشواهد : طريقة عالم النفس السويسري الشهير "بياجيه" المتوفى سنة ١٩٨٠ الذي أولى عناية لدراسة نفسية الأطفال ، وبرع في علم النفس

التكويني ، ونظريته (تقوم على فكرة الذات النشطة التي تنتظم الصور الآتية من الوسط الخارجي في نسَق تخطيطي يساعد على تمثّل الواقع وتكوين بُنى عقلية تتطور بصورة مستمرة ، بفعل العمليات التي يجريها العقل في تعامله مع البيئة) . كذلك (أعطى "بياجيه" أهمية للأمور البيولوجية ، إذ رأى أن الدماغ ينمو بحسب برنامج مسبق ، ولذا ينبغي عدم دفع الطفل نحو تطور مستعجل ، غير انه لم يغمط التدريب والتفاعل الاجتماعي حقهما في التأثير في تطور الطفل ، وعُرف بتفسيره الذكاء ، الذي عدّه شكلاً من اشكال التكيّف المتقدم الذي يتطور بواسطة عمليتي الاستيعاب والتلاؤم اللتين يتم تجاوزهما باستمرار لتحقيق توازن آني لا يلبث أن يختل ، فتعاود العمليتان دورهما ، وهكذا .) [1] .

والذي أفهمه أن هاتين العمليتين تؤثران في مراحل ما بعد الطفولة أيضاً ، ولذلك أستنبط لنفسي شغلاً أن أعين شباب الدعوة الإسلامية على مزيد استيعاب لما حولهم من تجارب الحياة ، وأن أجعلهم ينسجمون مع مفادها نفسياً ، مضيفاً إلى مُكنتهم الذاتية في ذلك مكنة أخرى تجعلهم في حالة تفوق إذ أقرانهم نيام عنها يلهون بالعَبَث .

إنّ إشارة "بياجيه" إلى تنظيم الصور الآتية من الخارج في نسَق تخطيطي : تمثل موضع الالتقاء مع فكرة حركة الحياة ، فالأنساق التخطيطية التي جعلناها ترجمة لفهم الحياة : هي عملية تلقائية ذاتية تقوم بها ملايين الذوات في آن واحد ، وبها يتحدد الأمر العام الذي يُري نفسَه لهذه الملايين ، ومن خلال التراكم الكمي للاستجابات وردود الفعل تتكون منظومة تخطيطية عُرفية تحدد الموقف ، مع ان الاحتمال النظري قائم في أن يشذ أحد عن المجموع فيفهم الأمر بطريقة أخرى وينادي به ، وقد يغلبُ الرأيَ الشائعَ إذا وَجَد منطقاً قوياً يستند إليه في كسر ظاهرة التلاؤم ، فينكشف مجال لذكاء استثنائي أن يبرهن على جدارته بأن يدلي بذلك المنطق المعاكس الذي توصل إليه ، فتُذعِن بقية العقول وتقر بصوابه ،

---

(١) الموسوعة العربية ٥/ ٦٥٢ .

فيكتسب هويته في أنه ذكاءٌ متفوق .

والمهم أن طريقتنا في فهم الحياة هي طريقة مزدوجة ، ترصد من جانبٍ ما هناك من استجابات عامة تنتبه إلى الصور . ثم من جانب آخر ترصد الآراء المتحدية ، والقائلة باستنتاج آخر ، وتمنحها قيمة ، وتضيفها إلى رصيد مثيل من آراء مقاربة ، ومن خلال حشد الآراء الكثيرة يمكن فهم قانونٍ في سير الحياة . ويظل الذكاء أساس كل ذلك .

● ثم الفيلسوف الفرنسي إميل كارتيه ، المعروف باسم " آلان " ١٨٦٨ - ١٩٥١.

ملحد ، لكن طريقته الفلسفية فيها ما يلتقي مع منهجيتي ، وهو من قراء الفلاسفة القدماء أرسطو وأفلاطون ، ثم من قراء كنت ، والتقي مع طرائقه كل الالتقاء . أما (الفلسفة في نظره فتنتج من تجربة الحياة اليومية ، ولهذا لجأ إلى كتابة خواطر يومية جعلها منطلق تفكيره) و (زاوج بين الفلسفة والتربية) ويعتقد (أن العقول الأصيلة هي دائماً تلك التي أكثرت من القراءة) .

وقد (انصبّ اهتمامه الفكري على السياسة ، لكنه أعطى القيمة العليا للفرد الإنساني ، ووقف معه مقاوماً كل سلطة لا يوجهها العقل ، ومن هنا كان اهتمامه متجهاً إلى كشف خداع السلطة من ناحية ، وتعليم المواطن الانضباط الذي يؤدي إلى استتباب النظام الاجتماعي من ناحية أخرى .)

وكان ضد النزعة التي (تؤدي إلى التخلي عن العقل أمام ضغط الجماهير .) و (كان ذا نزعة أخلاقية ، يؤمن بالقيمة التي تضمن توازن جوانب الحياة الإنسانية ، وذا نزعة عقلية تسعى إلى توجيه الإنسان بنور العقل) .

و (كان يلح على كيفية التفكير أكثر مما يلح على ما يجب تعليمه ، لهذا رأى أن وظيفة المربي هي احترام عقول طلابه واحترام حركتها الفكرية الحرة .) وكان يستحضر التراث الفلسفي ، ولكن يتمثله (تمثلاً خاصاً خالعاً عليه أحوال يومه ولحظته .) .

(وكان ينتقل بملاحظاته بين الأشياء والناس دون ملل ، فيسلط نور تفكيره على ما يحيط به ، ويخرج بأفكار لها طابعها المستقل . كان موقظاً للعقول من دون أي مذهب يقدمه للناس ، فكل ما لديه دروس في الحيطة الفكرية حيال الآراء العامة والأفكار الجاهزة)[(١)] ..

وهذه تطابقات مع ما أفعل في رسائل حركة الحياة وإحياء فقه الدعوة ، فكل همّي أن أزود الدعاة بحيطة ووعي ، وأنا لا أريد لهم الحلول الجاهزة ، وإنما أريد لهم أن يفكروا ويقيسوا ويجتهدوا الاجتهاد الحُر على ضوء إبداعات الأقدمين .

● ومن ذلك أيضاً : طريقة " الاستبصار " في علم النفس ، فعنوانها العريض وموجزها : أنها (النظر إلى الوضع بوصفه كُلاً ، وتبيُّن العلاقات في هذا الكل ، وإدراك الروابط بين الوسائل والهدف .)[(٢)] .

ولئن اعتنى علم النفس بهذه الكُلّيّة الفردية ، واعتبار الذات كتلة مجموعة ، لتعلق القضية بشخص دون شخص : فإن منهجية حركة الحياة تسير على طريقة النظر الكلي إلى جميع المعطيات والظواهر في تشكيل الحياة الجماعية ، فالقاعدة واحدة ، مع مسحة فرق يوجبها أننا نتبع الوحي ، والاستنباط يزيد وسائلنا تنويعاً .

● وبعد سلسة معادلات واكتشافات آينشتاين أصبح (يثق بنفاذ بصيرة الإنسان ، وبقدرته على اكتشاف منظومة القوانين التي تحكم هذا العالم ، مع تعقّد التشكيلات الرياضية التي تعبّر عنها ، إلا أنه كان يرى أن " أصعب شيء على الفهم هو أن هذا العالم قابل للفهم " .)[(٣)] .

وهذا الإحساس هو الأساس الذي قامت عليه نظرية حركة الحياة عند كل من بحث فيها ، فالكون ما هو بمغلق ، والله دعا إلى التفكر والسير في الأرض والتطلع في الآفاق ، وكشف غوامضه ممكن من خلال التفكير العلمي ، ثم من خلال جمع الحقائق والأجزاء التي تنتج كتلة وصفية للمنظر الإجمالي مما نفعله في هذه الفصول ، والمفروض أن يدأب الجميع في هذه العملية الرصدية وتحليلها ، ولكنَّ

---

(١) (٢) (٣) الموسوعة العربية ٣/ ١٧٩ ، ٢/ ٧٤ ، ٤/ ٤٩٦ .

الناس تفتر هممها في ذلك لضعف ثقتهم بأنفسهم ان يكونوا مكتشفين لأسرار الخَلق و تكوينات المادة وطبائع الطاقة ، وذلك هو الأمر الصعب الذي أشار إليه آينشتاين ، وأما منهجيتها فإنها تؤمن بأن أجزاء التفكير الناجح الصغيرة التي وُفق لها العلماء والأدباء والشعراء والقادة ومن يحلل النفس ، والتي هي أجزاء مليونية العدد : يمكن جمعها وترتيبها واستعراضها وتكوين صورة كبيرة منها تتولى تفسير الغوامض والكشف عن القوانين .

● ليست حقائق العلم فقط ، بل كل المعرفيات وتوصيفات الواقع ، من صياغات أدبية ، وجماليات فنية ، وتحليلات تاريخية ، وعلاقات اقتصادية ، وقوانين ، فكل ذلك يبني الشخصية الجماعية للشعب ، والرهط الأذكى يستطيع توظيف الكثير من معطيات هذه المعرفيات توظيفاً سياسياً وتربوياً للحصول على سيطرة جزئية تظل تنمو وتتراكم حتى تتيح له السيطرة التامة والتسلط ، فعملية السيطرة على حركة الحياة ليست مثل عمل جنرال يأمر فيطاع ، بل هي حصيلة أجزاء كثيرة العدد ، وفي كل منها يتدرج التسلط ببطء ، وتترسب "ذرات سيطرة" فوق بعضها لتكون في النتيجة بعد دهر طويل كتلة أكبر تشترك في تكوين السيطرة الكلية ، ورُبَّ بيت شعر يقوم مقام كتب ، ورسم باسم يفتح أبواباً من الأمل ، ورأي في التاريخ تتبدل فيه طبائع الولاء ، ومهارة في رسم خطٍ بياني اقتصادي يصعد سُلَّم الأرقام مرتفعاً يرفع الدعوة المتأخرة النشأة والمنزلة إلى جبهة الصدارة ، وقد لا يكون ثمّ غير عُمق الفراسة ودقائق الحساب .

□ التقاء منهجية الحركة الحيوية مع منهجية المنطق الرمزي

□ واجد أيضاً نوعاً من التشابه بين منهجية حركة الحياة ومنهجية المنطق الرمزي الذي أبدعه البريطاني جورج بُول المتوفى عام ١٨٦٥م ، وصاحب كتاب "بحث في قوانين الفكر" ، فقد وضع (لغة رمزية تستطيع التعبير بدقة عن قوانين

الفكر) فكان ذلك حلقة أساسية (في تطور الفكر في سياقه الرياضي) وفي الوصول إلى المنطق الرياضي الحديث علي يد برتراند رَسل .

(ومن مآثر " بول " في علم المنطق أنه أحكم السيطرة على ثلاث أدوات من أصل خمس من أدوات الربط المنطقية ، وهي : أو ، و ، النفي .

أو كما تسمى : الفصل والوصل والنفي . وبذلك يكون قد وضع الأساس النظري لتحويل العمليات الحسابية ، كالجمع والضرب وغيرهما ، والعمليات المنطقية ، كمقارنة عددين أو أكثر : إلى دارات كهربائية لاستخدامات الحواسيب . لذلك فإن ثمة مَن يقول : أنّ بول وَهَب الحاسوب مَلكة العقل .)

● وأعترف بأني ضعيف في الرياضيات ولا أملك خلفية كافية لفهم هذا المنطق الرمزي ، ولكني أنتقل بالقضية إلى منهجية أخرى مقاربة أيسر فهماً ، وهي تأليف البرامج الإدارية الكمبيوترية ، فإن المبرمجين يعطون قيمة لكل قاعدة إدارية وتخطيطية ، ولكل ظاهرة وفرضية ، ويرصدون مجالات تأثيرها ، والتفاضل بينها ، وإمكان اجتماعها ، ثم يصممون أجوبة لأسئلة كثيرة ، ويقيمون علاقات ، على ضوء فهمهم العلمي ومداهم التجريبي ، فيكون بعد ذلك من الممكن لمستعمل البرنامج أن يحصل على نتائج تخمينية في التفرس في المستقبل ، وتوقع بعض التطورات الاستراتيجية ، والأمر كله قائم على الافتراض وتلقين البرنامج تلك التوقعات الأولية الظنية المجردة التي لا يرقى الكثير منها إلى درجة اليقين ، ولكن حين تكثر المواد الأولية التفصيلية وتكون معدودة بالألوف من القواعد الصغيرة والمعادلات والافتراضات المرمّزة : فإن الذهن يتعب في استحضارها والمقارنة بينها ، ويكون البرنامج أسرع وأتقن وأبعد عن النسيان .

● فبمثل هذا أقول ، وأدعو أذكياء الدعاة إلى دراسة المنطق الرمزي ، مع دراسة مذهب فقه الدعوة والناتج الفكري الإسلامي المعاصر ، وتسمية ألوف الحقائق والقواعد ، واكتشاف المعادلات ، وتصميم برنامج في التخطيط الدعوى وفي استبانة المواقف من خلال استعمال كل تلك الكتلة من الأفكار الجزئية ،

ويكون بالإمكان تحصيل أجوبة وتوقعات وخيالات تُماشي سعة الآفاق التي تتجول فيها عقول الدعاة الجادين المتشوقين إلى التفرس في المستقبل .

فنظرياً : يجوز لمتفائل شديد الالتزام المنهجي أن يستطرد فيزعم أنه يمكن أن يضع أنواعاً من الرموز والقيم وأشكال الدلالات لكل معنى مقتبس من معادلة أو ظاهرة تحلّلها بحوث حركة الحياة أو كتب الفكر أو يقترحها هو ، ثم عند تراكم أعداد كبيرة من الإنزالات الناجحة للمعاني على قائمة الرموز يكون من الممكن نثرها أمامه أو أمام لجنة من المفكرين لصياغة عدد من الأنساق والمعادلات الكبرى التي تصف جوانب الحياة المتنوعة الكثيرة ، فلربما تبدو عندئذ مسارات حركتها المفترضة ويكون قياس المستقبل على الماضي ، وقد يستمر الأمر حتى يُصاغ برنامج خاص من ذلك ينوب عنّا في معرفة نتائج ازدحام العوامل الكثيرة .

فلعلّ مجموعة إبداعية متحمسة لعلم حركة الحياة تبادر فتضع الرموز وترصد الأنساق وتمسح كل الموجود وتصوغ حيثيات هذا البرنامج ليكون أقرب إلى الإيمان ومراعاة حقائق الشرع وتجارب الدعوة وخلجات قلوب الدعاة من أي برنامج آخر يستشرف المستقبل تطرحه الشركات الغربية لا يتعدى المعلومات الإدارية فقط ، لأنّ انتباهتنا الإسلامية خلال رصد والتقاط وشرح أنواع مكونات المعادلات والظواهر والأنساق التي نجمعها خلال مبحثنا الإعدادي للبرنامج ستكون تحت رقابة جميع أصول الوعي الشامل الذي ارتضيناه لأنفسنا ، وأوله الوعي الشرعي والإيماني وفق منهجية الإدلاء الأصولي ، ويزيده جمالاً ما نقتبسه من علوم التخطيط والإدارة ، وما نقتطفه من أنواع المعارف كلها ، من أدب وتاريخ وفن وفلسفة ، مع جمع شواهد الفيزياء والعلوم ، وإذا كان من أحد تحوطه شكوك حول كفاية الكتلة الموضوعية الإسلامية الحالية التي تعتبر خلفية للاقتباس والتحليل والاستمداد فلينتظر اكتمال رسائل وكتب حركة الحياة ، ثم لينتظر الكتابات المثيلة التي ستكون من بعض تلامذتي ممن يذهبون مذهبي .

وأيضاً : ما يفترض في صانعي البرامج من سعي خاص لتكثيف الأمثلة ومواصلة

التفكير وتقليد الطريقة والمنهج ، وتضمين البرنامج نتائج عمل فِرَق مسح للذخيرة الدعوية المعاصرة ، وإذا حصل فعلاً تصميم هذا البرنامج وإشاعة استخدامه بين طبقات الدعاة فإنه سيعني حصول عامل تفوق استراتيجي لهم ، بما يشيع من نمط التدقيق والإذعان للمنطق العلمي وحصول سجية في الدعاة تدعوهم إلى احترام فن التخطيط ، والتفوق لا يكون من ذات استنتاجات البرنامج ، فإنها ليست معصومة من الخطأ ، وهي مأسورة إلى اجتهادات الذين صمموه ، ولكن التفوق يكون من خلال التربية اللاشعورية عبر تقادم استعماله ، مما يجعل الدعاة أبعد عن الجزاف ، وأقرب إلى طلب الدقة ، من خلال البرنامج نفسه ، أو من خلال الذهاب في مذاهبه ومواصلة الاجتهاد والتأمل والموازنة والفحص ، وهذا سمت لا ينشأ إلا من بعد طول استعمال البرمجيات .

بل وإن إنتاج برنامج ثانٍ وثالثٍ وفق اجتهادات أخرى يجعل من لمسات يسيرات على أزرار الحاسوب كافية لترجمة خلاصة تنهدات كثيرة بالأسحار لألف داعية يتعبد وتأسره آلام الأمة ، وخلاصة ألف فكرة إبداعية ينتهي إليها ألف اجتماع ومؤتمر للدعاة في أرجاء الأرض ، وخلاصة ألف مقال إسلامي وخطبة جمعة وكتاب ، والمفروض أن يعجنها البرنامج الواحد كلها ، ويمنحك خبرها في صورة خط بياني ثمين تهتز مع تأرجحاته القلوب ، ولكن تتمين مع حِبره الأحمر مسارات العقول ، فيكون القرار ....!!

❑ أربعون مادة من قانون الأداء الدعوي على سبيل المثال

❑ ويبقى بعض هذا الكلام في المبادئ والمعادلات التي تتجمع فتتيح صناعة البرنامج الكومبيوتري أشبه بالمغلق ، ويحتاج لشرح ، ولذلك ملنا إلى أن نورد هنا أمثلة من مواد قانون يفترض وجوده فقه التخطيط الدعوي الذي أسمّيه : " قانون الأداء الدعوي " يبيّن الأصول الشرعية والاجتهادية والعرفية التي يقوم عليها

التنفيذ الدعوي ، وقد اخترتها من تقريراتي في بعض كتبي ومن كتب غيري ، وأرى أن مثلها يمكن أن يكون بعض القواعد والموازين التي يمنح المبرمجون لها رموزاً وقيماً من أجل صياغة البرنامج ، وهي إن كانت في التمثيل في حدود الأربعين : فإنها في عملية البرمجة المعقدة تصل إلى الوف كما قلنا ، واللبيب تكفيه الإشارة ، والمقصد توضيحيٌ خالص .

● فمن المواد في باب تنظيم الروابط ، مثلاً :

(١) **إمارة الدعوة إمامة دينية** لها منزلة عليا ، وهي حكر لأهل المناقب والبذل والقوة والأمانة .

(٢) **الخيرية الإسلامية هي رابطة الدعاة السياسية** ، لا الانتماءات القومية . والأخوّة الإيمانية وسيلتها .

(٣) نسعى إلى تحالف الجماعات الإسلامية ، أو التعاون ، أو تقاسم الأدوار .

(٤) **نقود الطاقات** الإسلامية ، وأنصاف الإسلامية ، ولا نحمل كل الثقل .

(٥) نسعى بمجموعة الدعاة المهاجرة لرفد العمل من الخارج .

(٦) المسارزة في العمل جائزة ، وتتناسب طردياً مع درجة الضرورة .

(٧) **لا نهمل الجماهير** ، ولا ننعزل عنهم ، ولا نتقوقع .

(٨) **لكن نغلق تنظيمنا أمام العصاة الفسقة** ، ولا نُدخل غير الملتزمين لأحكام الشرع والعبادة ، وإنما ننفتح في النشاط خارج التنظيم ، ونقود أصحاب العيوب ، ونقترب من المفضولين .

(٩) **جسم الدعوة هو المركز الصحيح** الذي يمكن أن نستقطب حوله العناصر القاصرة من خارجه .

● وفي باب التربية :

(١٠) يُكلّف المنهج التربوي الدعوي بتعليم الدعاة فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأحكامهما ، والحكمة فيهما ، وموزانات المصالح فيهما .

(١١) **التربية الدعوية مكلّفة في جميع المراحل بالإبقاء على معنى الجهاد حيّاً في**

نفوس الدعاة وعموم المسلمين ، والترويج له ، وإحماء عاطفة التحدي والتضحية .

(١٢) التربية الجهادية حماسية ، لكنها ذات نمط عقلاني بعيد عن التهور .

(١٣) النجاح في إرساء قواعد الفكر السياسي الإسلامي وفقه الحلال والحرام هو أول الخطوات المهمة للصعود في درب الجهاد .

(١٤) نبالغ بيننا في أداء حقوق الإخاء وإحياء رسومه وآدابه ومثالياته ، والمروءة شعار الدعوة .

● وفي باب الاحتياط :

(١٥) الحذر من التوقف والجمود في مسار المشروع الإسلامي .

(١٦) ينبغي أن لا نغتال النظريات بحُجة بُعدها عن الواقع ، بل نرفع مستوى الطموح لنصل إلى الوضع الأمثل .

(١٧) عمل الدعوة عمل مؤسسي في الأصل ، والتخويل الفردي استثناء .

● وفي باب التنمية :

(١٨) الداعية المؤمن المثقف المدرَّب إبداعياً : أعظم استثمار في الدعوة .

(١٩) تنميتنا يُحصّنها نظام من المؤسسات ضد أية مفاجأة أو اجتهادات طارئة تنوي التراجع عنها أو إضعافها .

(٢٠) إتقان الداعية لمهنةٍ قرينة على إمكان إتقان نشاطه الدعوي ، وخير الدعاة : العصامي الكادّ المتوكل ، والعاطل يربيه الفراغ على الوسواس .

● وفي القواعد العامة :

(٢١) ما جاز لعُذر : بطل بزواله .

(٢٢) إذا تعذر التام : فالتسديد والمقاربة .

(٢٣) نتدرج في كل شيء ، ونوغل برفق .

(٢٤) الأخذ بالأحسن : موعظة قرآنية ، والأحسن هو الأمثل والأتم والأولى ، ومنزلة بين الرخصة والعزيمة .

(٢٥) نحرص على التوظيف المنهجي لتراث الاجتهاد والإفتاء المتوالي عبر

المذاهب ، ونطوره و نجتهد لأنفسنا .

(٢٦) نحرص على التجديد والإبداع في الهدف والوسيلة .

● وفي السياسة والحكم :

(٢٧) **نتحالف مع الكفار لإقرار مكارم الأخلاق وتوفير الحرية والعدل** ، وصيانة الأعراض والأموال والدماء ، وحماية المستضعفين .

(٢٨) **يؤمن المشروع الإسلامي الحضاري بأن الحرية ينبغي أن تتجاوز مجرد كونها حُزمة أفكار ورؤى وعواطف إلى أن تتمثل في مؤسسات شورية اجتماعية سياسية** ، مع تقنيات تفصيلية واحترام الأعراف .

(٢٩) ويؤمن المشروع الإسلامي بوجود ارتباط وثيق بين الحرية والمنهجية العلمية ، وأن بينهما تأثيرات متبادَلة ، ولكنْ ليس بالضرورة أن ينفي العلمُ الغيبَ .

(٣٠) تزوير الانتخابات مُنكر كبير ، وهو استهانة بكرامة الشعب .

(٣١) **يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن** .

(٣٢) حيثما كان للمنافق والمفسد ظهور وقوة ونخاف إذا عارضناه حصول فتنة : نعمل بآية "دع أذاهم" .

(٣٣) **لا نرضى بولاية الفسقة والعلمانيين** ، ونعارضهم حسب الاستطاعة وفق درجات إنكار المنكر.

(٣٤) تعذيب الناس في السجون منكر عظيم .

(٣٥) نشارك في الحكم إذا أشارت الحيثيات إلى تحقيق المصالح ، مع مراعاة الثوابت .

(٣٦) نجاهد مع الحاكم الظالم والفاسق إذا كان جاداً وكنّا نأمن غدره .

(٣٧) **نخوض الدعوة مع الظالم والعلماني جدالاً بالتي هي أحسن** ، وبالدليل العقلاني والحُجة المنطقية ، مع الشعور بالاستعلاء الإيماني .

(٣٨) **نحكم بالظاهر** فيما يتعسر الاطلاع عليه من الأمور الباطنة ، والنوايا عند الله ، ولكن بعض سوء الظن حَزم .

(٣٩) السياسة الإسلامية عبادة ، ولها وجه أخلاقي وثوابت عقيدية .

(٤٠) يجوز للإعلام الدعوي أن يخاطب من لا يفقه مواعظ الشرع من الأحزاب والعلمانيين بخطاب الدفاع عن البلد ، أو دفع الظلم ، وليس بالخطاب الديني المباشر .

□ وأنا أحاول جمع "قانون الأداء الدعوي" على هذه الشاكلة من خلال كتبي وكتب الفكر والفقه ، وقد بلغتْ مواده الف مادة ، وأطمع أن تصل إلى ثلاثة آلاف ، تكون هي العوامل والشروط الموضوعية التي يضعها من يصمم البرنامج في مواضعها النسبية اللائقة بعد أن يضع نظريات الساسة والإداريين والعسكريين وأقوالهم التخطيطية كضوابط وأسس علاقات ، ونظريات علماء النفس والاجتماع وملاحظته أيضاً ، وعندئذ يستطيع مستعمل البرنامج أن يصف واقعاً ويفترض حالة ويطلب من البرنامج أن يخبره بالتوقعات والاحتمالات على ضوء ألوف العوامل المودعة فيه ، فلربما تكون الأجوبة أكبر مما يتبادر إلى ذهن السائل ، وبخاصة إذا كان مُتعباً أو مستعجلاً .

ولستُ أقول بأن يقع القادة وعموم الدعاة أسرى لأجوبة تفكير إلى جامد مهما بلغتْ سَعة خلفيته وقاعدته التلقينية ، بل لمعة الفكر الإبداعي الحية هي التي تقود ، وإنما أريد أن يكون البرنامج سبب تربية للجميع يعلمهم النظر الشمولي والتأني في صناعة القرار وتقليب وجوه الاحتمالات ، والاستدراك بالشروط ، ورؤية الآثار المتنوعة للعمل الواحد ، وعندئذ ومن خلال توالي الاستعمال تترسخ الطرائق العلمية عند الأداء الدعوي وتقل مظاهر العفوية والارتجال .

□ ومنهجية أفلاطون ... تُصافحنا ..!

□ وآن لنا أن نعود إلى أصل موضوعنا ، لنكشف استمداد منهجيتنا من منهجية الفيلسوف أفلاطون ٤٢٨-٣٤٧ قبل الميلاد .

(يدعو أفلاطون من يريد أن يصبح فيلسوفاً أن يرتفع بالفكر إلى عالم المعقولات حيث تُهيمن المُثل ، فالمرء إذا رغب في الوصول إلى الجميل في ذاته ولذاته أو إلى مثال الجمال : فإنّ عليه أن يرتفع من حب الجمال التي تتصف به الوردة أو جسم الإنسان إلى حب كل الورود وكل الأجسام ، وإذا أدرك أن الجمال هو الانسجام : فانه يرتقي إلى اكتشاف جمال النفوس وإلى إدراك الجمال في الفن والموسيقى ، ويظل يرتقي حتى يبلغ الجمال المطلق ، وإذا عُكس هذا الجدل الصاعد نزولاً : يعود المرء فيكتشف الجمال في الأشياء الجزئية ويفهمه فهماً أعلى من فهمه الأول . وقد رتّب أفلاطون المُثل ترتيباً هرمياً جعل في قمته مثال الخير ، ويليه في المرتبة الحق والجمال .

توفّر المثل للفيلسوف الصورة الكاملة للعلم الحقيقي للوجود الخالد ، وهما حقيقتان متكاملتان .)[1] .

● وهذه شهادة لصحة منهجية اكتشافنا لحركة الحياة ، فمن دراسة الأجزاء المخلوقة ، ومن ملاحظة الاستقراء الذي يكشف لنا قواعد ومُثل الانسجام والتناسق والتعادل : **نصل إلى تصور كلي عام لطرائق ولادة الحركة واجتماعها ، ثم بهذه الصورة الكلية نزيد معرفتنا بطبيعة الأجزاء ، ونكتشف أن النفس هي محور التغيير ، ومعها العقل ، وللنفس مواقف إيجابية وسلبية في التعامل مع المُثل** ، والنبي ﷺ قد أوضح أن الإيمان يزيد وينقص ، وانه بضع وسبعون درجة وله أعلى وأدنى ، وبذلك تصح منهجيتنا .

بل ذهبنا لا إلى رؤية المخلوقات فقط ، وإنما لرؤيتها وهي في حركتها المختلفة وتصرفاتها ، من بين غزال وثور بري يطاردهما قانص ، وصقر ينقضّ ، والكترون يذاب .

بل ذهبنا إلى فهم أخلاق جماد لا روح له ، من سهم يُغرّد ، وسيف يحسم ، وخشبة تُنحت لتكون كرسياً أو مثالاً لجمال .

---

(١) الموسوعة العربية ٢/ ٩٣٢ .

وكل ذلك إنما هو توسع في المنهجية القديمة أدركنا من خِلاله خلال النفس وعمل العقل ، بل العلاقات الهندسية والرياضية وجدناها ترسم لنا ملامح في الصورة .

حتى استوت الصورة الحيوية مفهومة واضحة أقرب إلى الاكتمال .

● وقد هام أفلاطون بحب الحرية والعدل ، ورسم صورة للدولة الناجحة للأخلاق وصفات رجال هذه الدولة ، وأنشأ " أكاديمية " يدربهم فيها ، ومن ثَمّ وجد الأحرار في كل العالم وفي كل العصور والأجيال بُغيتهم في سطور أفلاطون ، وينيبونه عنهم للتعبير عن مطالبهم في شكل ترجمات وشروح لما كَتَب ، ويستترون خلفه إن خافوا غضبة جبّار جاهل يوعظ أن يكون مع الحُسنى .

و (لقد كان غرض ابن رشد من تلخيص كتاب " الجمهورية " أو " السياسة " لأفلاطون : هو التنديد بجميع اشكال التسلط والاستبداد وتعرية وحدانية التسلط أو الحكم الدكتاتوري .) .

● فقضية السيطرة على حركة الحياة أعقد مما يظن البعض أنها تتم عبر طريق القوة ، بل هي تحتاج تعاملاً ناجحاً مع أنواع كثيرة من العلوم والمعارف والتصرفات النفسية ، حتى إن الكتب الجديدة التي يتقبلها الناس فتكون في مناهج دراستهم تعتبر من وسائل السيطرة ، بل ذلك يكون مهما صغرت ، مثل (المقدمة الأجرُومية) في النحو ، فإنها شاعت وضبطت لسان كثير من المسلمين على تعاقب الأجيال ، ونقلت علم النحو من كونه علم الخواص من العلماء إلى كونه علماً عاماً شعبياً ، وقد قال لي شيخي النحوي سعيد المُبصّر ان أحمد السمين خطيب جامع أبي حنيفة ببغداد قبل قرن من الزمان لم يقرأ غيرها ، لكنه لم يلحن في حياته قط وما أخطأ في حركة واحدة .

هذه القوة في الأجرّومية أدت إلى حصول جزء من الاستقرار الدائم في المجتمع الإسلامي ، بما شاركت من ضبط ألسن المسلمين ، وتأتي وأمثالها تالية لأثر القرآن الكريم في الاستقرار تبعاً والمتمثل في وجه منه في استمرار حصيلة اللغة صافية .

وإن كنتَ في شك من إدراك ذلك فقسه على ما هو أقوى ، كمثل صحيح البخاري وشيوعه بين الناس ووصوله إلى العامة وقراءته في كل مسجد ، فانه أدى إلى استقرار الكتلة الدينية العقيدية والأحكامية في نفوس الناس وتقلصت تأثيرات الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات ، ما لم تكن البدعة طاغية في مدينة ما فتصدهم عنها ، فصحيح البخاري تولى المشاركة في صياغة هوية الأمة الإسلامية واستقرار الدين حاكماً لسلوك أبعد فرد في الأمة حتى لو عاش في قرية نائية ، فتراه على التوحيد وحب النبي ﷺ ولو كان فاسقاً في بعض أعماله وتغلبه شهواته .

وهذا شان كثير من الكتب المنهجية ، وانظر علم قواعد الفقه كيف كان محصوراً بين العلماء في مناظراتهم ، حتى جاء العز بن عبد السلام فجعله من خلال كتاب "مصالح الآنام" علماً شائعاً وأكسبه قوة منهجية وتطبيقية يكاد أن يكون شعبياً و يدندن فيه أصغر طلبة العلم ، بل الدائب على الإنصات لخطب الجمعة دهراً طويلاً تنشأ عنده هذه الملكة العلمية والتقديرات المصلحية ولو لم يقرأ .

ومن مثل هذه الظواهر نقول أن الدعوة الإسلامية المعاصرة مكلفة بأن تؤلف وتكتب وتنشر وتشرح مناهج وتدع بعض علمائها يتكلمون للعامة ، لأن ذلك يؤدي إلى جزء من السيطرة من خلال توحيد المفاهيم والحفاظ على الهوية وتحقيق الاستقرار في المجتمع الإسلامي .

وقد صادفت في حياتي عند المساجلات الخططية دعاة من أقراني وتلامذتي يذهب بهم الظن المستعجل إلى اعتقاد وجوب رصد جهود الدعوة كلها للتعامل مع متطلبات الساحة اليومية دون الالتهاء بالعلم والكتابة وترشيد المناهج ، ويزعمون أن ذلك هو الرد العملي الواقعي على سيطرة المنافسين على الحياة ، وأن العلم سيأتي بعد الحكم والتمكين حين نصل لهما برصد الجهود للمنافسة العملية ، وهذا قول من لا يفقه أثر السيطرة العلمية في حركة الحياة من خلال الاستقرار ومنح الهوية وصناعة ميول نفسية لدى جمهور الأمة من خلال العلم والتلقين تظل تتراكم حتى تكون زخماً تغييرياً عارماً عند نضوج بؤرة قيادية

وزعامة كبرى يثقون بها فيتبعونها ، كمثل التأثير العاصف لعبد القادر الكيلاني في قيادته المجتمع العراقي وما هو أبعد منه وتثبيته بعد دهر البدعة ، وكمثل دور بشر الحافي في قيادة الشارع العراقي أيضاً يوم محنة خلق القرآن ، وكان نمطه في التأثير على العامة مستلاً من تأثير القيادة العلمية الخاصة التي تمثلت بكتلة المحدثين حين قادهم أحمد بن حنبل نحو التحدي والصبر والمعاندة حين استفحلت البدعة وارتبطت أنواع المبتدعة بحلف ، فغلبهم أحمد بإصراره ولمعة العلم السُنّي والسيرة الزهدية الدالة على التجرد .

☐ الدعوبات النفسية بين العقل والعواطف

☐ **إنّ بعض السبب الكامن وراء المُكنة القيادية للإمام أحمد والحافي والكيلاني وغيرهم إنما يتمثل في وجود "التناقض" وتحدي "الغريم" والمنافس ، والذي يرقى أصله وتخريجه العلمي إلى السلوك الذري .**

● **فمن الباطل أن يتمنى الداعية وجود مجتمع كله من الصالحين ، فذلك ليس هو الحلم والخيال الصعب التحقيق فقط ، وإنما هو مصادمة لطبيعة الخلق الرباني للمواد ، وفي المختبرات حققت معادلة "ديراك" صواب نظرية "التناظر الفائق في المادة ، التي تتنبأ بأن لكل جُسيم معروف : شريكاً فائق التناظر" يشبهه ، (أي أن لكل جُسيم جسيماً مضاد له مكافئاً له بالكتلة ، لكنه مضاد له بالشحنة)** (ولقد تم التثبت من صحة مبدأ التناظر الفائق في الكون بالبرهان على وجود جسيمات مضادة لكل جسيمات المادة) .

فالإلكترون السالب يقابله إلكترون موجب (ومع أن النترون ليس له شحنة كهربائية فإن له نتروناً مضاداً عزمُه المغنطيسي مقابل للعزم المغنطيسي للنترون .)[1] .

---

(١) الموسوعة العربية ٣/ ٣٢٨ .

والمجتمع خاضع لهذه الظاهرة في التكافؤ ، فكل مؤمن لا بد أن يوجد بإزائه ضد يكون فاسقاً أو منافقاً أو كافراً ، وإصلاح كل المجتمع غاية لا تدرك ، لأنها ضد طبيعة إرادة الله تعالى في خلق الأضداد ، لكن استسلامنا لهذه الظاهرة لا يعني أن نقابلها بسكوت وسلبية ، بل نعاركها ونتحداها وننافسها لعلّ فاسقاً يهتدي ويذعن ، وأيضاً لتكون لكتلة المؤمنين السيطرة على حركة الحياة .

والجسيمات الذرية المتضادة ما تزال أبداً تتصادم .

● أما الجانب الضال الذي حرم نفسه من بركات الوحي : فهو في قلق ، وكآبة ، وسوء مُنقلَب مهما خدع نفسه .

وأعطى الأديب القاص الياباني " اكوتاغاو " ١٨٩٢-١٩٢٧ اسمَ " دوّامة الأخيلة " لإحدى قصصه . وهو تعبير إبداعي ناجح ، فإن الأخيلة إن تعدّدت كثيراً : صارت إعصاراً يهاجم النفس التي تنشد الاستقرار ، فيعصف بها .

وفي قصته : باب الجحيم :

(يركز الكاتب في قصته هذه على حقائق متناهية الصغر ، تجرح بحدتها الخيال ، وتعكس القبيح : بثرة في الوجه ، وحشرة تقف ساكنة على الخشب الأحمر . في هذا المكان الكئيب يُصور اكوتاغاوا نبضات غير منتظمة لقلب متأرجح بين اليأس والرحمة والعنف .) [(١)] .

وفي روايته (التبغ والشيطان) :

(يسلط فيها الضوء على شيطان الغرب ، ويزيل الأقنعة عن بعض الشخصيات المشهورة ، ويهاجم الأخلاقيات الجاهزة والمرفوضة) .

● وهذا النمط السلبي مطرد في حياة الغربيين ، فأكثر قصص الروائية الفرنسية المعاصرة سوزان برو تتميز (بجوها الخاص الذي يعتمد قناعاً هشّاً لا يلبث أن يتمزق ليكشف عن القلق والشك .) [(٢)] .

---

(١) (٢) الموسوعة العربية ٣/ ١٤٣ ، ٥/ ٣ .

● وكذلك صاحبها الأديب الفرنسي دوهاميل المتوفى عام ١٩٦٦ (اشتهر بكتاباته ذات البعد الإنساني ، وبانتقاداته القاسية للتردي الأخلاقي المواكب للتقدم الصناعي) .

(ووضع عدداً من الأعمال يدعو فيها الإنسان المعاصر للتحرر من استلاب المادية المسيطرة ويطالبه بالحفاظ على هويته الثقافية .) ورَصَدَ (انهيار التقوى . في " يوميات سالافان " ١٩٢٧ ، وانهيار المشاريع السياسية في " نادي الليونيين " ١٩٢٩ ، وانهيار روح التفاني في سبيل الإنسانية في " كما يشعر تماماً " ١٩٣٢ .) .

وفي رواية من عشرة أجزاء حافظ على (المنحنى العام لأفكاره المنتقدة للانحطاط الأخلاقي الذي يخرّب برأيه الحضارة الأوربية برُمّتها .) [1] .

● **هذا عندهم وفي وصفهم ، وأما عندنا وفي رهطنا الإيماني فأمرنا محفوف بالعواطف الندية ، وقلوبنا عامرة بفضل الله ، ونفوسنا تغشاها سَكينة .**

حتى بعض رجال الغرب يرون ذلك ، مثل الفيلسوف الرياضي الألماني " لايبنتز " ١٦٤٦-١٧١٦ الذي (قال بأن الطبيعة هي في جوهرها متناغمة وخيّرة ، وبأنه لا تعارض بين الإيمان والعقل .) [2] .

وكل قوله صحيح ، فليس هناك تعارض جزماً بين الإيمان الإسلامي والعقل ، وذلك الذي جعل ابن تيمية يتخذ من المعنى شعاراً وعنواناً لكتابه المشهور الذي سماه " درء التعارض بين النقل والعقل " .

وأما التناغم بين المخلوقات فقد أكثرنا من رصده في رسائل حركة الحياة وفي هذا الكتاب ، حتى أن لأخلاق الذرّة أصداء في سلوك الإنسان .

وأما أن الخليقة خيّرة : فنعم في مُجملها ، ما عدا الشيطان والجانب الفجوري في النفس الإنسانية ، ولذلك احتاط الفيلسوف فقال : " في جوهرها " .

● والدليل على هذه الخيرية والتناغم : أنها رؤية مُتاحة ، وحقيقة معلنة ، وقد

---

(١) الموسوعة العربية ٩/ ٤٨٣ .

(٢) موسوعة المورد ٦/ ١٠٤ .

انبغت لكثيرين حتى وصلت الشاعر السوري مصطفى عكرمة فأذاع بها :[1]

كـلُّ شـيءٍ في الـدين يَـبدو جمـيلاً
مُـــــستقِرا مُـــتمماً لِــــسِواهُ
لـيس يطغي الفؤاد فيه علي العقـ
ـــل ولا العقـلُ حائـر في مَـداهُ

● وحين يكون الوحي متوافقاً مع المنطق، ويكون حضور العقل وافراً: يطمئن المؤمن أن الربَّ الرحيم لم يتركه إلى حَيرة، فيجد حينئذ مجالاً عريضاً فسيحاً لأن يمرح مع العواطف، فيتجول في رحاب المجاز، ويناغي الرمز، على الطريقة الأحسائية التي اقترفها الدكتور هاني الملحم في التغني بحبيبته ...

سَكنتْ فؤادي، وهْيَ شريان الدمِ
ولها جمعتُ الشوقَ، وهْيَ باعظمي
وأظـل ارقـبُها، وأتـبعُ ظلَّهـا
مـن نـومتي الصغرى وإن لم أحلمِ
وتظـل تؤنـسني بعـذب كلامهـا
وتكـاد تحـضنني بـصدر مُتـيمِ
وتكـاد تحملـني علـى شـطآنها
ولبحـرها همـسٌ يُداعبُ مبسمي
ولهـا الـرياضُ تفـتقت أزهارهـا
تختـال مـن عـبق الهـيام وترتمـي
لا تحرميني الوصل، "إني عاشق"
خَفَقَ الجنان لها، وأعلنها فمي
ومـسافر أرتـاد خُـضر دروبهـا
وعلى الدروب الخضر كان تقدمي
إن قلـت إن عواطفـي قـد بالغت
لا تعجـبي مـني ولا تتكلمـي
فأنـا الـذي مزج الهواء مع الهوى
فـتهاديا روحـين للمتنـسم
فـيها عـرفت رسـالتي وهـويتي
وبهـا سمـوتُ كطائـر مـترنمِ
جـادت بداعـيةٍ يجـود بـروحه
لله دون تـــرددٍ وتـــبرّمِ
إيمانـه صـدق وشـيمته علَـت
بـشجاعة وسماحـةٍ وتبـسمِ
إنـي لأخجـل حـين أمدحها وقد
أثنـى علـيها ربـنا في المحكـمِ
إن كنتَ تسأل مَن تكون حبيبتي؟
هي "دعوتي" شرفت بنهج الأعظَمِ

(١) ديوان "حتى ترضى" / ٩٣.

● وهذه ليست عواطف شاعر يصدح في وادي الأحساء ، ولكنها أيضاً درس في التربية ، ونموذج تطبيقي في المنطق الرمزي يقوم بإلانة الصلادة النجدية ، ثم هي خلجات قلبية تتولى معادلة الإفراط في العقلانية الحجازية ...!!

● والأرهاط الثلاثة كلها مصيبة إن شاء الله ، ومن تباينها ينتج التعادل والاستقرار ، وهي توزيعات قدرية تتكامل ، ولفظة "البقية" القرآنية تتضمن جميع ما هنالك ، وهي المذكورة في قوله تعالى :

" فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ " هود / ١١٦ .

قال ابن عطية : (والبقية هنا : يراد بها النظر والعقل والحزم والثبوت في الدين .) [١] .

فالنظر والعقل هما في منطقيات الحجاز ، والحزم رأس العاطفة حين تتأجج في الأحساء ، ومزيد الثبوت في الدين صنعة نجدية ، وفي كل دور الأنصار خير .

● وإنما الاحتكام من بعد الشرع إلى العقل والعُرف ، ولذلك أمر العلويّ الشنقيطيُّ صاحبه بها ، وقال : [٢]

فَشَمِّرْ وأظهر كلَّ سِرٍّ تضمُّهُ
وإياك والإضمار في الشرح والحذفا

وحَكِّمْ لها مَن هُنَّ بالفصلِ حُكَّمُ
ثلاثتهن : الشرعَ والعقلَ والعُرفا

● ومثل هذا هو بعض ما عاناه مَن جَعَل السرور : (إقامة الحُجّة ، وإيضاح الشبهة .) [٣] .

فهو منطقي له عمل عقلاني ، ويفحص الأدلة ، ويناظر ، ويقيس ، ويكتشف

---

(١) تفسير ابن عطية ٧/ ٤٢١ .

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ٤ .

(٣) العقد الفريد ٦/ ٢١٩ .

الفروق ، وقد صقلته معاناة المقارنة ، وتصوّرات الأشباه والنظائر ، والوقوف عند الملاحظات وحدود المعاني ودلالات اللغة ، وهيئة التضاد ، وانطباق التوافق ، وبرهان التجربة ، وقابلية التوليد ، وبركات الاشتقاق ، فهو نظام دقيق في أقواله ، وشمولي جيد الربط بين المقدمات والنتائج .

● ولهذا المبحث المنطقي علاقة قوية بما يسميه العلماء " نظرية الاحتمالات التي تعتمد على حسابات رياضية وإحصائية وجبرية متعددة الأنواع ، وأظن ان مجموعة الذين يصممون برنامج الأداء الدعوي السالف الذكر سيحتاجون الرجوع إلى معادلات الاحتمالات احتياجاً مكثفاً ، ولابد لهم أن يتقنوها ، مع أني حين تأملت فيها وجدت نقطة ضعفها تكمن في إهمالها للأسباب العديدة التي تؤثر في الحدث وتركيزها على الأسباب الظاهرة القوية ، لذلك كدتُ أن لا أتشجع لإقرارها ، ولكني حين نظرتُ في استعمال الفيزياء النظرية لقواعد الاحتمال بنجاح عُدتُ فآمنت بها ، ولكني عرفتُ أيضاً واكتشفت أن الفيزيائيين والرياضيين يستعملون منطقاً واسع التنوع عديد الأشكال يكاد أن يكون جامعاً لكل ثمرات المعارف والمشاهدات ، ويتجاوزون الأسباب الظاهرة إلى صغائر كثيرة ، وهذا هو سر النجاح ، ولذلك فإنّ الاستعمال الناجح لنظرية الاحتمالات يقوم على أسلوب حصر كل أنواع المنطق والأسباب المؤثرة ، وعند ذاك تكون الدقة ، وهذا الشرط هو الذي فاتَ الاحتماليين ، وعند تحققه **فإن الطريقة تكون طريقة الاستقصاء المنطقي أكثر مما هي طريقة رؤية الاحتمال ، ويضحى الاحتمال لا سند له ، وهذا ما جعلني أحرص خلال مباحث حركة الحياة على استحضار كل جوانب المنطق ، وهي الطريقة الصحيحة البديلة لنظرية الاحتمال** التي أراها لا علمية حين تدخل ضمن الأسباب عوامل نفسية وفكرية ، كما في الموقف الدعوي ، وعلميتها تكون في حدس الأمور المادية الصرفة التي لا علاقة لها بالمعنويات والأفكار ، فوق أن عقيدة الإيمان تنفي الاطراد ، وإنما هو قدر الله يُحدثه حين يشاء كيف يشاء .

● وجوامع التصنيف المنطقي للأجزاء والتفاصيل التي تتكون منها صُور الحياة وحركتها : تحتويها بديهيات ست [1] :

□ الأوليات : وهي القضايا التي يحكم بها العقل بعد تصور الطرفين والنسبة . كقولنا : الكل أعظم من الجزء .

□ الفطريات : وهي التي يحكم بها العقل بعد تصورها لوسط حاضر في الذهن . نحو : الأربعة زوج .

□ المشاهدات : من خلال الحس الظاهر ، مثل الشمس مشرقة ، أو الباطن : مثل الشوق إلى شيء .

□ المجرّبات : وهي تكرار المشاهدة .

□ المتواترات : وهي مجربات تستفيض عن كثيرين .

□ الحدسيات : يحكم بها العقل بقياس خفي حدسي ، مثل نور القمر مستفاد من الشمس .

وهذه التقسيمات المنطقية لا علاقة لها في كشف أصل الحركة الحيوية ، لكن الواحدة منها ، أو ازدواج ثنتين منهما : قد يكشف أطرافاً من سلوك الحركة وتصرفها بعد ولادتها ، أو يقود عملية فحصنا لها وتكرارها ويجعلنا أقرب إلى "وصفها" ومعرفتها" ، وتعيين علاقتها بحركات أخرى ، فصاحب المنطق أقدر على التعاطي مع علم حركة الحياة ممن يفتقده ، كما أن صاحب اللغة أقدر على الوصف الدقيق ، وأليق للقيادة وتحريك الناس .

● ويعدل هذه البديهيات كلها : "علم الفروق" ، الذي يقابل "النظائر" ، ولذلك علم الفقه هو علم "الأشباه" من باب ، مما الف فيه ابن نُجيم وغيره ، وعلم "الفروق" من باب آخر ، مما ألف فيه القرافي وغيره .

ومنذ القديم قرّر الأدب العربي ظاهرة الفروق ، وسَجّل الميزان المنطقي الذي

---

(١) الرحمة في المنطق والحكمة لعبد الكريم بياره / ٢٩ .

يلاحظ انحراف شيء عن شيء آخر وإن وردت وجوه تشابه فيهما ، وذلك قول شاعر روى بيته الأصمعي عن اللغوي الأحمر ، وفيه يقول [1] :

بَلى : شيء يُوافِقُ بَعضَ شيءٍ
أحايينـاً ، وباطلُـه كـثيرُ

ومثل هذه الملاحظات مهمة وإن رأيناها جزئية ، لأن استحضارها هو الكفيل بتقويم المنطق الوصفي وتصحيح سياق الجدل ، وتلك آلية تُسهم مع مثيلاتها في تقريب رؤية صورة الحياة الكلية وفهم نبضات حركتها .

● مع انه ليس كل اختلاف وفرق مذموم ، بل خلاف الفقهاء ممدوح من وجه أنه باب لاستنباط ما قد يكون فيه تيسير على المكلفين ، وكذا عند الحوار الجاد وما يكون فيه من تكثير الرؤى وأجزاء الصواب والاحتياط بالاشتراط . وفي مذهب العرب عند الوصف التشبيه باختلاف السهام إذا رماها الفاحص لها إذا أخذها من يد مَن يبريها ، (أي كما تردّ السهمين على البرّاء للسهام إذا أخذتها لتنظر إليهما ، ثم رميتهما إليه فوقعا مختلفين : هكذا أحدهما وهكذا الآخر .) [2] .

فهذا تشبيه شريف وارد في شعر أمرئ القيس ، وأرشحه أن يكون مثالاً لتشبيه الدعاة المفكرين إذا تحاوروا فتعاكَسَ نظرهم ، خلال المؤتمرات والندوات والتشاورات القيادية ، واصلاً لاستحسان تعدد مذاهب المجتهدين من الفقهاء ، وسبب الشرف فيه أن السهم آلة الشجاع المعتز المحارب المستعلي ، وأن النابل يرمي سهامه ذوداً عن عرضه وماله وإدامه لحريته ، فصار هذا النَبْلُ عنوان النُبل ، ولطف التشبيه به .

● والدليل على أن عرف الأقدمين سوغ الخلاف الذي له سبب منطقي : أنهم

---

(١) لسان العرب ٢/ ٦٣٦ .

(٢) الخصائص لابن جني ٣/ ١٠٣ .

استطردوا في تصحيحه حتى ولو كان مثل "نقطة" فقط ، وهو من تشبيهات الأضداد ، أي لو كان كبير الحجم ، وهذا كلام صحيح فصحيح ، وقد ورد في لسان العرب من كلام عائشة رضي الله عنها أنها قالت : (فما اختلفوا في نقطة ، اي في أمر أو قضية .)[1] .

● ثم من بعد كل هذا : تتبين حاجتنا للقدرة المنطقية كمحرك من محركات الحياة من خلال قياس ذلك على الممارسات التأملية البحتة للعالم الفيزياوي الخبير في "الفيزياء النظرية" ، وكيف أنه من خلال الافتراضات البحتة والاستعانة بدلالات الحسابات الرياضية والجبرية يستطيع فهم تركيب الذرّة ودقائقها في نواتها ومداراتها وأنواع شحنتها ، ويضع نتائج تأملاته الافتراضية المشفوعة بالدلائل الجبرية بين يدي رجال الفيزياء المختبرية العملية ، ليدأبوا في محاولة تأكيد الافتراض ، وتستمر محاولاتهم حتى ينجحوا ويثبتوا صحة التوقع النظري الذي اعتمد المنطق المجرد مشفوعاً بالمعادلات الجبرية أحياناً ، وأحياناً بدونها ، وذلك هو الذي جعل هايزنبرغ وبور وآينشتاين وأمثالهم من أئمة الفيزياء النظرية وفيزياء الكم يصيبون النجاح تلو النجاح في الكشف عن مجموعة الدقائق الذرية والفوتون وتفسير ازدواجية الحقيقة الجُسيمية والموجية للضوء ، مما أتاح انطلاق العلم الحديث وطفرة التطبيقات التكنولوجية المعتمدة عليه ، وكانت الأدمغة الكبيرة والذكاء الخارق لأولئك الرهط الذي اجتمع في مؤتمر سولفي العلمي سنة ١٩٢٧ سبب التطور الهائل السريع للمدنية الحديثة ، والتي كان أساسها قبل المختبر تحليل ونظر حصيف وافتراض ولمعة واستنتاج منطقي وتعامل رقمي ورمزي ، مع قدرة تركيبية جامعة .

فكذلك نفهم أمرنا في وضع معادلات الحركة الحيوية ، فإنها تبدأ بجهد تأملي أيضاً من لدن أذكياء نعرف عنهم الإبداع واصطياد الخواطر وقنص اللمعات

---

(١) لسان العرب ٣/ ٧٠٦ .

وجمع شرر القدحات التي تحدث عند احتكاك كل رأيين أثناء المناقشات المحتدمة وسخونة الحوار المتكافئ الجاد المسترسل الحر الذي لا تحده رسميات وأوقات ودبلوماسيات ، فمن خلال توارد الرؤى والافتراضات والمقولات الاحتمالية ستتولد أجزاء قصيرة من أنساقٍ نظريةٍ تصلح أن تكون طرفاً في معادلة منطقية تتولى بيان كيفية عمل مؤثر ومحرّك من محركات الحياة ، وباستمرار البحث تتكامل هذه الأجزاء حتى تتم المعادلة وتكون أداة منطقية يقبلها العقل السليم وتتناسق مع المعايير المنطقية الأخرى .

● ثم يأتي متبطر ثمل فيزعم من بعد كل هذا أن فلسفته تقوم على (أن الإنسان موجود في عالم لا عقلاني خلو من المعاني ، وبأن محاولاته التي يقوم بها التماساً للنظام أو بحثاً عنه تجعله في صراع مع عالمه هذا .) [1] .

وممن يقول بذلك كيركيغارد الدنمركي ، وكامو الفرنسي .

وكل شواهد حركة الحياة نقض لهذه العَبَثية .

● وكيف تكون عشوائية في الدار الإسلامية وقد حباها الله من بعد الوحي والتوحيد والقرآن والحكمة لغة عربية ناصعة راقية ذات فقه ودلال وغنج ؟ وبلاغة مفرداتها ومحاسن تركيبها تمس شغاف القلب فيرقص طرباً ؟

● **فأنا أرى أن قواعد المنطق قد تركت آثارها على جميع مناحي الفكر الإنساني ، حتى اللغة : إنما حكمتها الموازين المنطقية** ، فإنك حين تقرأ ما يذكره ابن سيده عن بعض اللغويين أن : " الوُدّ " وهو (الحُبّ يكون في جميع مداخل الخير .) [2] : تشعر بشموليةٍ وتعميم هما من أثر الانصياع لقواعد المنطق في الاستغراق والتعددية والإلحاق والتوسع ، وما ثمّ احتكار وتضييق وحصر وتحديد ، لذلك قال الفراء معقباً : (وهذا أفضل الكلام .) !!

فالمنطق أداة ضبط للأداء الحيوي كله ، وتنصاع له اللغة كما انصاع الفكر

---

(١) موسوعة المورد ١/ ٢٦ .

(٢) لسان العرب ٣/ ٨٩٦ .

والعلم ، فليست اللغة مجموعة ألفاظ لها مدلول أحادي منضبط ، وإنما هي ألفاظ أخرى لها وظيفة تعميمية .

● وهذه اللغة لها منهجية في التسميات ، ومراعاة لمذهب العقل في الوصف ، فهي بعيدة عن الجزاف والمصادفات ، بل لها قواعد وتخريج .

قال في اللسان عن ابن سيده :

(إن الأعلام أكثر وقوعها في كلامهم إنما هو على الأعيان المرئيات) (فإن قيل : ولِمَ قَلَّتِ الأعلام في المعاني وكثرت في الأعيان ، نحو زيد وجعفر ، وجميع ما علق عليه عَلَمٌ ، وهو شخص ؟ قيل : لأن الأعيان أظهر للحاسة وأبدى إلى المشاهدة ، فكانت أشبه بالعلمية مما لا يُرى ولا يشاهَد حِسّاً ، وإنما يعلم تأملاً واستدلالاً ، وليست من معلوم الضرورة للمشاهدة .) [1] .

فهذه سطور من فلسفة اللغة ، ولو جرينا في التحليل على هذا النحو لاستبانت لنا دقّة التقدير في فقه اللغة ، وإنها على ميزان يستحضر وعي أحوال المسميات ، وما الأمر بتابعٍ لشهوة .

● ومن آلات الدقّة عند المقايسة والتشبيه : استعمال ألفاظ اللغة المناسبة . فهناك : مماثلة ، وهناك : مساواة .

قال في اللسان (قال ابن بري : الفرق بين المماثلة والمساواة : أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين ، لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار ، لا يزيد ولا ينقص . وأما المماثلة : فلا تكون إلا في المتفقين . تقول نحوُهُ كنحوه ، وفِقهُهُ كفقهِهِ ، ولونُه كلونه ، وطعمه كطعمه ، فإذا قيل : هو مِثله ، على الإطلاق ، فمعناه : أنه يَسُد مَسدّه . وإذا قيل : هو مثله في كذا : فهو مساوٍ له في جهة دون جهة .) [2] .

● وعلمنا في هذا كله قد استوت أطرافه ، وتماثلت مراكزه ، وشهد آخره

---

(١) (٢) لسان العرب ٣/ ٤٤٨ / ٤٣٦ .

لأوله ، وواضحه لغامضه ، وحتى نضج محمد الله وتشكلت منه نظرية حركة الحياة ذات التفسير النفسي والفيزياوي والجمالي ، وأصبحنا يحق لنا أن نصف علمنا بأنه "النمط" ، وهو كما في لسان العرب : (المذهب والفن والطريق) [1] . (والجمع من ذلك كله : أنماط ونِماط .) . فالذي معنا وجود ، ونظام ، وعافانا الله مما ابتلى به غيرنا من العَبَث □□

(١) لسان العرب ٣/ ٧٢٣ .

□□ شرفُ الإنسان ، وقيمته الكبرى : في اللغة التي تفصح عن مكنون العقل والنفس ، وتترجم الأحاسيس القلبية والعمل الفكري ، وباستحضار هذا المعنى تفهم قول الحافظ ابن حبّان : (الإنسانُ إنما هو صورةٌ مُمَثَّلَة ، أو صالّة مُهملة ، لولا اللسان ، والله جلّ وعزّ : رَفَعَ جارحة اللسان على سائر الجوارح .)[1] .

يعني : قطعة من الصلصال ، أي الطين .

وهذه النقطة : هي نقطة ضعف دارون التي أدخلته المتاهة ، ولو انه كان يعرف العربية ، وسمع ديوان الحماسة ، وترنمات أصحاب الأغاني التي أوردها الأصبهاني : لأذعن للحق وعَرَف أن وراء الحروف التي تولت التعبير عن خلجات الأنفس بمثل تلك الدقة والمهارة الشعرية أكثر من نوع من أنواع الأعجاز التي تجزم بأن آدم من صناعة الله في الجنة ، وليس هو سليل حيوان الأرض ، ولكن هذه البصيرة لا تتاح إلا لمؤمن يسترسل مع الوحي حتى يقذف به إلى لُجج الفهم العظيم .

وبمثل هذا الفهم اندفع العلامة عبد الله العلايلي في مقدمته لموسوعة " لسان العرب " يذكر مكانة اللغة وفضل العربية ، و(أن أحَدَنا عاطلٌ من الفكر : إن لم تكن له لُغة . وفَرْضُ إنسانٍ بدون لُغة : معناه فرضُ إنسان بدون فِكْر . فالفكرةُ إنما تتكوّنُ في رؤوسنا بكلمات ، أو بعبارة أدق : بأشباح كلماتٍ ثابتةٍ في جوهر النفس .

واللغة أعجبُ مُبتكرات الكائن العجيب ، وإلاّ : فبأيّما أداةٍ كان قد قَتَل الصمتَ ؟) .

وهذا سؤالٌ مركزي ..

أما في اقتراح دارون فإنه يقتله بهمهمات القردة ..

وأما في فهمنا الإيماني : فإن اللغة تعليم رباني ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ، وأنه لم يُخلق ليصمت ، بل لينطق بالحق والمعروف والصدق ،

---

(١) روضة العقلاء / ٤٢ .

وليتلو الآيات ويسبّح مُهللاً مُكبراً ، ثم ليستعمر الأرض وتكون منه تنمية ، ومن هذه التنمية تنمية القلوب بالبلاغة ، وهزّها بالفصاحة والمجاز والشِعر الجزل المتين ، ونفضها حتى تستقيم .

□ حركة الحياة نزعن هيبة الكتلة اللغوية

□ وكان كونفوشيوس قد نصح مَن أراد تعليم الناس الحرية أن يتوسل باللغة ، لأنها مفتاح الوصف ، فيقود القلوب من خلال تقليب وجوه المعاني ، وكذلك ينبغي أن تكون وسيلة مباحث حركة الحياة ، فتركن إلى معجم لسان العرب وأمثاله ، لأن كل ما هنا لك من حركات وأخلاق وخلجات ونبضات إنما يحتاج وصفاً وتصويراً ، واللغة هي الآلة لهذا الوصف ، فيكون تتبعها في مظانها واستعراضها هو الضامن للإحاطة بجمهرة كثيرة من الملاحظات الوصفية والتعليمية ، والاستقصاء صعب ، وإنما هو بالمقدار الذي يجد مناسبةَ تعلّق وارتباط بين الاستطراد اللغوي الحاصل عند المطالعة ، وبين الفكرة المتخيَلة في عقلي لآفاق الحركة ، فإذا تطابقا في آن واحد وتراكبا : صار الانتباه ، على أن البديل عما يفوت نحوزه من خلال التحليل ، أو قصص التاريخ ، أو مذاهب الفكر .

● وقد تعمدت حشر مئات التعابير الناجحة في وصف مظاهر الحياة وجوانب المشكلات مما يتداولها الباحثون ويوجزون بها معنى كبيراً في كلمة وكلمتين وثلاث ، مما يأتي كأنه شعار وَمثل وحكمة ، ومعرفة القارئ بها تمنحه مُكنة عالية في تجويد كلامه ومقدار تأثيره وإيضاح شروحه للقضايا وإثارته لعاطفة السامع ، وهي كلمات مميزة لها وقع نفسي أو بلاغي واستللتُها من سياق البحوث وأبيات الشعر ..

● وكانت نتيجة منهجية الحرص على القول البليغ : كُتلة لغوية عالية فرضت لها مكاناً ، فقد تناثرت ما بين فقرات رسائل حركة الحياة ألفاظ واصطلاحات هي في الحقيقة عُصارة تأملات امهر اللغويين والشعراء ، فالمبحث كما أنه وعاء معنوي فكري : فإنه مدرسة لغوية عربية أصيلة ، وحتى كأنك لا تدري أي

الميزتين أظهر وأهم .

● ولكن يبقي اقتفاء أثر أجزاء الحركة الحيوية في الشعر ، على النمط الذي طفح بين ثنايا مراحل الاكتشاف والوصف الذي حصل في هذه الممارسة الفكرية : ترفاً جميلا ، فما هو بشرط ولا ركن في منهجية البحث . ولكنه مجرد أهواء رقيقة وميول عاطفية طغت فمالت إلى التستّر بالرمزيات ، وذلك طابع في بعض النفوس ، تخرج من صلابة ومواجهة المعاني بشكل مباشر إلى رهافة يمكن استصحابها من خلال الالتفاف والترفّق ، فكأن صدمة المعنى يكون امتصاصها عن طريق الإيمان وتجميل اللفظ وكشف أحاسيس النفس التي تصاحبه ، فيشف ويخف ، ويكون أسرع نفاذاً إلى القلوب ، فكان ذلك هو الديدن ، وهو سرّ انحدارنا مع تيارات الشعر وهوانا بها ، كمثل راكب زورق يتهادى به في نهر الحياة الدافق .

□ فذلكاتُ الحروف .. تُدبِر الحروب

□ وهو سر هوانا بكل كلمة معبرة تكشف عن قيمة ، متابعةً للعلامة العلايلي الذي لم يرَ ثمّ غير قيم المعاني العالية ، فقال :

(لم أرَ على وجهِ كلِّ هذا الغمْرِ إلاّ ظِلاً ، تَرَكَتْهُ يَراعةُ بِدْعٍ ، ترسم فيما ترسم : الكلمةَ الوعاء : وعاءَ الفِطَن .) .

ثم أردف مؤكداً . . .

(هذه الكلمةُ التي إنما هي فَضٌ خَتْم ، يُغريها قَصَبٌ من بَري خاطرٍ بالترفق ، فلا تشحُّ ولا تنضب .. . بل تسيل لتَصُبَّ ذَوْبَها، دون ما حِسابٍ ، إلاّ للخِضَمّ العظيم : خِضَمّ القِيَم .) .

● وشبهت أمامةُ الكتابة بالأسهم السود ، في قول الجموح الظفري :

قالت أُمامةُ لما جئتُ زائرَها : هلاّ رَميتَ ببعض الأسهُم السُّود ؟

قال الجوهري : (والأسهم السود كناية عن الأسطر المكتوبة . أي : هلاّ كتبتَ

لي كتابا ؟)[1] .

وفي هذا التشبيه إيماء إلى قوة المعنى يُصاغ في قالب لفظي وبلاغة فتجعله ماضياً مؤثراً ، كمضي السهم ..!

● ولذلك قال جرير يصف أثر هجوه للفرزدق وغيره :

أعَــدّ الله للـــشعراء مـــني ... صَـواعِقَ يَخضَعون لها الرقابا

اي إذا هجاهم ، فهو كلام ، لكنه مثل الصواعق في التأثير ، وتنتج منه حركة للحياة .

● ويُروى أن صلاح الدين الأيوبي قال لجيشه بعد انتصاراته :

(لا تظنوا أني ملكتُ البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل)[2] .

وهو عبد الرحيم بن علي ، من أهل عسقلان ، استوزره صلاح الدين (فساس مُلكه أحسن سياسة) ويعدّونه شيخ صناعة الكتابة في عصره .

ولعلّ صلاح الدين قد أرضى قادة جيشه وأبطال الفتح المبين بمدح مثيل وشكر جزيل أتاح له أن يتحول إلى هذا الثناء على وزيره ، وأريحيته مظنةُ ذلك ، ولكن قوله هذا هو قانون جازم في أثر اللغة والبلاغة في الحركة الحيوية ، وشاهد من أبرع قائد محرّك لحياة المسلمين بعد عصر صدر الإسلام ، ومعنى ذلك إن الفكر مركز آمالنا ، وعليه تعويل ، ورهطه من حَمَلة الأقلام هم مثل حَمَلة السيوف ، وإنما عِمادُهم البراعة في اللغة ، والتفنن فيها ، واستعارة الفصاحة من القدماء ، والتجديد فيها .

□ فقعقةٌ أمضى من سلاح ..!

□ وهذا بعض السبب الكامن وراء كون أهل الفكر المعرفي أبعد عن الكذب والتعامل الدوني في الأغلب ، لأن ثقافتهم تتيح لهم بديلاً من الكلام الذي يقنع المقابل ويُرضيه ، ويُبرد حرارة الفائر المعترض ، ويجعل المتشكك واثقاً ، بما يكون

---

(١) لسان العرب ٢/ ٧١٦ .

(٢) موسوعة المورد ٨/ ١٠٥ .

من حُسن الاعتذار ، وقوة المنطق ، وتأثير البلاغة والحروف المناسبة للموقف ، حتى كأن المعتذر قد أعد لكل حال مقالة تناسبها ، وذلك معنى قول التابعي محمد بن سيرين : (الكلامُ أكثرُ من أن يكذبَ ظريفٌ) .

(اي أنّ الظريف لا تضيق عليه معاني الكلام ، فهو يَكْني ويُعرِّض ، ولا يكذب)[1] .

وهنا يأتي التأثير ، من هذا التعريض والإيماء ، والبارع يلوي قناعات السامع بما معه من فن الكلام دون ان يضطر لكذب محض ، فليس يحتاج الكذب لبقٌ ، وإنما له في ثنايا سعة الألفاظ مخارج وتخلّصات ، وفي المعاريض مندوحة .

● وهذا الامتياز للأديب المعرفي هو الذي يُبدي عيب العاري من النطق ، ونقص المحروم من بركات اللغة وجولات الحروف حين تتحرك وتصول ثم تضغط بتركيز وإلحاح على جبهة في أرض المنافس فتفتحها وتنتصر ، وما كانت ثمّ في المعركة قعقعة سلاح ، وإنما هو البيان حين يضرب في ثنايا الحياة .

● وتبدأ قصة هذه الطاقة اللغوية من تكامل الحروف ، وان مجموع الحروف ظاهرة من ظواهر الحياة هي أصل المُكنة الوصفية والتحليلية ، ونقص أحدها ثلم لهذه المكنة ، وقد عبّر عنه القضاء الإسلامي بوضوح ، وقد سُئل التابعي عطاء بن رباح (عن رجل لَهزَ رجلاً فقطعَ بعض لسانه فَعَجَمَ كلامَه ، فقال : يُعرض كلامُه على المعجم ، فما نَقصَ كلامه منها : قُسِمت عليه الدِّيةُ .)[2] .

على المعجم : اي علي حروف المعجم : ا ب ت ث . فهذا جذر القضية ، وتزداد هذه الأهمية كلما زاد علم الرجل ومقدار تصرّفه البلاغي في الكلام .

● والأمر يكون أكبر ايضاً ، بحسب المقام والحاجة وطبيعة القضايا المبحوثة ، فتتضاعف الأهمية كلما خرجت من النطاق الفردي والمصالح الشخصية إلى مستوى النطاق العام والمصالح الاجتماعية والسياسية ، فإن إجادة اللغة والمحاجة والملاسَنة وفهم أساليب التعبير والبيان تتيح إتقان التعاقد القانوني ،

---

(١) (٢) لسان العرب ٢/ ٦٤٣ ، / ٦٩٧ .

وصياغة الدساتير والمعاهدات ، ونقدها ، وما في التعامل السياسي من وعود والتزامات ، والعارف بأساليب اللغة يستطيع اكتشاف المناورة والتحريفات المستترة ، وكلام السياسة كله يعتمد المدلول اللغوي الدقيق ، والدستور الشعوبي العراقي مظهر من مظاهر نجاح الخصم في المناورة اللغوية ، وكان الذين وضعوا الدستور يعرفون ما يريدون ، وأجادوا التدليس ، مما يحملنا على اعتقاد وجوب تربية القياديين في الدعوة بتربية لغوية نحوية بلاغية فوق التربية السياسية ، فان تركيب الكلام محرك من محركات الحياة ، وعلى عناصرنا الصاعدة أن تتداول الأدب والشعر بكثافة ، فان ما يترسب منهما في النفس هو الذي عليه التعويل في النباهة اللغوية واكتشاف مقاصد المنافسين ، وليس تلقين قواعد النحو فقط ومسمّيات فروع البلاغة .

● والسبب فيما أظن يكمن في وسائل الإعلام ، من صحف وإذاعات مسموعة ومرئية ، فإنها تتساهل في أمر اللغة ، فيتغلب الموضوع على البناء البياني ، ومع كثرة التداول والحوارات التي تعتمد الارتجال : يهبط المستوى ، ويكون تجاوز القواعد والشروط ، وتتيح هذه الطريقة ما يشبه "التلمذة" لها من كثيرين من الشباب الصاعد ، وما هي إلاّ سنوات قليلة حتى يكون أحدهم سياسياً وقيادياً ، فتتحكم به ثقافته الإعلامية وأسلوبها ولغتها ، بعكس ما كان الأمر سابقاً قبل وسائل الإعلام المعاصرة من جلوس الناس بين أيادي المعلمين والفقهاء والتزامهم بطريقة متينة متدرجة تمنحهم الجزالة والفصاحة .

والكل ضحايا لهذه الظاهرة ، حتى المتأدب والشويعر من الجيل الجديد أصبح إنتاجهم سطحياً مملولاً بارداً بسبب ضعف لغتهم ، وذلك (أن أهم قواعد الإبداع تكمن في اللغة ، في امتلاك قواعد نحوها وأساليب تركيبها ، حيث لا يمكن لمن يسعى إلى أن يكون مبدعاً يتعامل مع المناطق الساخنة في منعرجات الكتابة والتعبير الاّ يجيد لُغته ، وهنا يكمن السبب الأول والأهم من الأسباب التي تجعل إبداع بعض هؤلاء الشبان متعثراً وفارغاً من الخصائص الفنية والجمالية

التي تجعله يستحق وصف "إبداع") كما يقول د . عبد العزيز المقالح [1] .

● وهذا موطن إجماع على مدار الزمن ، إلاّ في زمن العجائب هذا ، فهو [2] :

الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ
إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُهْ
زلّتْ به إلى الحضيضِ قَدَمُهْ
يُريدُ أن يُعْرِبَه فيُعْجِمُهْ
والشعرُ لا يَستطيعُه مَن يَظلِمُهْ

● ولا مجال للاستغراب ، إذ المصيبة عامّة ، فإن هذا العلم النحوي واللغوي المهم قد يُحرم منه داعية قديم يحمل علمَه برهانٌ ومنطق ، كالذي أعاني منه فإن جمهور الدعاة يستقبل أسلوبي بترحاب ، مع أن مُكنتي النحوية يطرأ عليها لحن ، ربما ، وثروتي اللغوية يشوبها خلل ، وصرت مثل "القُتَيْبي" الذي قال فيه أبو منصور الثعالبي : (كان القُتَيبي ذا بيان عَذْبٍ وقد نحِسَ حظُّه من النحو ومعرفة مقاييسه .) [3] .

وما ينبغي أن يكون مَن يروم تحريك الحياة مثلي ومثل القتيبي .

● **وفي قصة "الدرس الأخير" الفرنسية موعظة بليغة تبين مقدار العاطفة العظيمة التي يؤجّجها شعور الانتماء إلى لغة ، وأن اللغة من مكونات الشخصية ، وأن المضياع لها سيندم حين يتعرض لموقف فاصلٍ حاسم** . وخلاصة القصة أن ألمانيا بعد حرب السبعين وانتصارها على فرنسا في القرن التاسع عشر ونجاحها في ضم إقليمي "الالزاس واللورين" إليها : منعت تداول اللغة الفرنسية في مدارس الإقليمين وضربت موعداً لبدء تدريس الألمانية ولآخر درسٍ لتعليم الفرنسية ، وبدأ الأستاذ في الدرس الأخير يقرر "اسم المفعول" ، فينتبه في تلك اللحظة فقط تلميذ كان قد أعرض عن دروس النحو السابقة وجهل ما قبل ذلك من أطوار الفعل والفاعل ، وأصبح يتأسف ، ولات حين مندم ، ومضت الحادثة تأديباً لكل كسلان .

---

(١) مجلة العربي عدد ٥٧٠ مايو / ٢٠٠٦ .

(٢) (٣) لسان العرب ١/ ٦٦٠ ، ٢/ ٧٢ .

□ جوامع الكلم ... قاطعة .!

□ هذا يُظهر بالمقابل قيمة التركيز وتكثيف المعاني ووضعها في إطارٍ جامعٍ فخم يلتزم الأصالة ، مما يُسمي " جوامع الكلم " في عُرف البلاغيين ، فإن الطاقة المحشورة داخل الكتلة البيانية الصغيرة من شأنها توليد أكبر التأثيرات .

● ولذلك قال النبي ﷺ : (أوتيتُ مفاتيح الكَلِم . وفي رواية : مفاتِح . هما جمع مفتاح ومفتَح ، وهما في الأصل مما يُتوصَّل به إلى استخراج المُغلقات التي يتعذر الوصول إليها ، فأخبر أنه أوتي مفاتيح الكلام ، وهو ما يسَّرَ الله له من البلاغة والفصاحة ، والوصول إلى غوامض المعاني وبدائع الحِكَم ومحاسن العبارات ، والألفاظ التي أغلقت على غيره وتعذرت عليهم ، ومن كان في يده مفاتيح شيء مخزون : سهل عليه الوصول إليه .)[1] .

● وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

(عجبتُ لمن لا حَنَ الناسَ كيف لا يَعرِف جوامع الكلم .

معناه : كيف لا يقتصر على الإيجاز ويترك الفُضول من الكلام .)[2] .

وليس ذلك من توابع زهد عمر فقط ، وإنما الحرص على جوامع الكلم وحصر المتكلم لكبار المعاني في ألفاظ قصيرة إنما هو المذهب الذي تركن إليه النفوس النبيلة والقيادية ، وبخاصة عند الملمات والحوار الفاصل ، ومِن ثَمَّ كانت البلاغة من محركات الحياة ، وفي هذا ما يوجب على مناهج التربية أن تعلّم المقدرة الوصفية التي تجمع بين الدقة والإيجاز .

● فيتبين من ذلك : أن مهارة اللسان في التصرف بالكلام : آلة من آلات تحريك الحياة ، نرى أثرها عند الحوار الفكري ، والجدال ، والمفاوضة ، حتى يُسمَّى الماهر في ذلك : " الصَّيْرفي " ، وهو (المحتال المتقلّب في أموره المتصرف في

(١) (٢) لسان العرب ٢/ ١٠٤٤ ، ١/ ٤٩٨ .

الأمور المجرب لها . وقال سُويد بن أبي كاهل البشكري :

ولـــــــساناً صَـــــــيْرفياً صـــــــارما

كحُسام السيف : ما مَسَّ : قَطَعْ .)[1]

● مع إن اللغة العربية قد تطورت أساليبها في القرنين الماضيين تطوراً عظيماً وانتقلت نحو السهولة والوضوح وتخلّصت من كثير من طرائقها الصعبة في التعبير والبيان ، مما جعلها متاحة لعامة الناس ، وكان عدد من اللغويين والأدباء والشعراء في كل قطر قد شارك في هذا التجديد ، ونجحوا في تعميم الاسترسال في المعاني ، واشتقاق الكلمات المناسبة للمدنية الحديثة ، وانتقاء ألفاظ دون ألفاظ ، مع بعث المخطوطات الكثيرة ونشرها مطبوعة محققة مصححة ، حتى أصبح التعبير السليم شائعاً ، وإتقان الفصاحة متاحاً بقليل من الجهد ومطالعة موسوعات الأدب العربي ، ثم جنت وسائل الإعلام جنايتها ، ولذلك فإن أية خطة دعوية للارتقاء بمستوى لغة الدعاة لا تستدعي رجعة إلى عصر الأصمعي وسيبويه ، وإنما إلى رحابة الأدب العربي الحديث فقط ، والذي انتشر قبل التخليط المعاصر .

● والداعية المسلم إنما تدفعه حماسة إلى هذا الإتقان هي أضعاف ما تدفع البعيد عن الأحاسيس الدعوية ، بسبب ما يجده من الارتباط الفعال بين اللغة العربية والقرآن والحديث والفقه كنصوص ووثائق لا يمكن إتقان فهمها والاستنباط منها من دون مهارة لغوية ، فاللغة العربية هي " الاختيار الرباني " الذي اختاره الله كشكل وقالب وبناء لمضمون التوحيد ودقائق الشرع ، ولذلك فإنها محاطة بالعناية الإلهية ، وأريد لها أن تكون سليمة وصافية وأن تستمر أصالتها ، فهي قَدَرَ من أقدار الله الخيرية ، واصطفاء وخُطة ومحضن تمت صناعته ليحتضن الإسلام ، ولذلك لا يسع الداعية المسلم غير إتقان اللغة العربية ، ليكتمل ذوقه الفقهي ، ولتتجلى في قلبه آفاق التوحيد ، ومهما صفت نفسه الصفاء الأوفى فإنها تظل محتاجة إلى رحابة لغوية تمنحها مُكنة الإفصاح عن الخلجات القلبية والمشاعر الروحية التي تستنبطها من ثنايا

---

(١) لسان العرب ٢/ ٤٣٢ .

النصوص الدينية التي هي عربية محضة في أصلها .

● وهذه ليست حماسة من عربي يمكن أن يزعم أعجمي حماسة تساويها لنصر لغته ، بل هي حديثٌ علمي واقعي ، فإن كل اللغات لها تاريخ تطور متدرج واضح يعرفه فلاسفة اللغة ، الآ اللغة العربية ، فقد نسبوها إلى فصيلة اللغات الساميّة ، غير أن تحديد اصلها عسير ، وحلقات تطورها غير واضحة ، وإنما أقدم النصوص عن زمنها الجاهلي ترقى إلى أقل من قرنين قبل بعثة النبي ﷺ ، وولدت **وهي ناضجة في صورة الشعر الجاهلي والمعلقات ، من دون معرفة حالها في طفولتها ، وكأن القَدَر ارادها أن تستقبل القرآن .**

هذا ليس قولنا ، بل قول فقهاء اللغة العربية ، وفي كتاب "مدخل إلى فقه اللغة العربية" للدكتور أحمد محمد قدور ، الأستاذ بجامعة حلب : تفصيل لهذه الظاهرة الغريبة التي حيّرت الباب غير المؤمنين ، وهي ظاهرة عادية سهلة التأويل عند المؤمنين بالله وبالقَدَر وبالإسلام ، ولأن النبي الذي يختم النبوات ، ﷺ : كان مقدراً له أن يكون قرشياً : فإن (قريشاً اصطفت الخصائص الحسنة من كلام العرب وضمّتها إلى خصائصها حتى صارت جزءاً منها .)[1] .

يقول د. قدور : (أما العربية الباقية : فهي اللغة العربية الفصحى التي سادت في وسط الجزيرة وأطرافها في زمن لم يُعرف بالتحديد ، لأن العلماء لم يعثروا على آثار كافية توضح حالتها الأولى ، ونتيجة لعدم كفاية ما نعرف عن طفولة العربية عموماً : يجد الدارس نفسه أمام الشعر الجاهلي الذي لا تبتعد نصوصه أكثر من قرنين قبل البعثة ، وكأن لغة ارتُجلت فجاة ، فالنصوص الشعرية المنسوبة إلى الجاهلية تقدم لنا العربية ناضجة لا أثر للبدايات الأولى فيها ، كما أن هذه النصوص تقدم لنا الفن الشعري مكتملاً لا أثر فيه للمراحل التي قطعها من قبل ، فالمشكلة هي ضياع طفولتين معاً ، طفولة العربية ، وطفولة الشعر الجاهلي .)[2] .

---

(١) (٢) مدخل إلى فقه اللغة العربية / ١١٧ / ٧٥ تاليف د. احمد محمد قدور، نشر دار الفكر بدمشق وبيروت.

أما الذي يحرص على الاحتكام إلى المنهجية الجامعية العُرفية فيعتصم بلفظ "كأنّ"، وكأن من العيب أن تجهر بوجود حكمة ربانية تصطفي للبشر اللغة كمثل اصطفاء الدين والرزق وأنواع الأقدار الخيرية. وأما أنا ومن معي ممن يؤمنون بنظريات تحريك الحياة: فنؤمن بأن اللغة العربية كانت قَدَراً ربانياً خيرياً اصطنعه الله ليلبسه الإسلام، ولغة هذا شأنها لَحَري ان يتواصى الدعاة بتعلمها إلى درجة الإتقان، وان يكون تفوقهم فيها تفوقاً استراتيجياً على فرقاء الساحة من أهل اللحن والركاكة ..!

□ شواهد من براعة الاشتقاق

□ ومن القرائن على ذلك: لطافة التخريجات والاشتقاقات التي زخرت بها العربية ومنحتها جمالاً ودِقة وطلاوة لفظ.

● فمن أغرب التخريجات اللغوية التي لا نفطن لها: أن لفظ "الميناء" الذي ترفأ إليه السفن مشتق من "الونا" الذي هو الفتور في الأعمال والأمور، وطلب الراحة بعد الشعور بالضعف والإعياء. قال الجوهري (وهو مِفْعال من الونى)[1] ومنه قولنا: توانى، أي تأخر عن ضعف وكَلال، وهو يفعل كذا بلا توانٍ، ومن ذلك قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تفترا، فنحن نعلم أصل الفعل ولا نعلم اشتقاق الميناء منه.

وللداعية أن يقتبس على هذا النمط، فيشتق للتنظيم وظيفة "الميناء" التربوي النفسي مثلاً، وهو لجوء الدعاة إليه وشعورهم بالأمن والتعويض عما يفتقدونه عند الاختلاط بالعامة، وأن يشتق للوظيفة القيادية اصطلاح "الميناء" بما فيها من هيمنة وحُكم وسيطرة تجعل القلق ساكنا، ويستطرد فيشتق للعملية "الإبداعية" التعليمية وصف "الميناء" الذي يريح العقول بعد الإعياء من أجل تجديد الإنتاج والتفكر وتحريك العقل، وكذلك للشعر، فإنه مُتعة ذوقية بلاغية تزيح عن عقل المتأدب وعناء الأداء المادي والحساب والتنافس، وتوجّهه لينطلق في درب التحليق النفسي وتصديق الرمزيات، فيتجدّد له

---

(١) لسان العرب ٣/ ٩٩٠ ويُكتب بالمقصورة والممدودة.

إيمان ، مثلما تنبعث له هِمّة ، والقياس يذهب إلى أبعد من ذلك ، لتكون لك من كل ذلك قناعة بأن فقه اللغة محرّك لأعماق الأنفُس والعقول ، وهذا التحريك هو المقدمة الضرورية لتحريك الحياة ، وإن لم توضع هذه الاشتقاقات اللغوية في أسلوب الكتابة فعلى الأقل أنها تسيطر على خواطر المفكر وأحاسيسه ، فتؤثر فيه إيجاباً ، وبذلك نكتشف أن "مُكنة الاشتقاق اللغوي" هي أداة في الصناعتين التربوية والسياسية تنقل صاحبها إلى زيادة تسلّط عبر خلجات النفس .

● وفي كلام الله تعالى توسّعٌ في استثمار مُكنة الاشتقاق اللغوي من أجل استفزاز أحاسيس الناس .

فلكلمة "التوراة" اشتقاق عربي لا يدريه الناس ، فإنها (من وَرَى الزنادُ ، إذا ظهرت نارُه)[1] .

وفي ذلك إما نورٌ ، يليق بوصف كلمات الله ، أو نارٌ هي إلى التذكير بمعنى الجهاد أقرب ، وتلك هي خصائص إسلامنا ، فإنه ضياء تزيده وهجاً ومضات السيوف ، وهو معنى له قيمة كبيرة استطاع الاشتقاق إيجازه في لفظ صغير .

وكذلك كلمة "الإنجيل" فإنها (من نجَلَ : إذا ظهر ولدُه ، أو من ظهور الماء من الأرض ، فهو مستخرج إما من اللوح المحفوظ ، وإما من التوراة ، و(استنجلت الأرض ، وبها نجالٌ : إذا خرج منها الماء . والنجْل أيضاً : الولد والنسل . قاله الخليل وغيره .)[2] .

فكأن الإنجيل استنباط متفرع من أصل التوراة ، وينتسب إليها ، وتلك طريقة ربانية في إثارة معنى الاستنباط الاجتهادي الفقهي من نص عتيد ، وتوجيه للمسلم أن يُجدد ويميل إلى التوليد والتفريع ، مع بقاء النسب الأصيل ، والحفاظ على السمت الأول الصافي ، وذلك شأن الإبداع المحتاط ، يُعلّمه الله لعباده ، ولمن ينزل إلى مكامن العلم منهم ويغوص إلى أعماقها على هذه الطريقة اللغوية .

---

(١) (٢) تفسير ابن عطية ٣/ ١٢ / ١١ .

قال ابن عطية : (والتوراة والإنجيل اسمان اصلهما عبراني ، لكن النحاة وأهل اللسان حملوهما على الاشتقاق العربي ، فقالوا في التوراة : إنها من ورى الزند ، يري : إذا قدح وظهرت ناره . يقال : اوريته فوري . ومنه قوله تعالى : ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ﴾ .) (وتوراة عند الخليل وسيبويه وسائر البصريين : فوعلة ، كحوقلة : أصلها وَوْرَيَة ، قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في تولج ، وأصله وولج ، من ولجت . وحكى الزجاج عن بعض الكوفيين أن توراة أصلها تفعَلة ، بفتح العين) . (وإنما ينبغي أن تكون من اوريت) (فهي : تورية) (ورجح أبو علي قول البصريين وضعّف غيره .)[1] .

فهذا المنحى هو مقصد رباني في استعمال خاصية الجمال المعنوي في بعض التراكيب اللغوية ، كان الله يريد تنبيهنا إليه ، لنقتدي ونميل إلى البلاغة .

● وكذلك الإيماء إلى الفرق بين العباد ، والعبيد .

قال ابن عطية : (والذي استقريتُ في لفظة " العباد " : أنه جمع " عبد " متى سيقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة ، دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشان ، وانظر قوله تعالى : " ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ " و " ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ " " ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ " وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله " ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ " فنوّه بهم) .

(وأما العبيد فيستعمل في تحقير) (ومنه قول الله تعالى " ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ " ، لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلّة انتصارهم ومقدرتهم .) .

قال (فهذا النوع من النظر يسلك به سُبل العجائب في ميز فصاحة القرآن العزيز ، على الطريقة العربية السليمة .)[2] .

● لكننا ان انتقلنا إلى دائرة المعاني القبيحة ، والترهيب : فإن اللغة العربية تجنح عن الطلاوة والجمال إلى أيبس الألفاظ وأقساها ، كما قال التابعي ميمون بن مهران لما

---

(١) (٢) تفسير ابن عطية ٣/ ٩ ، ١٨٧.

سمع آية ﴿ وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ : (ما سمع الخلائق بنعت قط أشد منه .)[1]

وفي اللغة : الشرز والشرس : بمعنى واحد ، من الشراسة ، والشرز بخاصة مَن يُعذب الناس بعذاب شديد ، وكل ذلك من يابس الحروف وغليظها ، إذ حروف الحرية رقراقة .

● وكذلك (أزّ وهزّ ، فالهمزة أخت الهاء في المخرج الحلقي ، فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين .

ومنه العسف والأسف ، أي الظلم ، فالهمزة أقوى من العين ، لذلك قالوا أسف ، وهو أقوى من العسف .)[2] .

● وفي هذا السياق يورد البلاغيون طبائع في التعبير العربي فيها تصرف لغوي فيه خروج عن المألوف والظاهر من أجل تحصيل مقصد معين .

من ذلك قوله الله تعالى لمحمد ﷺ في المحاججة مع بني إسرائيل : ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ البقرة / ٩١ .

فقد (جاء " تقتلون " بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله " من قبل " ، وإذا لم يُشكِل فجائز سَوقُ الماضي بمعنى المستقبل ، وسَوق المستقبل بمعنى الماضي . قال الحُطيئة :

شَهِدَ الحُطَيئةُ يومَ يلقى رَبَّهُ أن الوليدَ أحقُّ بالعُذرِ

وفائدة سَوق الماضي في موضع المستقبل : الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع ، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي : الإعلام بأن الأمر مستمر . ألا ترى حاضري محمد ﷺ لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء ؟)[3] .

● ومن ذلك : نداء الجمادات وما لا يعقل إذا كان الأمر عظيماً ، كقوله تعالى

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٣٣١ .

(٢) مدخل إلى فقه اللغة العربية / ١٩٩ .

(٣) تفسير ابن عطية ١/ ٣٩٥ .

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ الأنعام / ٣١ .

قال ابن عطية : (ونداء الحسرة : على تعظيم الأمر وتشنيعه . قال سيبويه : وكأن الذي ينادي الحسرة أو العَجَب أو السرور أو الويل يقول : اقربي أو احضري فهذا وقتُكِ وزمنكِ ، وذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثمَّ سامع ، وهذا التعظيم على النفس والسامع هو المقصود بنداء الجمادات ، كقولك : يا دار ، ويا ربْع ، وفي نداء ما لا يعقل ، كقولهم : يا جمَل ، ونحو هذا .)[1] .

❑ القيم التعبيرية لحروف اللغة العربية

❑ لكن أعجب ما هنالك : مقامات الحروف ودلالاتها الذاتية .

ففي لسان العرب عن التهذيب للأزهري :

(والعين والقاف لا تدخلان على بناء* إلاّ حسَّنتاه ، لأنهما أطلق الحروف . أما العين : فأنصع الحروف جرسا ، وألذها سماعا . وأما القاف فأمتن الحروف وأصحها جرساً . فإذا كانتا ، أو إحداهما ، في بناءٍ : حَسُن ، لنصاعتهما .)[2] .

ولو كنت أعلم ذلك حين اخترت اسم " العين " لمجلتنا لوضعته في الديباجة العينية المعروفة التي غدت بالتقادم كأنها قصيدة ، وفي الكلام تفسير لمكانة القافات في منح المنطلق والرقائق أقيامهما الاستثنائية ، وشهادة لهما بالمتانة والصحة ، فانظر هذه النبضة الخافتة في " الحركة الحيوية " : كيف جعلها الرصد والتحليل الذي يقدمهما فقه اللغة إعلاناً جهيراً ، وهزةً خافقة ، وتأثيراً متكرراً تتجمع أجزاؤه الصغيرة مع استرسال الكلام نطقاً أو تدويناً ، لتكون بعد لأيٍ زخماً فيه تغيير وتتولد منه نفضة !!

---

(١) تفسير ابن عطية ٥/ ١٧٦ .

* أي بناء لغوي .

(٢) لسان العرب ٣/ ٣ .

وهذا باب خفي من حركة الحياة ، بل منجم ثري ، لو لعب رائد السيطرة لعبته فيه بإتقان لاستوى إذ هو ساكن بَعدُ لم يمد قدماً أو يرفع يدا ، وتنقل له "العيون" الفصيحة عرش التمكين بأسرع من نقلة صاحب بلقيس لها ، ولكنّ دعاة الإسلام لا يعلمون أن البلاغة تفتح لهم الفتوح وهم جلوس .!

● وهناك قيمة تعبيرية لكل حرف .

من ذلك : أن الغين تدل على الاستتار والخفاء في المواد المعجمة الآتية :

غابَ ، غارَ ، غاض ، غام ، غمَدَ ، غمض ، غرض ، غرق .

وأن النون تدل على الظهور والبروز كما في المواد التالية :

نفَثَ ، نفخ ، نبت ، نبذ ، نزف ، نزع .

وأن القاف تدل على معنى الاصطدام أو الانفصال ، مقترناً بصوت شديد تصوره القاف بشدتها ، كما في الأمثلة التالية :

قطع ، قرع ، طَرق ، شَق ، عقَر .

فهل لنا أن نستنتج - كما يقول الأستاذ محمد المبارك - أن كلمة "غرق" مثلاً يحصل معناها من تلاقي معاني حروفها ، فالغين تدل على غيبة الجسم في الماء ، والراء تدل على التكرار والاستمرار في سقوطه ، والقاف تدل على اصطدام الجسم في قعر الماء [1] ؟

واسترسالاً مع الأقيسة : ألا يمكن أن تكون هناك بعض القِيم التعبيرية للحركات من ضمة وكسرة ؟ ذلك واضح في التشديد مثلاً .

● ومن سَعة اللغة العربية : كثرة أنواع الاستعمال لحروفها كأدوات معنوية وعوامل في تكوين الجُمَل ، وفي الإتيان بفروق دقيقة بين تكويناتها تتحول من خلال جمعها واستعمالها كلها إلى أنواع من البلاغيات والفصاحة تجعل الكلام متحركاً نابضاً ليس بالجامد على وتيرة واحدة مملة ، بل يكون فيه من التلاعب ووجوه التقليب ما يجعل الانعكاس النفسي في دواخل الصدور يرفع ويخفض ويهز أصحابها ، فتتعاطى مع

---

(١) مدخل إلى فقه اللغة العربية / ٢٠١ .

الحدث الموصوف بما يتناسب معه رفضاً وقبولاً ، وتتدخل في تطويره وإنمائه وإمداده بقوة ، أو إهماله أو كبته ومحاولة إيقافه ، وبهذا تكون التصرفات والإفصاح عن الفكر والموقف العقلي الذي يشارك في صناعتها ، ومعنى ذلك أن اللغة عامل مهم في تحريك الحياة ، ومقدار زخم التحريك الذي تسببه متعلق بمقدار إجادة فنونها وبلاغياتها ، وهي ليست في التأثير بأقل من آثار مراعاة قواعد المنطق وأصول الجدل ، بل أحياناً تصل إلى المرتبة التي تجعلها أهم من الموضوع وإن كانت وسيلة ، وذلك في حالات الصياغة البليغة ونظم المعنى شعراً ، واللغات كلها فيها هذه الظاهرة وإن كانت هي في العربية أظهر ، ومما لاحظه النقاد السياسيون أن " أوباما " كان أفصح وأعلى لغة من "هيلاري كلنتون" ، وأن الكثير من مؤيديه تبهرهم بلاغته .

● فحرف " الياء " مثلاً له ألقاب كثيرة واستعمالات عديدة يسردها ابن منظور في لسان العرب [١] ، منها :

ياء التأنيث ، في مثل تضربين ، وفي الأسماء ياء عَطشى ، فيقال عند التثنية : هما عطشيان . وياء التثنية ، كقولك : رأيت الزيدَين . ومنها ياء الإشباع في المصادر ، كقولك : ضاربته ضِيراباً . ومنها ياء مِسكين : أرادوا بناء مِفعِل فأشبعوا بالياء . ومنها الياء المحولة ، مثل ياء الميزان ، وهي واو في الأصل فقلبت ياء لكسرة ما قبلها . ومنها ياء النداء ، كقولك : يا زيد . ومنها ياء الهمزة ، كقولهم في جمع الخطيئة : خطايا ، وفي جمع المرآة : مرايا : اجتمعت لهم همزتان فكتبوهما فجعلوا إحداهما ألفا . ومنها ياء التصغير ، مثل : عُمير ، والبحث يستطرد فيذكر الكثير من أنواع الياء الأخرى .

● وانظر سعة " أنّى " ، فإنها كما يقول ابن عطية : (إنما تجيء سؤالاً أو إخباراً عن أمرٍ له جهات ، فهي أعمّ في اللغة من " كيف " ومن " أين " ، ومن " متى " . هذا هو الاستعمال العربي .) .

قال المحققون لتفسيره :

(أي أنها تأتي لهذه المعاني الثلاثة ، فتكون ظرفاً مكانياً بمعنى " أين " ، نحو " يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ

---

(١) لسان العرب ٣/ ١٠٠٠ .

لَتَبِ هَذَا ؟ وظرفاً زمانياً بمعنى متى ، نحو : أنى جئت ، أي متى جئت . واستفهامي بمعنى كيف ، نحو أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ، أي : كيف ؟ .)[1] .

● وفي العطف بـ ثم في الآية الكريمة أول الأنعام : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ دلالة أكبر من دلالة العطف بالواو .

قال ابن عطية : (قوله تعالى ثم دالة على قُبح فعل الذين كفروا ، لأنَّ المعنى أن خَلْقَه السموات والأرض وغيرهما قد تقرّر ، وآياته قد سطعت ، وإنعامه بذلك قد تبيّن ، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم . فهذا كما تقول : يا فلان أعطيتك وأكرمتك وأحسنتُ إليك ، ثم تشتمني ؟ أي : بعد مهلة من وقوع هذا كله ، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو : لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ ثُمَّ .) .

والأمر كذلك في الآية التي بعدها وقوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ .

(فقوله : ثم أنتم على نحو قوله : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون في التوبيخ على سوء الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج .)[2] .

● وكلمة دون لها تسعة معان يورد ابن منظور[3] شواهدها .

☐ اللغات كائنات حيّة .. لذلك نأذن للعربية أن تتطور

☐ لكن الثراء والتنوع والسعة لا يعني أبداً أن تجمد اللغة العربية وتزعم الكمال ، بل لا بد من قبول مبدأ التطور في المفردات أو الأساليب التعبيرية وإبداء بعض المرونة في الالتزام النحوي إذا دعت الضرورة .

---

(١) (٢) تفسير ابن عطية ٢/ ٢٥٦ ، ٥/ ١٢٢ / ١٢٥ .

(٣) لسان العرب ٣/ ١٠٠٠ .

● إن عالم اللغة السويسري "سوسّور" ١٨٥٧-١٩١٣ يذهب إلى أن (اللغة يجب أن تُعتبر ظاهرة اجتماعية .)[١] .

وتفسير ذلك عندي أنها تنمو ، وأنها تلبي حاجة واقعية ، وأن البيئة تؤثر فيها ، وأن الانعكاسات النفسية تؤثر في صياغتها .

ويذهب الفيلسوف اللغوي الأميركي المعاصر "جومسكي" إلى أن الوعي السياسي والوعي الفكري إنما يستندان إلى الوعي اللغوي ، وهذا ليس بقول عابر ، بل قائله هو إمام في السياسة ، ومن أعلامها ، ودراساته تذهب إلى مدى بعيد في الاستقصاء والتدقيق وتستند إلى قاعدة معلومات عريضة .

وقد أصبح واضحاً أن منهجيتنا في فهم حركة الحياة تعتمد قضية التحليل اللغوي ومعرفة أهمية اللغة في الفكر والثقافة المعرفية والسياسة والفلسفة ، وهي في ذلك تساير ما يجري عند جمهرة المنطقيين الذي يرصدون أدق مذاهب المعاني والفروق . وقد أوضح الألماني رايشنباخ ت١٩٥٣ (أن التأثر بأشياء العالم الخارجي ، من خلال الحواس ، يُحدث أنواعاً من ردود الأفعال ، أهمها : رد الفعل اللغوي ، أي تكوين نَسَق من العلامات تخضع لنظام من القواعد ، وتعبّر عن المضمون المعرفي للغة ، إذ تتجمع العلامات "الرموز - الكلمات" لتولد عبارات ، فإذا كانت هذه العبارات مُناظِرة لحالات واقعية فعلية : فهي عبارات صحيحة .)[٢] .

والذي جرى من هذه الأحداث خلال القرنين الأخيرين كثير وعنيف ، وجاء في وقت كثفت فيه العلاقات بين الأمم وزالت الحواجز ، مع توفير الاختراعات لعوامل السرعة وسعة رقعة التأثير لتشمل العالم كله بلا استثناء ، فتطورت جميع اللغات ، حتى اللغة العربية دخل عليها من التطوير الكثير ، بتأثير الترجمات وظاهرة الخطأ الذي يشيع من خلال الاستعمال ويفرض نفسه ، ولذلك لا معنى لمعارضة من يعارض النمو اللغوي ، ولذلك استحسن أن يدخل بعض الدعاة على الخط ، وأن يقترحوا المواد

---

(١) موسوعة المورد ٨/ ٢١٦ .

(٢) الموسوعة العربية ٩/ ٧٦١ .

التطويرية والمفردات والتعابير ، ليضمنوا وتيرة فهم القرآن وثروة الفقه الإسلامي من قبل أجيال المستقبل التي بدأت تنصت لأفكار كل الأمم ولغاتها من خلال الفضائيات ، ولئلا يكون نتاج الفكر الإسلامي المعاصر غريباً عسر الفهم على العرب أنفسهم ، مع أن القضية أوسع من مجرد التطوير ، وان منهجية تدريس اللغة العربية يجب أن تتطور أيضاً ، مع مراقبة اللغة الإعلامية التي باتت أكثر وسائل تعليم اللغة نفوذاً عبر التأثير المتدرج على مدى طويل غير محسوس به ، وليس أقل في هذا الباب من وجوب امتياز وسائل الإعلام الإسلامية بنقاء اللغة من خلال الرقابة الذاتية ، مع التزام منهجية في التطوير اللغوي تضعها نخبة من علماء العربية الدعاة ، وكل ذلك يلزمه اجتهاد وإبداع ، وبدونه نبقى في دائرة التقليد لغيرنا الذين لا يبالون بمستقبل العربية ، ولا بقضية استمرار وتيرة فهم الفكر الإسلامي وكتلته الثقيلة الموجودة التي قد يعافها من تتبدل لغته إلى غثاء مستعار من لغات الأمم وهو لا يشعر ، والمظنون أن الجامعات والمجامع العلمية ووزارات التربية لا تزال على الأصالة ، وتشعر بما يشعر به الدعاة ، والتقاء الجهود ممكن ، والتعاون يختصر الجهود ويخدمنا ، ولولا أن وزارات الإعلام تغلب عليها الأهواء السياسية ، ويغلب على موظفيها التساهل والاستغراب وغموض الهوية : لقلنا بالتعاون معها أيضاً .

● والمفروض أن تستند عملية التطوير إلى عمليتي التحليل والتركيب في المنطق ، وهما عمليتان عقليتان ، والمراد منهما التفكيك العقلي لكلٍ ما إلى أجزائه المكونة أو عناصره أو أسبابه وشروطه ، وإعادة تكوين الكل من أجزائه ، فالتحليل عكس التركيب . وللتحليل والتركيب أثر مهم في عملية المعرفة ، والتركيب يكمل التحليل .

وصار التحليل تياراً فلسفياً قائماً بذاته مع فلسفة التحليل المعاصر ، التي أكدت ضرورة التحليل اللغوي ، أي تحليل الوحدات اللغوية ، وكيفية تناول اللغة ، ومعاني الكلمات ، وكيفية تطور اللغة .

إن جميع المذاهب في التحليل المعاصر قد اقتبست من " رسل " ، ولمنهجه في التحليل وجهان : فلسفي ورياضي . نصل لأولهما إما بتحليل التجربة وإما بتحليل اللغة ، أما

الثاني فبتحليل المفهومات والتصورات الرياضية وردها لمفهومات منطقية، وتقوم نظريته على ثنائية العقل والمادة، أو الكليات والأحاديات، والتحليل هو اكتشاف الكل المعقد، والعلاقات بينهما، حتى ليمكن تسميته بتفكير في شكل علاقات، وقد طور "رسل" نظريته تحت عنوان "الذرية المنطقية".

وذهب "رايل" في اكسفورد إلى أن الفلسفة نشاط هدفه رفع الخلط وسوء الفهم في التصورات التي نستخدمها في تعبيراتنا اللغوية، وأن النهج السليم لدرء هذا الخلط يكون بتحليل عباراتنا.

كما يذهب "كارناب" إلى أن الفلسفة هي التحليل المنطقي لمفهومات العلم ونظرياته، وهذا يستلزم تحليل اللغة من حيث هي رموز لبناء الكلام المعرفي وفق علم دلالات الألفاظ المنطقية وتطورها.

وجميع هذا الكلام في هذه الفقرات عن التحليل مقتبس من الموسوعة العربية [1].

● **لكني أذهب مذهباً آخر في ذلك، فإن هذا الكلام يصدق على اللغات الأخرى، أما العربية فإنها مؤيدة بلغة الوحي القرآنية التي قدّر الله لها الحفظ عبر القرون، والله تعالى حكيم عليم، وقد جاءت كلماته مُحكمة تامة منضبطة المعنى، ودلالات ألفاظه معصومة من الخلط والخطأ، ولا يتولد منها التباس، وقد سَرَت هذه الظاهرة القرآنية إلى عموم أقوال النبي ﷺ الصحيحة السَنَد، لأنه معصوم أيضاً وأوتي جوامع الكلِم، ثم سَرَت هذه الظاهرة أيضاً إلى عموم المباحث الفقهية والمنطقية الإسلامية، لالتزامها لغة القرآن في الأغلب، ولذلك لسنا بحاجة إلى تحليل فلسفي يرد لغتنا إلى صواب بعد التباس، ولربما يصدق ذلك على بعض لغتنا العربية المتطورة المعاصرة التي اقتبست من لغات الأمم، ويبقى التحليل مفيداً في هذا النطاق المحدود.**

● لكن نوايا الدعاة في محاولة ضبط تطوير العربية من خلال التزام التحليل والنمط الفلسفي في فهم دلالات الألفاظ: هو شرط جيد يمنح القلوب اطمئناناً كافياً ويرفع احتمالات الإغراب والشذوذ، ويمنع القلق الذي استولى في القرون القديمة على علماء

---

(١) الموسوعة العربية ٦/ ١٥٦.

اللغة فبلغوا درجة الوسوسة في الحرص على سلامة العربية ، وأنكروا الحاجة للتطوير ، وهي حالة نفسية محمودة مذمومة في آن واحد ، وصائبة خاطئة ، فنحن بحاجة إلى تطور اللغة في عصر التوسع العلمي المدني المعرفي المعاصر بخاصة ، وذلك هو مذهب إمام اللغويين العرب في القرن العشرين العلامة عبد الله العلايلي رحمه الله .

وقد أفصح عنه في مقدمته لطبعة لسان العرب اللبنانية ، فقال :

(اللغةُ ، ومنزلتُها في التصنيف الاجتماعي : انها مؤسسةٌ مرتبطةٌ ارتباطاً مباشراً بنشاط الإنسان : تتحرك بقانون الغاية لا السببيّة الصرف ، وخطاءُ فعل قُدامى اللغويين أنهم غلَبوا اللغةَ بقانون السببية الصرف ، واخضعوها لها في عَنَتٍ وقَسْر ، فانقلبت بناءَ فوقياً مُنقطعاً ، وانعزلت رأساً ، ووُضعت في المحل المتهافِتِ ، والموضع القَلِق .

وعلى أن المكتبةَ العربية حافلةٌ بالمعاجم : وَقَفَتْ في مضمار السعي الحضاريَ . ولَمّا تتكامل ، فإن انتَ مَددتَ يداً تختارُ من مكتبة المعاجم أيْ واحدٍ منها : راعك أخذ العربية بمَاخذٍ ضيّق ، تَبِعَتُهُ إنما تقع على كاهل اللغويين وحدَهم ، حين وقفوا موقفاً لا يحيد عن وَهْمٍ خاطئ ، ودَرسٍ غيرِ مستقيم .

فلا سبيل ، بعْدُ ، لمعجم جديد : إلاّ بالخروج على اعتماد شكلٍ من المحافظة قاسٍ ، وإلاّ بأخذ اعتبارات المدرسة القديمة على أنها اعتباراتٌ فقط ، لا على أنها اللغةُ نفسُها ، ضمن إطار قانونِ فعلها الثابت .) .

ورأى العلايلي خطأ ذاك الجيل من اللغويين ، الذين أركبونا مطيّة الغيظِ في البحث (مُحدثِينَ هَوةً بين اللغة وبين الناطقين بها ، حتى آلت اللغةُ إلى أداةِ إرغام ، تُعبّر العربُ عن وطأتها بتأفّفٍ مكظوم ، ثُمَّ بتحرّكٍ إنتفاضيٍ ثوري للخروج عليها .) .

وانتهى إلى (حاجةِ العصر إلى لُغةٍ تَسدُّ حاجةً عند حاضرٍ قائم ، ومُستقبلٍ ممدود .)

وأن فقه اللغة ، وكُتلة المعاجم هما (جسرُ الكلمةِ القائمُ بين ماضي اللغة بمفرداتها ، وبين حاضرها ومستقبلها بمجاراتِها الزمنَ ، زَمَنَ غزو القمر ، وإلحاح عبقرية العلم .) .

● إن اللغة تخدم الحركة الحيوية ، وتوفر للمتأمل فيها جانبها الوصفي ، وتظل صور الحياة تتجدد وتتوالد ، وتلبي اللغة مهمة التعريف بما يحصل ، ولذلك يجب أن تكون اللغة حيّة قابلة للتطور ، وذلك يحصل بصورة تلقائية حتى مع أعتى اللغات صلابة ، كمثل اللغة العربية فيما يظن فقهاؤها ، فإن الكثير من مفرداتها أسفرت البحوث عن أصول لها بابلية وآشورية ، كما رصد ذلك مدير دائرة الآثار العراقية طه باقر في كتابه القيّم الذي بيّن فيه هذه الكلمات ، وكلمات أخرى باقية في العامية العراقية ، وكان هذا الخبير من علماء اللغة المسمارية وتاريخ العراق القديم ، وبلغ عدد المفردات التي انتقلت إلى العربية من هذا المصدر أكثر من ثلاثمائة كلمة ساقها طه باقر كلها ، ومثالها : كلمة أنبوب ، اصلها في البابلية : أنبوبو . فإذا صح هذا عند نشأة اللغة العربية : فإنه يصح في زماننا هذا أيضاً .

وهذا الاعتراف باستعارة العربية من لغات أقدم منها لا يُنافي ما قلناه عن استقلاليتها وأنها في حالتها قبل البعثة النبوية كانت قَدَراً ربانياً وأنها كُلّفت باستقبال القرآن ، لأن تلك الاستعارات أغلبها في الأسماء ، ونحن نعني استقلال طرائقها التعبيرية البلاغية ، وقد قامت قريش بمهمة النخل والتمييز ، فقبلت ورفضت ، حتى استقامت حصيلة متجانسة مؤهلة للتعبير عن مقاصد العقيدة والشرع .

❑ ترسبات التفاعل مع الحياة تُطلق دفعات الإبداع تباعاً

❑ إن من ظواهر الحياة : التفاعل بين الإنسان والمحيط والأحداث الجارية ، ونصف هذا التفاعل يرجع إلى النفس ، فهي التي تقود صاحبها ، لكنها لا تملي على صاحبها شروطاً جاهزة تولدها عقائد وأفكار وقناعات قَبْلية دائماً ، بل ذلك بعض إملائها ، والبعض الآخر يستند إلى انعكاسات الظروف والبيئة ، وإلى التجارب الخاصة ، وإلى محاكمات داخلية على مدى الساعات يَمنح المرء فيها قيمة إيجابية أو سلبية لكل حَدَث يمر به ، ولكل قول يسمعه أو أمر من متسلط

يؤمر به ، أو تصرف من شخص آخر منافس ، مثل زميل في الدراسة أو تاجر أو صاحب مهنة مماثلة ، فتتراكم من كل ذلك حصيلة من المفاهيم والأفكار والأحكام التقويمية ، فإذا كان صاحبها ذكياً : يحصل إبداع في وصفها وتنظيمها وجعلها خُطة له في حياته ، وربما يبشر بها ويعرضها على الآخرين يدعوهم لمتابعته ، وقد يمر حين الوصف بمفاصل تضيق فيها اللغة ، فيبتكر ربما فيها لفظاً أو أسلوباً تعبيرياً .

إن ظاهرة تراكم المعاني التي تتفجر فجأة هو تفسير ارتجال الشعراء لبعض شعرهم ، كقول الشاعر أبي النجم :

والشعر يأتيني على اغتماضِ ... كرهاً وطوعاً وعلى اعتراضِ

ومعنى ذلك فيما شرحه الأصمعي : (أتاني ذلك على اغتماض : أي عفواً بلا تكلف ومشقة) (وأعترِضه اعتراضاً فآخذ منه حاجتي من غير أن أكون قدمتُ الروية فيه .) [1] .

ولا تولد سلاسل المعاني هذه فجأة بلا مقدمات ، ولكنها تراكمات في عقل الشاعر ونفسه ، فتنضج في كل مرحلة زمنية كتلة من المعاني الجديدة ، فيجعلها أنساقاً ، ويبدع في صياغتها نظماً .

● هذه الظاهرة الشعرية يوجَد لها مثيل عند الأديب الناثر ، والمفكر والناقد وكل قائد ، فإن الخواطر والانعكاسات النفسية للأحداث وطبائع المحيط تظل تتراكم عندهم حتى يكون هناك إبداع لغوي منهم أثناء وصفهم وتداولهم الفكري والأدبي ، وذلك هو الذي يوجب فسح المجال لهذا النوع من الإبداع اللغوي والبلاغي ، وذلك يعني التطور .

بمعنى أن الحياة ، في جانب منها ، هي سلسلة إبداعات لغوية ، سواء صيغت شعراً أو نثراً ، وتتوالى حتى تكون ظاهرة من ظواهر الحياة وتحريكها .

---

(١) لسان العرب ٢/ ١٠١٧ .

● وقد انتبه ابن عبد ربه الأندلسي إلى وجود هذه الظاهرة فقال :

(والشعر لا يفوتُ به أحد ، ولا يأتي به بديع : إلاّ أتى ما هو أبدع منه .)[1] .

وهذا ليس لأن الإبداع يتجزأ في وروده ، وربما كان ذلك وتأخر بعضه عن سابق ليكشفه لاحِق ، ولكن لأن الإبداع متعلق بالظرف والبيئة والحاجة ولهف الأنفس التي تعصرها أحداث متجددة ، فإذا وافق نظر عقلي صحيح تلك الحاجة الطارئة المتولدة من تبدل الظروف : تراكب المعنى مع الفراغ القائم واستوعب أحدهما الآخر وتجانسا ، كمثل دخول مِفصل في مِحور ، فتجد نفوس الذاهلين لذة ، بما اكتشفت من مخارج وخُطة سلوك ناجح في درب مِعوج ، فتكون بهجة النفس الحادثة هي الطريق لسكينتها ، فترجع تأثيرات المعادلات العقلية ، فتكون حركة الحياة طبيعية مرة أخرى بعد فترة اضطراب ، بما أوتيت النفس من ميزة سيطرة تفوقية على العمل العقلي ، وهذه ظاهرة مهمة من ظواهر الحياة قلّ من يفهمها ، وإيمان المسلم يعصم ابتداءً من الاهتزاز والذهول ، وهذا ما غفل عنه الفلاسفة .

● ولذلك قيل (والشعر عند شكري : تعبير عن النفس والطبيعة وأسرارهما .)[2] ، وهو الأديب المصري عبد الرحمن شكري ١٨٨٦-١٩٥٨ زميل العقاد والمازني ، وثالثهما في التعاطي الأدبي المشترك ، وشعره كثير ، ودواوينه ثمانية ، وكان مجدداً في الأساليب ، وأجاد الاقتباس من الأدب الفرنسي وغيره ، والملحظ هنا أنه جعل النفس منبع المعاني ، ومنها تفيض لتعرض نفسها منظومة ، وهي في تفاعلاتها الداخلية تقترف جزيئة إبداعية تطويرية ، تنضمّ إلى جزيئات أخرى حتى تكون ملمحاً جمالياً مميزاً يقبله السامعون والناظرون ، ويزداد عدد الذين يعترفون به مع الأيام ، فيتحول إلى حقيقة تطورية بالرغم من وجود متزمتين لا يقبلون التطور .

ولما عوتب عبد الله بن جعفر بن أبي طالب في إجزاله العطاء للشاعر الأسود نصيب بن رباح ، وقيل له : تفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود ؟ : قال : (أما

---

(١) العقد الفريد ٦/ ١٢١ .

(٢) الموسوعة العربية ١١/ ٧٣٦ .

والله لئن كان عبداً : إنّ شعره لحرّ ، وإن كان أسْوَدَ : إن ثناءه لأبيض .) [1] .

فانظر وصف الشعر بالحريّة ، وذلك يعني النقاء ، واحتواء الطموح وعوالي المشاعر والرغبة في كبت أسباب العبودية .

فهذه الأجزاء من أحاسيس الحرية تبقى تفور داخل النفس وتحتدم ، حتى يؤذن للحر في ساعة معينة أن يصرخ بها وينادي ، فإن استطاع أن يصوغها في نسق إبداعي تكون إضافته تطويرية ، إذ أنها تنزل إلى الميدان على السجية ، من دون تكلف ، ولكن لأنها " حرية " فإنها تتطلب " حراً " يميزها ويحتفل بها ، وليس أعمَر من دار الدعوة الإسلامية بالأحرار ، ولذلك يكثر في ناديهم الإبداع ، وينضبط التطور .

وأساس هذه المكنة الدعوية أن الدعاة يؤمنون بدين وشرع أصبح واسع البسط من خلال الكتلة الفقهية القياسية الشارحة لإجمال القرآن ، ومن خلال طول التعامل معها أوجدت تنظيماً داخل النفس للمعاني وأحيازاً ومساحات تصنيفية . فكل ما يطرأ بعد ذلك وافداً من المعاني الجديدة ينصرف إلى مكانه اللائق من تلك المساحات ، فتستوعب النفس قيمته النسبية بسرعة .

☐ أصالة البنيوية الإيمانية تكشف جمال أجزاء الثريا

☐ ومعنى ذلك : أن النفس المؤمنة لا تقف عند حد التعامل مع المفردات اللغوية والمعنوية ، بل لها تعامل يميز مواقعها وعلاقاتها ، وذلك يؤدي إلى تمييز " قيمة مضافة " للمفردات حين تنتظم في أنساق ، وذلك هو الذي انتبه له الجرجاني منذ القديم وتوصلت له نظريات النقد الأدبي الغربية وسمّته " البنيوية " .

● إن نظرية حركة الحياة تلتقي مع مذهب " البُنيوية " في الأدب والمعرفة ملاقاة مباشرة ، وهو (تيار فكري انبثق في أوربة في بداية القرن العشرين ، وبلغ أوج ازدهاره في ستينات القرن العشرين ، وشمل العلوم والفنون والآداب واللغة .

---

(١) العقد الفريد ٦/ ١٤٣ .

وأساس هذا التيار نظرية مفادها : أن العالم لا يتألف من عناصر أو وحدات ذات وجود مستقل أو منفرد ، وإنما من وحدات توجد ضمن بُنية أو نسق عام يضبط علاقاتها المتبادلة لتكتسب معنى وقيمة إضافة إلى خاصيتها الفردية ، وتفقد هذه الوحدات معانيها وأهميتها خارج إطار هذا النسق أو البنية .

ولا يبحث البنيويون في خصائص الوحدات والأجزاء أو محتواها ، وإنما في علاقة الأجزاء فيما بينها بقصد الكشف عن وحدة العمل الكلية أو النسق .

وتعتمد هذه النظرية التي طبقت في جميع المجالات ، وخاصة في العلوم الإنسانية والفيزيائية ، على ثلاث مقولات رئيسية هي : الكُليّة ، والتحول ، والضبط الذاتي .

والكُلية نظام شامل من العلاقات المتبادلة بين جميع الوحدات التي تنتمي إليه ، وتستمد منه معناها وقيمتها . فاللغة بُنية كُلية ، أو نسق من العلاقات الدلالية والصرفية والنحوية يحدّد معاني الكلمات ووظائفها .

أما التحول فهو نظام تتمتع به البُنية ، على ثباتها ، ليساعد في إيجاد معاني وتركيبات متجددة دائماً ، لكن ضمن قواعدها الثابتة والضبط الذاتي لكل وحدة فيها .)[1] .

وانا أرى أن مثل ذلك يحصل من خلال القياس والاشتقاق الذي صار محور تطوير اللغة من خلال انضباطه .

والمهم : أن نظرية حركة الحياة إنما هي تأكيد لهذا الفهم البنيوي ، واستفادة منه ، ولكنها تخالفه في أنها تبحث في خصائص الوحدات والأجزاء ، وترى أن دلائل نافعة كثيرة تكمن في جوف هذه الأجزاء تهبنا إشارات تخطيطية وتقدم لنا السبب التعليلي الكامن وراء طبيعة تلك العلاقات بين الأجزاء ، ويكون ذلك بخاصة حين نبحث الدواخل النفسية والانطباعات ومجرى الأعمال العاطفية والاعتقادية والتصورات الذهنية .

وعندي أن علم فقه اللغة العربية يحوي من الشواهد في بنيوية اللغة ما يغني عن تتبعنا

---

(١) الموسوعة العربية ٥/ ٤٢٤ .

لمباحث اللغات الأخرى ، فمبحثنا العربي يهبنا سلسلة من الضوابط وأنساق الدلالات والمعاني الكاشفة عن سُنن الحركة الحيوية هي أقرب إلى بقية كتلتنا المعرفية الإيمانية من دلالات مثيلة موازية في اللغات الأخرى يتوسع في ذكرها البنيويون الغربيون ، وبخاصة تكلفات ماركسية حشرت نفسها اعتمدت إقحاماً جُزافياً لمنطق الإلحاد في القضية شعرتُ به ولمسته من خلال مباحث البنيوية ، وكأن ذلك كان هو الإيذان بالانصراف عن سطوة المفهوم البنيوي والميل في المرحلة الحاضرة عنه إلى مفهوم أكثر مرونة يهب قارئ الأدب أو المتعامل مع المواضيع المعرفية حرية أوفر في استنتاج المعاني ، وهو مذهب "ما بعد البنيوية" وهو المنهج الذي تحرص عليه نظرية حركة الحياة ، وواقعيتها التي تجعلها أرجح من إطلاقات النقاد التعميميين ، وسبب ذلك أنهم يخاطبون عامة الناس ، وفيهم الضعيف إلى جانب القوي ، والبليد يصطف مع السوي ، بينما نحن نعرف أن تحريك الحياة تختص به الكتلة المركزية فقط في كل مجتمع ، ويؤلفها الأذكياء أصحاب النفوس الصلبة ، وهم الدعاة في المجتمع الإسلامي ، فنحرك فيهم الطاقة الاجتهادية الاستنباطية ، وعناصر الاستقلالية الذاتية ، والجوانب الزكية من النفس التي تتجاوز معنى العفاف والصدق إلى معاني التحدي والطموح والاقتحام والاستعلاء والضرب في الأرض ذهاباً مع كل شعور خيري إنتاجي تنموي ، وهذه أنماط يليق لها النظر المزدوج إلى الكون : نظر فحص الأجزاء واكتشاف غوامض مكوناتها ، ونظر العلاقات الرابطة لهذه الأجزاء ، وأنها كلٌ مجتمعٌ يُكوِّن صورة الحياة الكبرى التي إذا نجحنا في رسمها : ظهرت لنا بوضوح مسالك التوغل فيها وديارها الآمنة ، وتلك هي البنيوية الإيمانية التي تحتكر الصواب ولا تحتاج إلى نسخة أخرى بَعدية ، بما جمعت بين الوحي ونظر في الآفاق والعلوم والمخلوقات ، وبما تقوم به من مراجعة نقدية تمييزية للفكر الإنساني الفلسفي والمعرفي لتقويمه على ضوء عقيدة التوحيد واستخلاص كتلة منه تشهد للوحي وتتفق معه ونشرح الوجه الخفي من القمر .

● وقد كان عبد القاهر الجرجاني ٤٠٠-٤٧١هـ هو السابق في وضع نظرية البُنيوية العربية ، وشرحها في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" ، وسمّاها

نظرية النظم (التي هي نظرية متكاملة في الأدب والنقد . وتمخض عنها منهجه اللغوي التحليلي الموضعي ، أقرب المناهج إلى طبيعة الأدب العربي) (مما يتناول بُنية الجملة العربية) وقد أثبت في كتابه دلائل الإعجاز (ان القرآن الكريم معجز ببلاغته وفصاحته ، أي بنظمه . ومن هنا فصّل القول في أسرار جمال النظم ، متخذاً من الشعر والقرآن مصدراً يستنبط منه فنون البلاغة عامة ، ومباحث علم المعاني خاصة .) .

وفي أسرار البلاغة اتى (بمنهج يبحث عن الدقائق والأسرار والفروق بين صياغة فنية وأخرى ، وقد كانت آراؤه في الأسرار أوسع وأدق منها في الدلائل ، إذ أطال الشرح والعرض والتحليل والتعليل ، كي يستخلص القاعدة ، متوخياً من ذلك - وقد استطاع - أن يضع نظرية البيان العربي ، وبذلك أكد عبد القاهر أنه ناقد جمالي عقلاني ، يبحث عن قيمة الصورة البلاغية من خلال البحث في الصياغة التي تفصح عن دقائق النظم وأسرار تشكيل السياق ، وهكذا كانت نظرية النظم : المحور الذي تدور حوله فكرة الكتابين معا .) .

(تفرّد عبد القاهر بنظرته الجديدة الصائبة للغة ، إذ أثبت أن اللغة مجموعة من العلاقات المتفاعلة والمتآزرة داخل السياق ، وأن خصائص النظم أمور خفية لا تُدرك إلاّ بالذوق ولا تُكتشف إلاّ بالتحليل والموازنة) (فكان أقرب النظريات النقدية والبلاغية العقلية في التراث العربي إلى النقد الأدبي الحديث .)[1] .

وواضح أن النظم الذي يشير إليه لا يعني ورود الكلام وفق بحور الشعر وموازينه ، **وإن أتى بعضها كذلك ، وإنما يعني بالنظم : النظر إلى مجموع السياق التركيبي للجمل ، ورؤية العلاقات بين المفردات اللغوية التي شكّلته ونظمته في نسق منسجم .**

□□ وتتيح لي الخاتمة أن أبدي تذمري من تذمر بعض الدعاة من يبوسة هذه المباحث فيما يظنون ، وضجرهم من صرامة البحث وما تمليه من اهتمام لغوي

---

(١) الموسوعة العربية ٧/ ٥٤٨ .

وعمل عقلي منطقي ، وكأنهم استطابوا العيش مع الكتابات العاطفية والقصص الحماسية التي ليس فيها شيء من ضريبة التأمل والتفكر العميق وجدية المقارنات واستيعاب التحليل والتركيب ، وهم يطربون لمن يدغدغ قلوبهم ، ويضيقون ذرعاً بكتابات الراشد وأسلوبه الذي يزعمون صعوبته ، ومواضيعه التي تضيف جديداً عليها .

وما هكذا يكون الإمساك بزمام السيطرة على الحياة ، فإنها لم تخلق ليقودها كسول ومرتجل ، وإنما هي تُذعن لأهل الجد ، ومَن لهم معاناة فكرية وعملية . وهذه الدروب اللغوية وسائل تمكين وتفوق ، وهي أدوات بيد المتنافسين ، وأولى للدعاة أن يطيلوا التفكر ، وأن يبذلوا مزيداً من الجهود والتعب في تحصيل المعارف ، من أدب وتاريخ وفلسفة وفن ، من أجل أن يكونوا وتكون الدعوة في المكان الأعلى □□□

□□ في نظرات الفلاسفة والمفكرين شيء كثير يعزز فهمنا لنظرية حركة الحياة ، فمن صواب الفيلسوف سبنسر المتوفى سنة ١٩٠٣ ان (العالم جوهره : حياةٌ نامية .)[١] .

بمعنى أن الحقيقة المركزية في العالم : وجود الحياة ، التي ما هي بحياة رتيبة تتكرر فقط ، بل تنمو وتتطور وتتوالد منها صور جديدة وتكيّفات ، ومبحثنا في وسائل حركة الحياة يرصد الصورة العتيدة القديمة ويصفها ويبين ترابطات أجزائها لا بنظرة تاريخية فحسب ، أو محاولة تسجيلية للواقع ، وإنما ليكتشف المسار المفترض لخط التصاعد والنمو قياساً على ما هو موجود وما مضى ، من أجل السبق والاستعداد لمجاراة المستقبل واستثمار معطياته .

● ثم عند سبنسر : (المادة والحركة : وجها الطبيعة)[٢] التي خلقها الله ، فليس الوجود المخلوق يقتصر على الكيان المنظور في شكلٍ جامد ساكن ، بل ذلك نصف ، والنصف الأخر المعادل له يتمثل في حركة نابضة مستمرة في نفضِه وتفعيله وتدافعِه وتزاحِه وتلاطم أجزائه ، في محاولات تنافس وإزاحة وتصادم وتغالُب ، فإذا تتبعنا قوانين هذا التحرك وأنماطه وطرائق حدوثه وتأثيره : أوشكنا أن نذلّله ونقوده ونسيطر عليه ونجعله مورداً لمنافع تخدمنا ، فنسرع به أو نميل إلى إبطاء ، ونقوم بالتركيز أو التوزيع والتفريق ، بحسب مقتضيات الحال ومفاد التجريب ، وذلك هو الذي تحرص النظرية على تفهيمه لدعاة الإسلام .

● وعند سبنسر أن (أعلى درجات التطور في سُلّم الحياة الطبيعية للإنسان : هي الأخلاق .)[٣] . وهذا هو التقاء مع الأديان كلها ، ومع الإسلام بخاصة ، وأصعب جانب في الأخلاق : ما يتولى ضبط النفس والسيطرة عليها ، فإنها تشتهي السوء اللاأخلاقي احياناً ، وتتمرد ، وتظلم ، وتذهب في العدوان بعيداً ،

---

(١) (٢) (٣) الموسوعة العربية ١٠/ ٦٩٠ .

وكل ذلك من الفجور الذي ألهمها الله إياه بجانب التقوى ، ومعنى ذلك أن أعلى درجات التطور : معرفة التعامل الناجح مع النفس ، وذلك يعني مرة أخرى أن هذا الكتاب في " النفس وتحريكها الحياة " هو محاولة لفهم ذروة التطور كيف تكون ، وكيف هي صفتها ، وما هو فقهها ، واحتياجها إلى أناس من أهل الرفعة والعلو تحوم أنفسهم في مستوى الذرى .

● ومثل هذه الاقتباسات تجعلنا نتبنى منهجية جديدة في الفكر الإسلامي تقوم على نظرةٍ سلمية ذات صداقة للمعرفة العالمية ، بعد دهرٍ من منهجية العداوة والمفاصلة والخصام ، وذلك لأن المعرفيات الأممية ليست كلها تخالف الشرع والتوحيد ، بل بعضها هو الجاهلي ، وشطر منها بقي موالياً للفطرة ، ونظرات الحياد عند كثير من الفلاسفة والمفكرين وَهَبَتْه صواباً متعدد الوجوه ، ومع هذا الصواب نتعامل ونستفيد من منطقه ، وهذه المحاولات في بحوث حركة الحياة في الاستشهاد بمذاهب مفكري الأمم هي جزء من تطبيق هذه المنهجية ذات الود والصدر الرحب ، وما كانت منهجية المفاصلة السابقة على خطأ أبداً ، بل كانت مرحلة ضرورية لبناء التمايز بين الدين والخليط العقلي العالمي ، وقد أدت الواجب بكفاية ، وحصل عَزلٌ لأفكار الجاهليات في نفوس أكثر المسلمين . ونجح الفكر الإسلامي في تأسيس مفاهيم احتياطية عديدة تمنع تسرب الكفر وفروعه ، وحصل اعتزاز بالقرآن وكتلة الفقه ، فزال خطر التورط في اقتباس أفكار جاهلية من حيث لا يشعر الجيل الإسلامي المعاصر ، بل انغرست في أعماق نفوس أفراده حصانة ينظمها وعي عقلي يتجاوز مجرد الرفض النفسي . فأصبح هذا الحال المتطور يسمح بمنهجية جديدة تتعامل بروح الصداقة مع ثقافات الأمم ، وساغ الانفتاح على الكتلة المعرفية العالمية والاستعمال لشواهدها وآدابها وأنساقها المنطقية .

● فمن ذلك : ما توصل إليه الفيلسوف الأسباني " سانتيانا " ١٨٦٣-١٩٥٢ الذي كان يركز (على كون المعرفة قائمة على فرضية وجود الروح ، إذ أن مـ

الممكن التعالي عن الأمور المادية ، والوصول إلى حالة تأملية في أي من الماهيات والتحرر من قيودها ، وهذا ما يسميه الحياة الروحية . وربما كانت هذه النظرية مركزية أيضاً لا في فلسفة سانتيانا فحسب ، بل على صعيد حياته الشخصية أيضاً ، ومن هنا كان عزوفه عن مظاهر الحياة المادية .)[1] .

فهو يشاركنا نظرة إسلامية تجعل تعاطي المباح شغل العامة ومن هموم المستضعفين ومن لا شأن له في الإصلاح والنهي عن المنكر والجهاد ، وأما المؤمنون الذين يحركون الحياة ويعشقون الأعمال التغييرية وكبار الأمور والأفكار المركزية في الحياة فإنهم يرتقون إلى درجة " التعالي " التي يتحدث عنها هذا الفيلسوف ، وهي درجة خاصة الخاصة عند الهروي في منازل السائرين ، وهي ترجمة درجة الطموح السامي والتجرد الفائق التردد والنبض ، وصنعة " الرجال " في معادلة رفض منزلة " الرُجَيل " التي في " المنطلق " ، ومدار كل ذلك النفس التي سمّاها الروح .

□ وَضُحَ خط استواء النفس .. وبقي غموض القطبين

□ وهذا التوصيف مقرون فيما أرى بأهمية الالتفاتة التي وفق لها الأستاذ عدنان سالم مدير دار الفكر بدمشق في تقديمه لكتاب التحليل النفسي ، والتي كشف فيها أن النفس جعلها الله (في كفة معادلة لآفاق الكون وعوالمه) في الآية الكريمة " سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ " .

فهي ثقيلة ثقل آفاق الكون .

واسعة سعة آفاق الكون .

وهي والكون قسيمان متكافئان .

ويمثل هذا التقويم لقيمة " النفس " تناولتُ موضوع طباعها وأحوالها ووضعتُ

---

(١) الموسوعة العربية ١٠ / ٦٣١ .

هذا الكتاب وجعله حلقة في سلسلة بيان مذهب فقه الدعوة ، فإنها مِفصلٌ ومحورٌ ومدار ، وتحتل قضاياها مساحة مركزية في علم تحريك الحياة ، والصنعة التحليلية لا بد أن تستند إلى جميع شأنها ، وبدون تداول أخبارها وأطوارها تبقى المسألة التربوية غامضة ، بل تلبث خطة الدعوة في دائرة الغموض .

● واستطرد الأستاذ عدنان سالم فرصد بإجادةٍ عرضَ وطول المساحة النفسية في الحياة فوجدها رحبة متمادية ، وقد التفت إلى أن الإشارة تكمن (في إيماءة إلى سعة موضوع النفس وتعدّد مشاربها ودوافعها وتأثيراتها : يذكر القرآن مادة " نفس " بمشتقاتها وضمائرها المضافة ٢٩٥ مرة يجرد فيها من نفس الإنسان ذاتاً مغايرة له ، مستقلة عنه ، يحاورها وتحاوره ، ويستودعها أسراره ، ويؤثر فيها . فيزكيها ويغير ما بها ، وينهاها عن الهوى ، ويُصبرها ، ويؤثر فيها ويحاسبها ، ويلومها ، أو يُدسّيها ، ويخدعها ، ويختانها ، ويفتنها ، ويكذب عليها ، وينساها ، ويظلمها ، ويمقتها) (وتؤثر فيه ، فتسوّل له وتوسوس ، وتضيق به ، وتبخعه . وتعمل بمعزل عنه فتسعى وتكسب ، وتهوى وتشتهي ، وتفجُر أو تتقي ، وتفرّط وتجادل ، وتوجس خيفة وتتحسر .)[1] .

وهذه أحوال عديدة ، يصعب على مراقبٍ واحدٍ أن يتعامل معها كلها وأن يجمع الخبرة المتعلقة بها ليصوغ نظاماً تفصيلياً في التعاطي معها ، ولذلك أوجبنا المنهجية المعرفية التي تتكفل بجمعها من خلال جمهرة الراصدين لها في كل الأمم ، ولأجيال متعاقبة ، والمتجمع حتى الآن يفي ببيان بعض الصورة ، وما يزال بعضها الآخر خفياً يحتاج نظراً وتحليلاً وتوصيفاً من الأذكياء والباحثين والأدباء والفلاسفة ، ولكن " المسلم " من بين المِلل يجد في القرآن الكريم من الوصف والتعريف النفسي ما لا يجده غيره ، فيكون طريقه أقرب وتعليله أدق ، لأن القرآن كشَف أساس القضية وربطها بالإيمان ، وسَرَدَ أحوالاً تفصيلية كثيرة للنفس وأرجعها إلى ذاك الأساس الذي تحتدم فيه المنافسة بين التقوى والفجور ،

---

(١) مقدمة كتاب " التحليل النفسي " للأستاذين حسين عبد القادر ومحمد النابلسي .

وكان الأمر يحتاج إلى بيان مزيد من الأجزاء والأمثلة والأحوال ، ليتوسع العلم النفسي ، فقام فقهاء الشرع بتوفير كتلة ضخمة من ذلك ، ووجدوا في حكمة النبي ﷺ وسيرته مورداً مُتمّما ، ثم في سيرة أصحابه ﷺ ومن تبعهم بإحسان ، وما زال حجم هذه المعرفة النفسية يزيد ، وتتجمع من ملاحظات الشعراء والمؤرخين أجزاء جديدة تُساند الكتلة القديمة ، فلما كان نمو علم النفس الغربي الحديث والمعاصر : نخَل المفكرون الإسلاميون فحواه ، فعزلوا التخليط ، واستصفوا كتلة أخرى من الأجزاء والأوصاف المقبولة ، واكتشفوا في منهجية البحث والتناول العملي بخاصة صواباً وافراً اقتبسوه ، فتضاعفت المساحة المعروفة من النفس الغامضة ، وأصحاب التخصص من أطباء النفس المؤمنين ، وممن يُدرِّس علمَ النفس من المؤمنين : أجدَرُ أن ينجزوا مهمة التوغل في الاقتباس المعرفي والعملي من ثقافات الأمم ، وحقائق القرآن والسُنة أصلٌ يمكنهم القياس عليها وتوسيع المقارنات وتوجيه الاستنباطات الجديدة الاجتهادية من خلالها ، والمظنون أن هذا النمط من الإضافة لا ينقطع ، وليست له نهاية ، لأن أحد الأقدار الربانية الكبيرة في الخَلْق والتدبير : هو جعل النفس ذات غموض وبيان بعض سِرها وليس جميعه ، وتلك ملاحظة مهمة في علم حركة الحياة ، فالكل يسعى لفهمها فيصدق ويكذب ، ونحن نحاول استيعاب كُنهها ولا نكاد .

□ نحن كُتُب مفتوحة .. ولا نُخفي سِرّاً

□ لذلك كان حرص د. حسين عبد القادر أن (لا نتواطأ مع لاشعورنا) بل نتحاور مهما اختلفنا .

ويرى (بأن قوام الفكر ذاته هو أن يفهم المرء أنه لم يفهم ، عندها يستطيع الإبحار في مركب الفهم .)[1] .

---

(١) التحليل النفسي / ٢٦ .

إنما أدعوه أن يرفق بالمسلم المثقف ويستثنيه ، فإن حقائق الشرع التي وعاها جعلته يفهم نفسه كثيراً ، مع أن هناك بقايا سببها (الشائع والمألوف والمغلوط ، كما يقول د. حسين و(الاجتهادات الغريبة ، والتأويلات الساذجة) التي هي كثيرة في كتلة الثقافة الإسلامية الموجودة .

● ويرى د. حسين عبد القادر أننا (في زمن زاد فيه صَخَب الحروف الكسيرة .) [1] ، وهذا هجوم له شواهد صحيحة ، ولكن التعميم خطأ ، وفي الفكر الدعوي المعاصر حروفٌ صحيحة كثيرة ، ولكنّ العديد من العلمانيين فتنهم علم النفس الغربي فقلدوه على عِلاّته من غير تمييز وانتقاء ونقد ، وبالغوا في تقديسه ، فكانت مقولات الرفض الإسلامي ، والبادي أظلم ، وكان صخب المعركة الآن أقل ، وحصل احتياط وافر من خلال الفكر الإسلامي ، فصار الحوار أليق ، والاقتباس الواعي الذي عند الإسلاميين المعاصرين خيرٌ من الاكتيال الجزاف العلماني الذي ضعفت فيه الالتزامات المنهجية بسبب غلبة دوافع التزاحم السياسي والتضايق من وجود الدعاة في الساحة ، فاستعانوا في المعركة بالفكر الغربي ومقولات فرويد الغريبة ، وأطلقوا القول ، مع أن النسبية والنقد هما من أُسُس المنهجية الغربية ، وأصبحنا نمثلها نحن ونتقنها وهم عنها معرضون .

● والحل عند د. حسين يكمن في أن نقبل الحوار مع الآخر ، أي مع الفكر النفسي الغربي ، وأن لا نكون - في زعمه - مثل نرجس .. !

(فنرجس - في الأسطورة - عندما عشق صورته : لم يكن مفر آنذاك من أن يمقتها أيضاً ، إذ أنها تشبهه ، مما كان يعني عزلة محتومة ، إذ لا يرى في الآخر غير صورته ، بل ولا يسمع غير صداه) (الأمر الذي تأدّى بنرجس ، ويتأدى بكل نرجسي : إلى الموت .) [2] .

نعم ، ولكن كما أن الحوار مفصل من مفاصل المنهجية الصحيحة : فإن الاجتهاد مفصل آخر ، والتمييز الناقد مفصل ثالث ، وفي الكفار نراجس كثيرٌ

---

(١) (٢) التحليل النفسي / ١٥ / ١٨ .

عددهم ، ولكن المؤمن لن يكون نرجسياً أبداً ، لأنه لا ينظر صورته بل ينظر الأمور بعين القرآن والإيمان والفقه ، لذلك لن يموت ، وإنما أبعد نقطة في أوهامه إذا توهم : أن يزيد تأويلاً مغلوطاً ، فتكون في الصورة ضبابية ، فيأتي مؤمن آخر فيمسحها ، فتتوهج وترجع برّاقة .

● وأخبر د. حسين عن نفسه أنه يركض المسافات شوقاً لتجربة تتحدى ، ويعيد التصريح بإيمانه بالحوار بين المختلفين ، ويقول :

(ها أنا ذا أحاول ركض مسافات الكلام وصولاً لمحاريب معانٍ عدة تجول بالخاطر ، دافعاً مركب التداعيات لمدى قصي ، معطلاً إرادة الريبة ، فشرط التداعي الطليق في التحليل النفسي :) (أن نطلق العنان للأفكار كي تهجم بلا تحفظات .)[1] .

وأبدى شوقه إلى تجربة (تتحدى العُقم الصادم للرؤى المتشبثة بأحاديتها ، وتُنسينا ما تحجّر من مفاهيم في حناجر وأقلام البعض ممن آثروا الركون لنرجسية التمثل العقلي التي يغيب فيها -وعنها- الآخر) .

وأبدى إعجابه بعلم زميل له كشفت أبحاثه (عن رائق رؤى تستكشف الواقع استباقاً لزمانٍ يجيء ، وفهماً لسياقات حاضر .) .

وأبدى أنه يرى تأسيس حوار الاختلاف ، وأنه لا يجب (أن يكون الموقف اختباءً في سكوت الداخل) بل أن يسعى (لاحترام الحوار) لمسيس حاجتنا لتأصيله في مناقشة قضايا العلم ، ذلك إن لم يكن في كافة الجنبات الحياتية التي تلزم باحترام الاختلاف .)[2] .

وذلك صحيح ، ولكن كما تريدني أن أحاورك أريد أن تقرأ الإسلام ، وكل من يتعاطى علم النفس عليه أن يحاورنا من موطن العلم بما معنا من أقوال فقهاء الإيمان ، أما أن يأتي أحادي العلم مقلداً للغربيين فقط ويطلب مني مجاراته : فذلك نقص في صنعة الحوار وأصوله ، وفيه منافاة للعدل ، فإني تعلمت علم

---

(١) (٢) التحليل النفسي / ١٢ / ١٤ .

العلماني لأحاوره عن بيّنة ، فلماذا لا يتعلم علم الإسلام ليحاورني من موطن المساواة ؟

● واستنطاق تراثنا في المسألة النفسية خير من استسلام لآراء أناس حَجَب الكفر الكثير من الفهم عنهم ، وعلماء السلف لهم انتباهات ذكية في تحليل النفس ، والشعراء ، ومَن تتبع التاريخ . ومن العجب أن يكون فرويد أسبق إلى ذلك ، ولعله استفاد من إشارات السلف لتكوين مذهبه ، ومن آثاره في ذلك أنه أورد في آخر كتابه (ما وراء مبدأ اللذة) ثلاثة أبيات من المقامة الدينارية للحريري [1] واستنبط منها ما يؤيد رأيه !! لكن أبناء جلدتنا يزهدون بفكر أسلافهم !!

وفي هذا ما يدل على أن فرويد بالرغم من كفره كان أكثر التزاماً بمنهجية البحث من العلمانيين في أوطاننا ، والسبب كامن كما قلنا في انطلاق بحوثهم من خلفية سياسية متوترة ، وأنهم يختارون من العلم ما يؤيد تسلطهم وبنظرة منحازة ليس فيها حياد .

● ويقلل من جفلتنا من يهودية فرويد أنه من خلال كتابه " موسى والتوحيد " (استبق العديد من الطروحات الراهنة للأركيولوجيين ولتيار المؤرخين الإسرائيليين الجدد ، وقدّم قراءة للشخصية اليهودية لا يتجرأ على مثلها محلل معاصر إلاّ واتهم بالعداء للسامية) (إن إعادة استقراء هذا الكتاب تقدم لنا فهماً تحليلياً معمقاً للصهيونية ولجرعة جنون العظمة الزائدة في منطلقاتها وممارساتها .) [2] .

وهذا شاهد آخر على رجحان المقدار المنهجي في بحوث فرويد على المقدار الضئيل في بحوث العلمانيين في بلادنا ، وكأن هناك في ا لغرب فئة غير منهجية أيضاً تستخدم العلم استخداماً سياسياً وأمنياً ، فتبعها هؤلاء في ديارنا ، وقد قرأت في بعض الأدبيات أن " الطب النفسي " صار سلطة صارمة خانقة للحريات في الغرب ،

---

(١) أوردها د. حسين عبد القادر في كتاب " التحليل النفسي " / ٤٩ .

(٢) التحليل النفسي / ٦١١ .

شأنه شأن الكنيسة ورقابة الدولة ، وفي التحقيق معي عند اعتقالي كان طبيب نفسي يُنصت لأقوالي ويزودهم بملاحظاته ، في خيانة لعلم النفس واضحة .

☐ نؤمن بالتحليل النفسي كمُنطلق للإصلاح

☐ **أما نحن الإسلاميون : فنجمع شتات الفوائد من الأقاصي والأطراف لنزداد فهماً لإسلامنا ، ولا نرفض صواباً ينطق به كافر** ، ونتأول أن ذلك من بقايا الفطرة لديه ، أو بقايا لم يتم تحريفها في النصرانية واليهودية ، بل حتى في البوذية التي يترجح انها كانت ديناً نشره أنبياء ثم حصل فيه تحريف .

وننطلق في ذلك من ظاهرة طموح (الكائن الإنساني الذي لم يعد يقنع بالممكن بلوغاً للأمثل ، بل تخطى الأمر إلى ما كان يبدو مستحيلاً .) كما يقول د. حسين عبد القادر [1] . وقال : (إن أشد الضربات الموجعة لنرجسية الإنسان ، أو لنقل : لغفلته : إنما أتت من التحليل النفسي .) و(لقد طَرق التحليل النفسي الباب الخلفي للعقل) . وكل ذلك صواب ، ولكن المبالغة وأسلوب الإطلاق التعميمي لم ينج منهما هذا العالم النفسي المتحمس لقضيته ، لأنه إنسان أيضاً أسير إنسانيته ، فتورط بعد هذا فقال : (لم يحدث أن اقترب الإنسان من نفسه بالقدر الذي دفعه إليه التحليل النفسي) وهذا حق ، لكنه أردف فأبان أنه يريد توظيف ذلك (لكشف التزييف في يقينه الذي يجب أن يكون موضع شك .) .

وهذه هي بقية التقليد فيه ، فإنه يجد علماء النفس في الغرب يقولون مثل هذا فتبعهم ، ولم يلتفت أن يقين الفرد الغربي قائم على لا شيء ، ولكن يقين المسلم المؤمن قائم على حقائق القرآن والإسلام في معظمه ، وتنحصر إمكانية الشك في جزء قليل من اجتهادات المسلمين الذين تأولوا فأخطأوا ، وأما أن يكون جميع

---

(١) التحليل النفسي / ٢٠ .

يقيننا عُرضة للشك : فلا .

● ود. حسين يدلنا في ثنايا حماسته على مذهب صحيح لفيلسوف اسمه بشلار يدعونا إلى (الإمساك بالقاع اللاشعوري للنفس) استجابة لقاعدة (اعرف نفسك) . وهذا القاع موجود في كل فرد وتصوغه جملة عقائده وثقافاته ، ولا أظن أن الإسلام يعارض هذه المحاولة في الإمساك بلاشعور كل أحد ، لنفسر به تصرفاته ، ولكن لا نماشي كل تفسيرنا لقيمان لاشعور غيرنا ، لأننا ننطلق أيضاً من طبيعة بشرية مماثلة ، وإنما لجعل من عقيدة التوحيد وأخلاق الإيمان وقواعد الشرع مَناخل ننخل بها ما هنالك ، ونقول للصواب أنه صواب ، ونفضح الخطأ ، ولا مجال للمساومة ولا مساواة جزء إيماني مع قول فلسفي أو تحليل نفسي ، فإن القيمة الإسلامية مؤكدة ، والقيمة التحليلية مظنونة ، وفي وسطيتنا ما يقذف الطمأنينة في قلب علماء النفس أننا لا نرفض كل أقوالهم مثلما لا نقبلها كلها ، بل نميز ونختار ونحاكم ، وليس المهم أن يعترف الفكر الإسلامي بنتائج تحليلات علماء النفس ، فإن ذلك هو مبلغ اجتهادهم والخطأ منهم محتمل ، ولكن المهم أن يعترف الفكر الإسلامي بطريقة ' التحليل النفسي ' ذاتها كمنهج ، وأن يستعمل لها أدواتها الإيمانية ، وإلى العقل الاحتكام بعد ذلك ، وللمنطق إذا أصاب ما يرقى إلى درجة السلطة الصارمة التي لا يخالفها إلا معاند .

لقد اكتسب التحليل النفسي أهمية مع الأيام ، وتصدى لجميع ميادين علوم الإنسان (بل إن جمهرة من علماء الإنسانيات قد انخرطوا لتحليل أنفسهم ليُسهم ذلك في وضع يدهم على الانتقال من الفردوس مفقوداً إلى الفردوس مستعاداً ، مما يمكّنهم من الإمساك بلاشعورهم) بل في رأي فرويد أن التحليل النفسي يمكن أن يُطلب (لأسباب ثقافية) وأن العلماء (سوف يكتسبون منه بالتأكيد كل في ميدانه فائدة جليلة هي زيادة في الكفاءة وفي القدرة .)[1] .

---

(١) التحليل النفسي / ٣٢٠ .

وما هي مقولة " اعرف نفسك " ماثلة للعيان منذ الحضارات الأولى ، وفي القرآن قوله تعالى : " وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ " .

فهو صنعة معرفية علمية عامة ، وقد أكد فرويد (أن التحليل النفسي يستحيل اختزاله في أي من الطب أو التربية ، ولا حتى علم النفس أو الاجتماع أو الأثنولوجي أو حتى علم اللغويات .. الخ ، فالتحليل النفيس قد تشظى في كل الميادين ويستحيل أن ييمم من جديد شطر الطب والأطباء فحسب)[1] حتى قال فرويد (لسنا نود أن نرى التحليل النفسي وقد ابتلعه الطب)[2] .

وبمثل هذه النظرة ننظر كدعاة إلى التحليل النفسي ، وأنه أداة ثقافية وعلمية يمكن أن نمارسها في محيطنا الدعوي لتجويد فهم أنفسنا وعللنا ومشاكلنا ، والقضية تجاوزت اسم فرويد الحساس لتكون اليوم إجماعاً علمياً .

● واختلف النفسيون كثيراً .

فمنهم ثورنديك : أجرى تجارب على فئران ، فخرج بنظرية تقوم على (المحاولة والخطأ) ، وهي طريقة استقرائية تقوم على تراكم الملاحظة وذرة بعد ذرة وجزيء بعد جزيء ، وتظل مبتسرة .

وعاكسهم أصحاب منهج الاستبصار والتحليل ، وقاموا بتجاربهم على قرد ، واستنبطوا من ردود أفعاله منهجاً ، وهو منهج مبتسر أيضاً .

(فقد جرت مياه كل هذه المدارس في نُهُر موضوعية مصطنعة ، مقلدة للعلوم الطبيعية ، ارتجافاً من ذاتيةٍ هي حتم إنساني ، كان لزاماً أن تتداعى معها أركان هذا القياس المتعسف الذي ساوق بين الإنسان وقطعة الحديد ، وكانت الرياضيات والإحصاء وسيلته لتدوير المحاور واصطناع الفهم . وكان طبيعياً والحال هذه بان نسلّم بأن علم النفس لما يزل يواجه المأزق الذي تأدى إلى أن يشير جورج بوليتزير في كتابه " أزمة علم النفس المعاصر " إلى أننا في علم النفس

---

(١) (٢) التحليل النفسي / ٣٢٩ .

قد أصبحنا بإزاء علوم نفس ، ولا بد أن جمهرة منها خارج المرمى .)[1] .

(إن نظرية تعلّم تنطلق من الكلب اختلفت نتائجها وقوانينها عن نظرية تعلّم أخرى انتقلت من القرد . آنئذ احسب أن القارئ سيعضد معنا رأي إميرسون . إذ يرى أن ما في مخ العالم آنئذ إنما هو ذاته ما في مخ الكلب أو الفار او القرد . أو أي سياق آخر غير الإنسان بما هو إنسان . تُرى : أنستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير ؟ ؟ والذي يقول عنه سوفكليس في مسرحية انتيجون " ليس اشد إعجازاً من الإنسان " ذلك الكائن المتفرد بلغته السابقة على وجوده ، والذي يتعلم ويتطور عبر تراكم معرفته .)[2] .

بل وشاهد القرآن أوضح في قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ، ولماذا لا يرى هؤلاء أن هذا الإعجاز يحوي الدليل على أن آدم ما كان نتيجة تطور داروني ، وإنما هو خلق آخر نزل من الجنة ؟

● ومن مواطن خلاف المسلم مع المحللين الغربيين في هذا الصدد : هل ان علم النفس يعتني بسلوك الكائن الحي أم السلوك والخبرة الإنسانية ؟ فهذه الثانية هي طريقنا في فهم المعضلة .

ومن الصواب الذي يعيننا ما ذهب إليه فرويد من أن هناك رحلة تطورية ارتقائية عند كل إنسان ويمر بمراحل كل مرحلة تحكم منظوراً ممتداً وتترك مراكز تثبيت لمعنى وسلوك ، وقد ينكص إليها الإنسان في مهب الإحباطات .

وأساس المنهج العلمي الصحيح في ظن حسين عبد القادر هو أن نحاول أن نفهم (أن الذاتية حال في الموضوعية ، فالمعرفة في صميمها إنما هي علاقة بين ذات وموضوع ، والمخاطَب فيها إنما هو حال في المتكلم ، فإذا ما اكتملت معرفة الذات كان ذلك إيذاناً بمعرفة الآخر في الذات ، ومن ثم سنظل الموضوعية الحقة هي الفطنة إلى حتمية الذاتية) وفي ذلك (لا وجه للقياس بين قطعة الحديد والإنسـان) أو حتى القرد والفار .

---

(١) (٢) التحليل النفسي / ٣١ / ٣٥ .

● والمنهجية العلمية تدعونا إلى الاعتقاد هنا في هذا السياق أن موضوع علم النفس هو الإنسان ، وأننا رصدنا فيه الشعور ، ثم رصدنا نقيضاً له يسميه العلماء اللاشعور ، وهو في التسمية الإسلامية " السريرة " أو " الخافية " ، وفيه ما هو (مكبوت) (مُنع من الولوج إلى الشعور) فاستقر في الداخل العميق .

وما هو هذا المكبوت الممنوع ؟ هل هو خيري أم من السوء والرديء ؟

(المشاهدات اليومية تشي بأننا نكبت أيضاً ما قد يكون طيباً .)[1] .

(هنا يزداد الأمر تعقيداً في تناول هذا الكائن الإنساني ، إذ هو كموضوع متفرد متعدد معاً لا بد له من منهج لتناوله . منهج يتسق وطبيعته المتغيرة وأنشطته المتعددة . فهل يكون هذا المنهج استبطاناً أم استقراءً أم استنباطاً ؟ وجلها في صميمها - إن لم تكن كلها : تشكلات من المنطق الصوري الناقص . هذا المنطق الأرسطوطاليسي الذي لم تنهض العلوم الطبيعية من كبوتها في العصور الوسطى إلاّ بعد أن مضى كوبرينكس وجاليليو في اتجاه مضاد لطابعه السكوني) .

وصار المنهج التجريبي هو الأصل .

واللغة التي يعبر فيها عن كلامه هي الأداة .

وهكذا يكون في مبحثنا أمور ثلاثة :

موضوع ، ومنهج ، وأداة .

لكن (كل إنسان إنما هو كائن منفرد ، وإن جَمعتْ نوعه لغة سياقات ، فالأنا - أنت هُما هُما من حيث المبدأ) والخلاف (خلاف في الدرجة) .

وهكذا فإنّ (التحليل النفسي بقدر ما هو فعل وعمل : بقدر ما هو نظرية ومفاهيم ، ومن ثم قوانين علمية ، فمن حيث كونه فعلاً وعملاً فهو بحث عن غائب مؤثر ، ومن حيث هو نظرية ومفاهيم وقوانين علمية فهو يكون فكراً في طبيعة هذا الغائب) (يلزمنا بالبحث فيما ينقص من الحاضر .) .

---

(١) التحليل النفسي / ٤١ .

□ وبسبب أصل فرويد اليهودي زهدت الدراسات الدعوية بآرائه ، وساعد على ذلك إغرابه وتركيزه على استقرار دافع الجنس في اللاشعور ، ولكن د. حسين عبد القادر يرى أن ندرس ما جاء به وتطور آرائه ، لأن الدراسة ترينا صواباً كثيراً كامناً في أقواله ونظرياته ، ويقول أن فرويد نفسه ولّى ظهره لما قاله في مراحل أولى من حياته ، ودراسته ستوضح لنا نظرية التحليل النفسي في بُعديها العلمي والفكري ، وبنيتها المؤسسية ، ولعلنا نقتبس منها ما نرسم به بعض مستقبلنا [١] .

ومسيرة فرويد العلمية بدأت بسماعه لمحاضرة عن رأي الشاعر جوته في فلسفة الطبيعة ، فقرر دراسة الطب ، واختص بدراسة الأعصاب وتشريح المخ ، واستمر على ذلك دهراً حتى بدأت قضية التنويم المغناطيسي تستولي عليه . فمارسها ، لكنه لم يقتنع بأن التنويم تسنده حقيقة علمية ، وفي هذه الفترة جهر بأن الهستيريا تصيب الرجال ، وكان الرأي السائد منذ القديم أنها من أمراض النساء فقط ، فعارضه الأطباء ، لكنه أصر وتوسع في دراسة الهستيريا .

واقتنع خلال ذلك بأن مريض الهستيريا تؤثر فيه دوافع غريزية جنسية اعترته في الطفولة تستقر في اللاشعور ، وعمّم ذلك على الحياة الإنسانية كلها ، واتخذ من حالة مريضة اسمها " دورا " نموذجاً وشاهداً (تجريبياً لمنهج ونظرية وفنيات استقرت مقوماتها الأساسية هَوناً ، إذ أن الحرب الضروس بين إرادة الجهلة في مقابل إرادة المعرفة : لا تتوقف ، ولن تتوقف ، مما يُرهص دوماً بالجديد .

كانت حالة " دورا " تجتزئ بين طياتها المقالات السيكولوجية في (اللاشعور والكبت ، ومن ثم عالم المكبوت من جنسية طفلية وعدوان ، كما تبين منها طبيعة المقاومة ودينامية الصراع ، ذلك الصراع الذي لم يقف عند الحياة النفسية للمريض بأبعادها الداخلية اللاشعورية ، وإنما بالاهتمام أيضاً بالظروف الإنسانية والاجتماعية الصرفة) والعائلية .

---

(١) التحليل النفسي / ٥٢ .

و(هي جدلية الديناميات وصراعاتها بين مكونات الإحباطات الداخلية والخارجية وطبيعة الوقائع الكلية التي تشكل مادة التحليل النفسي ، وتلزمه بتعرّف الوحدة الكلية التاريخية بما فيها البيئة من خلال التداعي الطليق . " الفنية الأولى " والتحويل " الفنية الثانية ") (لكن ما يهمنا هنا هو التحويل) .

و(التداعي الطليق هو المبدأ الأساسي الذي انطلق منه التحليل النفسي بعد حقبة العلاج بالتنويم المغناطيسي ، والتي كانت سبباً في أن يكتشف فرويد أن الإنسان يعرف لكنه لا يعرف أنه يعرف .

وقصد فرويد من التداعي الطليق أن يقول المريض كل شيء في تلقائية دون انتقاء أو تعمّل مهما كان تافهاً أو مستهجناً والتداعي بهذا المعنى هو الجانب العقلاني المعرفي من التحليل النفسي ، حيث يتيح الاستبصار بالجوانب اللاشعورية .) .

أما التحويل أو الطرح فهو (يمثل الفنية الثانية بعد التداعي الطليق ، وهو العلاقة الانفعالية في الموقع العلاجي ، والذي يقفه المريض تلقائياً من معالجه باعتباره عَوداً لشخص هام بُعث من عهد الطفولة أو من الماضي ، فكأن المريض لا يستطيع أن يتذكر خبراته الانفعالية المبكرة بل يعيشها في الموقف العلاجي ، فيسلك تجاه المعالج بالطريقة نفسها التي كان يعيشها مع الأفراد المسؤولين عن نشأتها في الطفولة . بعبارة أخرى يطرح (يحول) تلك المشاعر والاستجابات التي كانت تنصبّ على هذا المثال في محاولة لاشعورية ليعيش الماضي في خبرة أفضل . ويرى فرويد أن المريض لا يكتفي بالنظر إلى المعالج بوصفه ناصحاً بل باعتباره أحد شخوص الطفولة .)[١] .

● (وقد انفتح السبيل لمعرفة الديناميات والوظيفية ، ولم يعد الأمر أمر صراع مع مرض ، بل مع مريض اضطرب بناؤه النفسي ، ويقاوم أن يعرف ما وراء

---

(١) لمحمد صهيب شريف في ذيل كتاب التحليل النفسي / ٦٣٨ .

الأعراض ، والتي هي محصلة صراع قوى ، ومن هنا من بعد أن كان فرويد يحفز المريض لأن يذكر شيئاً عن موضوع بعينه ، في محاولة لسد فجوات الذاكرة : طُلب إليه أن يستسلم لعملية تداعٍ طليق تطلق عقال الأحداث المكبوتة التي امتنعت عن ولوج الشعور بسبب المقاومات التي تحتجزها في اللاشعور الذي يمور بالكثير . مدركاً في الآن نفسه أن هذا التداعي ليس طليقاً أو حراً إلا بمعناه الدلالي ، فالمريض " الإنسان " واقع دوماً تحت تأثير الموقف الذي يعيشه) أو تحت تأثير الموقف العلاجي ، ومن ثم ستبرز المقاومة خفية أو صريحة ، ويرتبط ذلك مباشرة بالتحويل الذي أصبح عاملاً فعالاً يقوم عليه الموقف العلاجي . وهذا يعني أن فرويد اتى بنظرية تتعامل مع الأسوياء كما تتعامل مع المرضى ، (فقد اعتبر " التحويل " جوهر الفنيات وعاملها الفعال بوصفها ظاهرة عامة للنفس الإنسانية) ، وفي حالة مريضة بدأت تكره رؤية أشقاء زوجها وتتهمهم أنهم أفظاظ بيّن فرويد كيف أن هلوستها تمثل جزءاً من محتوى خبراتها الطفولية المكبوتة ، وبعض الأعراض تنبعث من دفاع أولي يشتمل على الأفكار الهذائية التي اتسمت بعدم الثقة وارتبطت بأفكار اضطهادية ، فالأعراض تنبعث من دفاع أولي ، وهي بمثابة عودة للمكبوت ، وما الأفكار الهذائية غير مصالحة وحل توفيقي .

بهذا نكون (قد بلغنا نهجاً جاليلياً عبر فهم دينامي ووظيفي يربط بين السواء والعُصاب ، وبقدر ما يبين عن دينامية المكبوت والبطانة الكابتة للفكر : يبين عن الإرهاص بفنية تتجاوز التنويم المغناطيسي للتداعي الطليق كي تواكب هذا الفهم الوظيفي والدينامي المتجاوز .)[1] .

ولقد رأى فرويد أن الذكريات الباكرة للطفولة (إنما تقع في الحقبة بين عامين وأربعة أعوام ، وغالباً ما تختلج هذه الحقبة بالذكريات الأولى عن الخوف والخجل والآلام الفيزيائية) (والموت والنيران وميلاد الاخوة) .

---

(١) التحليل النفسي / ٨٦ .

وبهذا أصبح هذا التحليل (علم نفس للسواء ، بقدر ما هو علم نفس مرضي . علم نفس تحليلي يساوي بين السواء واللاسواء ، ويتناول بالمفاهيم الواحدة كافة معطيات الحياة اليومية في إثراء يؤكد الحتمية النفسية واللاشعور .) وقد تناول في (سيكوباثولوجية الحياة اليومية الميكانيزمات النفسية للهفوات على اختلاف أنواعها ، سواء أكان زلات قلم أو لسان أم أفعالاً عارضة أم عرضية أم مجرد لخبطة ، وهلم جرا ، وقد بين ديناميات ميكانيزماتها ووظيفتها التي تتناغم في نفس المتصل مع الأحلام والأمراض ، باعتبارها حلاً توفيقياً وإشباعاً بديلاً للرغبات اللاشعورية ، كما كان الكثير من أمثلتها أنموذجاً طيباً لحتمية المستدعيات ، والتي تعد أنموذجاً ثرياً للتداعي الطليق وطبيعة العمليات الأولية .)[1] .

وهكذا تمكن من تفهيمنا دلالة التحويل ، لكنه أقر بأنه لم يفطن في مرحلته الأولى لتضاد التحويل ، وشرح أهمية العمل الدائم للمحلل مع لاشعوره هو نفسه ، وقد قال : إن المريض الذي انشغل به إنما هو نفسي . إن هستيريتي التي ازدادت حدتها بالعمل استسلمت لخطوة أبعد . إن الراحة لما تزل عصية . ذلك هو السبب الأول لمزاجي الحالي .

وهكذا (كان لزاماً أن يكتشف البديهي من الأمور التي غابت عن البشرية أحقاباً وأحقاباً حتى أتى من حل اللغز الذائع الصيت) وهكذا أصبحت (خبرة فرويد خبرة مرجعية يُتعلم منها أن الإنسان في كشف دائم مع كل استبصار جديد بالأعماق اللاشعورية) مع بصيرة بقيمة التحويل ، حيث العلاقة بين الأنا-أنت ، ثم تطرقه لتفسير الأحلام ومن ثم الهفوات ، وشرحه لدور التداعي الطليق (الفنية الأولى) والتحويل (الفنية الثانية) في الإمساك باللاشعور لتكتمل معرفة الإنسان لنفسه ، وتكتمل نظرية في التحليل النفسي ، (حتى استقر القانون الأساسي ، أي التداعي الطليق ، على عرشه ، لتعرف لاشعور ذلك الكائن الإنساني الذي يعرف لكنه لا يعرف أنه يعرف . هذا الكائن الذي

---

(١) التحليل النفسي / ٩٢ .

يستخدم الرمز وتوسعه اللغة التي تسكنه ، ولم يكن مطلوباً للتداعي الطليق غير إسكات المنطق المألوف وتعطيل إرادة الريبة ، وان يدع الإنسانُ الأفكارَ تهجم شذر-مذر .) .

● ويرتبط كل ذلك بمفهوم التحويل وهو (ذلك الموقف الذي يقفه المريض تلقائياً من معالجه ، باعتباره عَوداً لشخص هام بُعث من حقبة طفولته او من ماضيه ، مما يستطيع معه المريض لا أن يتذكر خبراته الانفعالية المبكرة فحسب . بل أن يعيشها في الموقف العلاجي ، فيسلك تجاه المعالج السبيل نفسها التي كان يعيشها مع الأفراد والمسؤولين عن نشأتها في ماضيه . بعبارة أبسط : يحول المشاعر والاستجابات التي كانت تنصبّ على هذا المثال ، في محاولة لاشعورية ليعيش الماضي في خبرة أفضل ، إذ يرى فرويد أن المريض لا يكتفي بالنظر إلى المعالج بوصفه ناصحاً ومُعيناً - كما سبق القول - بل باعتباره أحد شخوص الطفولة ، وهكذا فإن الجانب الانفعالي " التحويل " يعين المحلل على كشف الصراعات المولدة للمرض ، وقد يكون التحويل موجباً عندما يكون الشعور حُباً ، او هو تحويل سالب عندما تتغلب الكراهية على المشاعر .)(١) .

● ولكن اكتشف فرويد ما سماه " التحويل المضاد " ، وبه يرفض المريض التجاوب مع المعالج .

(فعلى المعالج والحال هذه ان يكون هو نفسه موضعاً للسؤال عن رغباته وأفكاره ، التي هي نفسها من النوع نفسه ، فهو الآخر يعاني انشطاراً ، يقل بقدر استبصاره بلاشعوره ، ويستقيم بقدر ما يمسك به من وقائعه ورغبته ، لتنجلي الجهلة عنه وتخلي السبيل لدالٍّ مكتمل عارف ما أمكن ، فثمة ثالث مشترك دوماً بين الأنا والآخر هو لاشعورهما الذي لن يسمعه المعالج في المريض أو يراه إذا لم يسمعه في نفسه أولاً ويزيل غشاوته .)(٢) .

---

(١) (٢) التحليل النفسي / ١٠٨ / ١١٥ .

مع العلم أن هناك صعوبة في إقامة علاقة تحويلية مع المصابين بالأعصبة النرجسية ، أو الذهانيين ، إذ ليست لهم القدرة على التحويل .

ومن تمام فهم التحويل : أن نلمس (تلك الفروق بين الإيحاء التنويمي والدالة الإيحائية في الموقف التحويلي . فبينما هي في الأولى تقوية لضروب الكبت لا تمس أياً من العمليات المفضية لتكوين الأعراض ، إذ تخفي وتموه على ما يوجد في الحياة النفسية ، ومن ثم يصبح المريض خاملاً عاجزاً عن مقاومة أي مثير للمرض : فإنه في العلاج التحليلي بمنهجه الفريد في التحويل وفهمه الدينامي والوظيفي له : يبذل جهوداً أو عناءاً كبيراً بقصد التغلب على المقاومات الداخلية ، وهو جهد مشترك للمريض والمعالج لا يمكن أن يتم بغير الفهم العميق للعلاقة التحويلية التي تمثل بُعداً دينامياً للشفاء) .

إن تحويلاً اصطناعياً يحل محل المرض الأصلي ، وبه (يُصبح المريض هو-هو ، بعدما كان الآخر هو أنا) . (والموقف العلاجي في صميمه : "ديالوج" إن صح التعبير بين لاشعور المريض ولاشعور المحلل .) أي هو حوار بينهما .

إن نظرية التحليل ، بثوريتها : (الزمت المحلل بأن يفض بجهلته أولاً .) .

□ ولم تنل الفرويدية العصمة ، بل يرى البعض ، ومنهم د. محمد أحمد النابلسي الأمين العام للاتحاد العربي لعلم النفس (انطواء الفرويدية على الكثير من الكذب ، وحتى التزوير العلمي ، وكذلك على رغبة عارمة بالسيطرة)[1] .

ولكن المنهج العلمي يقتضي التفريق بين الفرويدية ، والتحليل النفسي ، تجنباً لتحميل نظرية التحليل أخطاء واضعها ، والاطلاع على سيرة فرويد يفيد في كشف مواطن الخطأ وفي تقويم (الإسقاطات الفرويدية على النظرية ، خصوصاً أن هذه الإسقاطات مموهة بالنقد الذاتي وبالاعترافات) .

وكان فرويد قد اعتمد في كثير من نظرياته على تحليله لنفسه ، ولكن الكثير من علماء النفس انتقدوه في ذلك وأنه لا يمكن لأحد أن يزعم فهم نفسه بدون تحليل

---

(١) التحليل النفسي / ٣٥١ .

يقوم به غيره له ، وقد نشر مدير أرشيف فرويد كتاباً معتمداً على رسائل فرويد خلص فيه إلى تثبيت (مجموعة من الآراء السلبية حول فرويد نفسه وحول نظريته التحليلية إجمالاً ، وهو قد دعم هذه الآراء بوثائق مستمدة من أرشيف فرويد وبخط يده .) وبعض أخطائه هي نتيجة جهله بعلم البيولوجيا ، كجهله بآثار حالة الاختمار الكيميائي للدماغ وإفرازه لعدد من المواد الكيماوية التي تتحكم بمختلف الأنشطة ، فهذا أمر غير نفسي يقلل من أثر الإطلاقات التي أطلقها فرويد وعمم فيها آثار النفس . ومن الأخطاء ما يرجع إلى نرجسية فرويد التي لم يفطن لها . وكذلك الميول العظامية ، بل وفي شخصيته تبعية للبروفسور بروكا ، ثم لشاركو . ثم لفلايس . على أن تربيته اليهودية لها ظهور في بعض آرائه .

● ومن أبرز أخطائه قوله ان الدماغ يستمد الطاقة اللازمة لتنشيطه من الخارج . وهذه فرضية خاطئة أثبت التخطيط الطبي للدماغ أنها داخلية ويمكن تحديد أماكنها القوية والضعيفة ، وهذا له علاقة بتفسير الأحلام التي هي نشاط داخلي بينما طبيعة افتراضه ابتعدت به عن إدراك التفسير الصحيح ، فعنده أن الحلم هو تزاحم الرغبات المكبوتة للخروج من اللاوعي إلى حيز الوعي ، بينما العلم يقول اليوم بأن الأحلام تتعلق أيضاً بالمعلومات والذكريات التي تحويها المنطقة الدماغية المثارة ، وهي علاقة فيها تأثير بيولوجي فزيولوجي ، كما أن الجنين له ذاكرة هي التي تدعه حين يولد يفتش عن ثدي أمه ، وهي ذاكرة خالية من المكبوتات .

● كما أن البعض رصد نمط علاقاته بأصحابه وعلماء النفس فوجدها تتبع نمطية واحدة ، فبدايتها صداقة حارة ، ثم تبعية وفيها استعارة آرائهم ، ثم انقلاب عاجلاً أو آجلاً وحصول شك وكراهية [1] .

وتقف وراء ذلك نفسية هيستريا القائد ، وكان يقول : لقد عشت دائماً رغبة قوية في أن أكون أنا نفسي رجلاً قوياً .

---

(١) التحليل النفسي / ٣٧٥ .

وكان مصاباً بمرض عُصاب الوساوس المرضية وأنه يتنبأ بموته المبكر بناء على أوهام . ثم إنه كان مصاباً بالكذب المرضي في علاقاته ، ويدّعي شفاء بعض مرضاه رغم استمرار مرضهم .

والأخطر (أن فرويد قد أنشأ حركته على غرار الحزب السياسي الضيق ، وفرض عليهم عزلة عدائية عن الطب النفسي ، فبات رضا فرويد هو المطلب ، فإذا ما أسقط فرويد أحدهم من حسابه فإنه يمحو وجود هذا الشخص ، فالإقصاء من المجتمع الثوري يشكل إعداماً أشد من الموت الجسدي .) [1] .

ومن يعرف خصائص الشخصية اليهودية لا يستغرب ذلك ، وقس ذلك بطرائق لينين اليهودي في القيادة .

● لذلك نشأت مدارس جديدة تجاوزت في التحليل مقولات فرويد ، ومن أهمها مدرسة لاكان الطبيب النفسي الفرنسي ١٩٠١-١٩٨١ فصار إلى جانب طبه (محللاً ومهتماً بالفنون والآداب ، وبخاصة فقد اهتم بالمدرسة السوريالية . كان على علاقة مباشرة بالعديد من أعلام هذه المدرسة من أمثال سلفادور دالي وغيره . ثم جاء اهتمامه بالفلسفة وتأثره الشديد بمعاصريه مثل بونتي وشتراوس وفوكو .) [2] .

(نشر لاكان كتاباته في العام ١٩٦٦ وكانت في ٩٠٠ صفحة ومن خلال هذه الكتابات خرج لاكان بالتحليل النفسي من الممارسة العيادية إلى ميادين أخرى ، فتأسست مدارس جديدة تعتمد التحليل اللاكاني في فروع شتى مثل اللغة والأدب والفنون وأساليب التعبير .) .

وهذا هو الذي نريد ، وفهمنا المكتسب من حيثيات نظرية حركة الحياة يؤدي بنا إلى الالتقاء مع هذا الفهم واستثماره وتعزيزه وترويج القيم الفكرية والتخطيطية والسياسية والنفسية التي نجدها في أبيات الشعراء وأقاويل المشاهير في

---

(١) (٢) التحليل النفسي / ٣٩٠ / ٤١٣ .

قصصهم في أيامهم الحرجة ، وخيالات كثيرة فاه بها السلف عند شروحهم للأخلاق وصفات النفس وتعليلهم لمسيرة التاريخ الإسلامي ودراسة حركات الجهاد والفتن والخوارجية والابتداع ، فطريقة لاكان تسند كل ذلك .

(وينطلق لاكان من فكرة أن وارثي الفرويدية يحاولون تقريبها إلى الموضوعية . فيعمدون إلى موضعة الغرائز والأنا والهو والأنا الأعلى ، إلى آخره من المواضيع التي كان يستعملها فرويد كرموز ليس إلاّ ، وهكذا فإن هذه المحاولات تؤدي إلى إلغاء التحليل وصهره في علم النفس ، على حد قول لاكان .

وعلى هذا الأساس فقد دعا لاكان إلى العودة إلى فرويد ، معتبراً أن التحليل النفسي هو وعي يهتم باللغة التي يستخدمها اللاوعي ، ولا يهتم بالظواهر الحيوية أو النفسية الممكنة الملاحظة . وعليه فقد اعتبر لاكان أن مهمة المحلل إنما هي عملية فك الرموز اللغوية للاّوعي .) .

(وبهذا فإن اكتشاف فرويد لم يكن برأي لاكان اكتشافه لدور الجنس ، فالجنسية التي تكلم عنها فرويد ليست إلاّ لذة متوافرة بصورة ذهنية-فكرية .

وهكذا فإن ممارسة التحليل إنما تنحصر في دراسة التمثلات والدلالات المتبدية بأشكال مختلفة : الحلم وصوره . الهفوات .. إلى آخره ، وخلص لاكان إلى قناعة مفادها بأن مبادئ التحليل تتطابق أو تكاد مع مبادئ اللسانية ، وبهذا يكون لاكان قد دخل في نطاق البُنيوية .

وبذلك يبدو تأثره واضحاً بفوكو وشتراوس ، كما يبدو اختلافه مع سارتر .

● فالبنيوية ترى أن الشخص خاضع لنظام أو بنية " قالب " تقولبه ، سواء على صعيد الوعي أو على صعيد اللاوعي .

ولدى مراجعتنا لأعمال لاكان نلاحظ أنه قولب نظريته في قالب جاهز مفاده إبعاد التحليل عن الجنسية ، إرضاء للطابع الكاثوليكي للقالب " المجتمع الفرنسي " وإرضاءً لمعاصريه من الفلاسفة ، خاصة فوكو .) .

يقول النابلسي : (وفي رأينا الشخصي أن لاكان نجح في تأسيس مدرسة فرعية

هي التحليل اللساني ، الذي يحول اللاوعي إلى سلسلة من الكلمات ، وهو تحويل ساذج كاد يُفقد إضافات لاكان أية أهمية فعلية .) .

● إلاّ أن انتقال الفحوى العامة للتحليل النفسي إلى إثارة نظرات نقدية في كل العلوم والمعارف ، ثم تأكيد أفكار ' لاكان ' على إحداث مزيد من النقد والربط مع الأدب والفن والأفكار السوريالية التجريدية : يجعلنا نتلمس طريقاً لاستكشاف معالم توظيف إسلامي ودعوي لنظرية التحليل النفسي المعدلة وفي صورتها المعاصرة المنقحة لا صورتها الفرويدية المشوبة .

● وهذا هو المقدار الذي نخلص إليه من هذا الاستعراض الممل للدعاة ، الغريب على عواطفهم ومنطقهم ، لكنه مقدار مهم يحتل مكاناً عريضاً في وقائع تحريك الحياة المعاصرة ، والحياة الاجتماعية والثقافية ثم الأوساط الجامعية والإعلامية : تموج بأنواع التأثرات العميقة بهذا العلم النفسي وغرائبه وتناقض الأقوال فيه ، ولا يصح ان يبقى الدعاة في عُزلة عنه ، ولا بد أن يقتحموا ميدان البحث والقول النفسي ، وآيات القرآن الكريم تعينهم ، وتحليلات الزهاد وأطباء القلوب تؤسس لهم ، من مثل ما ورد في كتابات العز والغزالي والراغب الأصبهاني وابن القيم ، صعوداً إلى أصول الجنيد وطبقته ، ونزولاً إلى شروح سيد قطب ومحمد قطب وعموم الفكر الإسلامي المعاصر ، وفي رسائل الماجستير والدكتوراه خلال الحقبة الأخيرة مقدار وافر من النجاح البحثي في توضيح جوانب إيمانية تستدرك على علم النفس العام ، والدعاة خير مَن يستثمر هذا النتاج كله في حملة جدال للواهمين وحوار مع المنهجيين من أجل تحصيل المنافع في الاتجاهين معاً : اتجاه التأثير في علماء النفس وإعلامهم بما لا يعلمون من خبر الإسلام والإيمان ، واتجاه تقويم المعروض المعرفي العالمي والانتقاء منه وتعريف الإسلاميين به ، وسبق لي أن اقترحت قيام مجلس شورى نفسي في كل بلد يقوم بتحليل الأوضاع الدعوية من وجهة نظر نفسية ، وقد ينبثق من ممثلي هذه المجالس مجلس عالمي أعلى ينقح وينقد ويقترح ، وذلك لعمق إيماني بأن الحركات

النفسية للحياة هي من أهم المحركات ، وأن الخطة الدعوية يجب أن تلحظها وتفهمها وتتبع تكتيكاتها ، ولا يصح أن تبقى جموع الدعاة غارقة في العواطف إذ المعركة العلمية والنفسية محتدمة في العرصات ، وإذ (صدام الحضارات) يخرج من طوره النظري إلى طور هجوم كاسح تحميه الجيوش الغازية ، والمهمة الدعوية الدفاعية محفوفة بجفاف ولا يحبها الدعاة ، ولكنهم في حال لا يجوز فيه الانسحاب ولا السكوت ولا الرفل بنداوة العواطف فقط ، وتلزمهم ممارسة عقلية وبحثية . والصبر على لأواء الحوار مع المخالفين والعلمانيين والمتغربين ، وذلك هو طريق تعديل الاعوجاج وتصويب الأوهام وتكثير المؤيدين والأنصار ، وذلك هو تحريك الحياة في صورته المتقنة .

❑ ضرورة (الروائز النفسية) لتصنيف أنواع الدعاة

❑ في الموسوعة العربية أن الرائز النفسي هو (اختبار يسمح بأن نقيس . بطرائق علمية ، مختلف أوجه العملية الذهنية والانفعالية ، ولا سيما تلك المتعلقة بسمات الشخصية والسلوك والذكاء . والرائز test في مجال دراسة السلوك الإنساني يشير إلى طريقة منظمة وموضوعية في إعداد وتطوير مجموعة من البنود أو الأسئلة واستخدامها في الكشف عن جانب محدد من جوانب الشخصية ، وتسمح بالوقت ذاته بمقارنة الأفراد فيما بينهم في هذا الجانب حصراً ، فثمة رائز للذكاء ، ورائز للقدرات ، وآخر للتحصيل ، ورابع للشخصية ، وهكذا ، فالرائز هو مقياس موضوعي يتألف من مجموعة من البنود التي تكشف سلوكاً ما . والرائز النفسي هو تقرير موضوعي لسلوك الشخص المفحوص بعيداً عن تدخل العوامل الذاتية للفاحص أو لمصحح الرائز .) .

والمجموعة الدعوية مجموعة واسعة ، ولا بد من إجراء عدة عمليات ميدانية تصنيفية للدعاة بواسطة استعمال عدد من الروائز المتكاملة ، لتعين القيادات في

عمليات إسناد الأعمال المناسبة لكل داعية ، وإلحاقه بوظيفة دعوية يؤهل لها وتليق بمقامه ودرجته وطبقته ، وتطبيق الخطط يستدعي إجادة اختيار فِرَق العمل التخصصية ، وفقه التوثيق والتضعيف لا يكتمل إلاّ عند توفر نتائج الاختبار بهذه الروائز ، والقضية فنية ، وتحتاج فريقاً متخصصاً يتقنها ويتوسع في معرفتها ، وليس هنا مجال شرح ذلك ، وإنما حسبنا أن نشير إلى أهميتها وضرورة الالتزام بما تحويه من الطرائق المنهجية والمعايير ، مع ملاحظة ما يوجبه الفقه الشرعي والعقائدي من اختلاف عما يكون في علم النفس العام ، ومعنى ذلك أن لا نقلد حَرفياً ما تنصح به الكتابات الغربية ، بل لنا اجتهاد خاص يناسب أحوالنا الإسلامية .

وقد (وُلد الرائز مع انفصال علم النفس التجريبي عن علم النفس الأكاديمي ، وذلك في أثناء السعي إلى تحديد الملكات الرئيسية للفرد ، فضلاً عن تحديد الفروق الصغيرة بين الأفراد .) . (وكان للحرب العالمية الأولى دورها في دفع حركة روز الذكاء ، ففي أثنائها ظهرت الحاجة إلى استخدام مقاييس عقلية جمعية تطبق على أعداد غفيرة من الجنود في وقت واحد ، ووضع اختبار ألفا للجيش ، وبيتا للأميين وغير الناطقين بالإنكليزية ، لاستخدامهما في فرز المجندين وانتقاء القادة ورجال المهمات الخاصة .) .

وتفيد الروائز في التشخيص النفسي والتربوي (وتشمل هذه المعرفة أساليب تفكير المعالَج ومحاكمته ومحتوى أفكاره ، وسياقها ، وإدراكه ، وذاكرته ، كما تشمل انفعالاته وصراعاته وخبراته الشعورية واللاشعورية ، واضطرابه واستواءه ، فالروائز هي الوسيلة المناسبة بين يدي المعالِج لمعرفة واقع المعالَج أو المفحوص وحاضره وماضيه وتطلعاته المستقبلية . إنها وسيلته أيضاً لتشخيص نقاط القوة والضعف في شخصيته .) و(يساعد استخدام الروائز النفسية ، وروائز الميول والقدرات خاصة ، على توجيه الطلاب والأفراد نحو نوع الدراسة التي تلائمهم) كما (تحتاج الإدارة التعليمية إلى الروائز في اتخاذ قرارات تتعلق

بانتقاء الدارسين) (في مستويات تراتبية) وأيضاً (تستخدم الروائز كأدوات لجمع المعلومات للتحقق من فرضيات علمية يضعها باحث ما حول خصائص ظاهرة نفسية ما وانتشارها في المجتمع) .

وأهم شروط الرائز أن يكون صادقاً ، (ويشير هذا المصطلح إلى ما إذا كان الرائز يقيس فعلاً ما وضع لقياسه) □□□

□□ في الحكمة التي نجدها في بعض شعر صلاح جاهين : أن الله خلق الدنيا جميلة ، تغري من يراها ، ولها إغراء ، وثميس في مشيها مع شيء من غَنَج ، فراحت تتحرش بالناس ...

اخطفـني يااللـي تحـبني ع الحـصان
الدنـيا قالـت يـوم في ماضـي الزمان
اخطفـني يااللـي تحـبني علـى الفـرس
الدنـيا قالـت .. قام خطفها الشيطان

ودنّسها هذا الفاجر ، فامتلأت فسوقا ، لأنه كان أسرع من مؤمن وأنشط في تلك الساعة ، واستمرت هذه الظاهرة في الأجيال حتى تعوّذ عمر بن الخطاب ﷺ من جلد الفاجر وعجز الثقة .

ونسله من تلك الخطفة كثير ، منهم المائل الذي تجد خبره في البيت الذي رواه سيبويه [(١)] :

لَمّـا تمكّـن دُنـياهمْ : أطـاعهم في أي نحـوٍ يُمـيلوا دِيْنه : يَمِلِ

وسبب ذلك : الخِفّة ، كغصن تلعب به الريح ، بينما الجذع صلب ثابت .

ومنهم الفارغ المهذار الذي تقول شخصيته كما في تصوير محمد سليمان لها :

(قولوا : تركناه في الركن يهذي وحيدا .. كمذياع مقهى ..
وقولوا : يكلم ناسَ الهواء كثيرا ..
وقولوا : سمعناه أيضاً يغني .. بصوت قديم .) [(٢)] .
وهي الشخصية المحبطة التي لا تقبض منها شيئا ..
وهي الصورة البائسة التي توقف حركة الحياة ..

---

(١) لسان العرب ٣/ ٥١٧ .

(٢) جريدة أخبار الأدب المصرية .

ومنهم البرّاق اللامع الذي يُخفي طلاؤه الصدأ ..

من أستاذ جامعي يتعلم الحرفين ويختفي وراء عنوان الشهادة : فإذا حاضر ظهر الخلل وبان التقليد ..

ومن برلماني هو على كرسيه تمثال الصمت ..

وزعيم حزبي إذا حَكَم : ظَهَر العَوار وامتلأت الزوايا نهبا ..

★ وفي القوم زيفٌ مثل زيف الدراهم ★

وكم في أسواق الصيف من بطيخ فطير لم ينضج ، تنتظر من نقرة كفك عليه صدىً يأذن لك بشرائه ، فلا يجيبك ..!

☐ لكنّ الذي ذهل عنه صلاح جاهين : أنّ تلك الدنيا التي خطفها الشيطان : لها أخت شقيقة كانت مستورة عفيفة ، ولكنّ أخلاقها ومضت ، فخطبها مؤمن نقي ، فكان من تلك الخِطبة نسلٌ صالحٌ كثير أيضاً .. هم رجال الإسلام ..

● فالناس أبناء خالات امتزجوا ، وتزوج بعضهم من بعض ، وانطلت على بعضهم ما في القرين من عِلاّت ، فصارت الحقيقة المختلطة التي هي حال اكثر الناس ونتجت الشخصية المزدوجة التي صورها مصطفى عكرمة [1] ، والتي تملك خيراً يذعن للضرورة ..

(خَبّريهم : لم أزل أحيا .. ولكن .. ؟
عاكفاً دون التفات ..
مُرغَماً أقتات ذاتي ..
وحياتي .. لم تزل كل حياتي ..
رِعشةَ الطُهْرِ على جَفنِ الخطيئة ..) .

فهذا حال جمهور الناس .. وهم يقفون على مشارف الهاوية ، ويقترفون فجوراً ، ولكنْ لهم نفوسٌ لوّامة ، ويعرفون أنهم يملكون طُهرا ، فترتعش قلوبهم ، وتقعد بهم الهمم ..

---

(١) ديوان يقظة / ٥٣ .

● هنا وفي هذا الموطن تكون انتباهة نبلاء المؤمنين واكتشافهم أن الله خلقهم لإنقاذ مثل هؤلاء ، وإنجاز إصلاح في الأرض يلغي سطوة الفساد .

وهدفهم تعليم الضحايا الذين في الحيرة :

★ رفعة الطُهر عن سوء الخطيئة ★

والمنهج متوفر في الآية الكريمة : ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ .

قال الراغب الأصبهاني : (أي : اعرفه حق المعرفة ، ولم يقصد بذلك أن يقول باللسان) ورأى الراغب أن ذلك (أبلغ من حكمة كل حكيم .)[1] .

وإذا كان المؤمن يقولها ، فإن من واجبه أن يُلقنها لكل مرشح أن يكون مؤمنا ممن يرتعش طهره على جفن الخطيئة ويمارس المعصية والسوء بنفسٍ واجفة تؤمن بالله وتصرعها الشهوة .

وتلك هي فحوى قصة الحياة ، وخبر تميُّز الناس إلى جمهرتين ، وهو ما ورد في مواعظ البصائر :

(الناس رجلان : رجلٌ باع نفسَه **فأوبقها ، أو ابتاعها فأعتقها** .)[2] .

والمعنى لأول وهلة يدور حول غفلة شهواني صار أسيراً لامرأةٍ يعشقها ، أو خمر يشربها ، فعَقَل رجله أن تسيح في ساحات المروءة والعفاف ، وبقي بدناً بلا روحٍ وقلبٍ وفؤاد .

لكن هذا من قريبٍ يتوب ، **وأما المصيبة فمصيبة مسكين فقد حريته يوم ارتبط بظالم وباع نفسه بثمن بخس دراهم معدودة أو بمنصب زائل ، فأصبح يُرهبُ القريبَ والجار قبل الغريب البعيد ، وصار جزءاً من التدليس السياسي ، وشريكاً في الظلم ، وعَتَبة لصعود وَغْد ، وحَجَراً في الجدار الفاسد ، وأكثر المصلين ينحرفون بالدين عن معناه ، فيكون منهم إلحاح في ملاحقة سكّير ، ويتركون هؤلاء الذين يغتالون الحرية ويهدمون البناء الحضاري ويبددون التراكم المعرفي ، وما**

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة / ٢٣٧ .

(٢) البصائر لأبي حيّان التوحيدي ٤/ ١٣٣ .

أحوج أهل المساجد إلى وعي وإعادة تشكيل لموازينهم ولمنظومة القِيَم التي تُسَيِّرهم ، ليدركوا أن الخير لا يجري إلا على يد مؤمن ، ويخساً صادٌّ عن الشريعة أن تصنع يده نفعاً أو تهبط عليها بركة ، وإنما الإصلاح صنعة الصالحين .

□ أجيالٌ في رُخصٍ .. سيستأنف النغمُ مُحرِّكَها ..!

□ وأشكال السوء كثيرة ، ولذلك يجب أن تكون أشكال الاستدراك والإصلاح كثيرة بالمقابل ، وذلك ما يجعل القضية تخرج عن المقدرة الفردية ، ويوجب قيام " عمل دعوي جماعي " هو الأقدر على البذل المتنوع والأداء التخصصي المكافئ . ففي الساحة شرود نفسي ، وانحراف قلبي ، وخطأ فكري ، وكذب إعلامي ، وخلل تنموي ، وتدليس سياسي ، وضياع لخُطة ومنهج موزون ، وإنما الأمل في جماعة مركزية تُصلح أطراف الحياة وتقود الناس بالتدرج والحكمة نحو الموزونية والإنتاج والإنصاف ، وتضع لكل عيب علاجا .

والشاعر الكوري شاون صنج بيونج مصيبٌ حين يقول :

(السبب الذي يجعلني أبكي ..

في حزن حيوان جريح .. هنا فوق التل ..

ليس فقط أن النهر يسري إلى البحر ..)

فليست محنتنا أن الجهود تُهدر فقط ، بل هناك نزيف ، وضياع وفقدان ثقة ووساوس ومخادعات وأوهام ..!

وظاهرة " الإلماع " في الحياة : ظاهرة تتكرر ، تغري الناظر ، حتى إذا استأنس بشيء : لم يجده كما ظن ...

تَكَذَّبُ النفوسَ لمعتُها   وتَحورُ بَعدُ : آثارا

كما قال عدي بن زيد [1] .

---

(١) لسان العرب ٣/ ٣٩٥ .

فهي تلمع وتتلون ، لكنها بعد قليل تتحول إلى مجرد هشيم ، كمثل عيدان النبت تظنها وافية بعد ان تيبس وتكون تبنا يلمع ، فتلمسها ، فتكون فتيتاً .

وذلك منظر صغير ، لكنه عنوان لظاهرة في الحياة كبيرة ، وفهم محتواه هو جزء من " الوعي النفسي " المطلوب .

● وطالما أن المرض هو مرض نفسي ، فالعلاج يكون نفسياً أيضاً ، ويكون في استشعار الفقر إلى الله في كل شيء ، كما قيل لسفيان بن عيينة : (من أفقر الناس ؟ قال : ليس أحد دون أحد . قال الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فاطر/ ١٥)[1] .

فكل أحد فقير إلى الله . فقير مال ، والله الرازق . وفقير صحة وقوة ، والله الواهب . وفقير علم ومنهج وفكر ، والله الهادي . وفقير وعي وخبرة وخطط ولباقة ، والله الملهم . وفقير سياسة ، والله الحاكم ويمنح العزة .

وكما يلبس السائق نظارة عاكسة تعكس وَهج أضواء السيارات المقابلة له ، وينبهر بدونها فيصطدم : تلزم الواحد مِنّا مصفاة و " فلتر " في طريق الحياة ، وهو فلتر الشرع ، فيمنع عنه صغار الحوادث ، صعوداً إلى أكابرها ، فيمنع صدام الحضارات .

● والداعية يعظ نفسه بذلك ، ويعظ الآخرين ، ولكنه في الوقت نفسه ينظر نظرة واقعية إلى المجتمع ، فمعظم الناس من حوله ينطبق عليهم وصف مصطفى عكرمة في أنهم تنفضهم " رِعشة الطُهر على جفن الخطيئة " ، فهم يقارفون ، ولكن القلوب والعقول والمكونات الداخلية النفسية فيها بقايا انتباه وإيمان واعتراف والحياز لجانب الحق والمعروف ، وما ثمّ غير شهوة ، والنوايا جازمة أن إذا جَدّ الجد ووصلت الأمور إلى المساس بقضايا الأمة الكبرى وبأصل الدين : فإنّ المفاصلة تحدث وهُم مع التوحيد ، ومع الشرع ، والانتساب إلى السلف مؤكد ، والانضواء تحت الراية حتمي . وهذه نظرة في " توثيق جمهور الأمة " مهمة ، وهي قاعدة في التخطيط والعمل ، وتسندها شواهد التاريخ ، والتجربة الدعوية تخالف في ذلك من يتشدّد ويتهم الناس بسبب غفلاتهم ، بل الغفلات حالات طارئة وأمراض

---

(١) البصائر ٧/ ١١٩ .

خفيفة ، والناس إن شاء الله ثقات ، وتكمن في القلوب الذاهلة بذور خير تنتظر النماء إذا سقاها تربوي يتودد ، أو قادها عند منعطف الحَيرة مبدع مبادر .

☐ سعة مساحة السماحة

☐ ومحور العملية الدعوية : أن نقوم بتعليم الناس اليقظة ، وأن يكونوا أبرارا ، ومن الخطأ إجفال الناس ليهربوا لنركض خلفهم .

قال الراغب الأصبهاني : (والبرّ : السعة في علم الحق ، وفعل الخير . وهو مشتق من البَرّ ، أي السعة في الأرض ، وهو المعبّر عنه بانشراح الصدر واطمئنان القلب .)[1] .

● وهذا إيجاز للمنهج الدعوي في التربية ، وديدنه أن يتعدى الصورة نفوذاً إلى الأصل والجذر ، و " السعة " وصفٌ جامع ، وكما أنها سعة في القلب فيكون فسيحاً مفتوحاً : فإنها سعة في علم الإسلام والفكر والمتممات المعرفية والعلمية المدنية . والداعية يبرأ من الضيق وانحباس المساحة وصناعة الأسوار ، وإن الشهوات كلها مضايق وانحباس وتسبّب جلاء البَركة وانقطاع الرزق وجفاف الأفئدة ، وليس من المنطقي إخراجهم من تلك السجون إلى رهق المبالغة والتنطع ، بل اليُسر والحُبّ وحسن الظن ونظر التوثيق عرصات يتجول في أطرافها المؤمنون ، والقضية مستندة إلى نظر في " الفقه النفسي " صحيح ، والناس بعد أداء الفروض واجتناب الكبائر أحرار ، ولا يسوغ أن تستعبدهم اجتهادات الغلو ، وإنما الخير والفضائل في منهجنا هي منازل علو ، نغري الجميع أن يرتقوها ويصعدوا في المدارج ، بلطف وتشويق وتدرج ، ولا نعترف بتكلّف وعبوس وحراسة وسَوق بإكراه ، وإذا كانت حقوق الله مبنية في الفقه على المسامحة خلافاً لحقوق العباد المبنية على صرامة الاقتضاء ، واليُسر يغلب عُسرين ، والنبي ﷺ يمدح مؤمناً سَمْح البيع سمح الشراء : فالقياس إذاً يَطّرد ويستقيم مدح مؤمن سمح الموعظة ، سمح النهي عن المنكر ، سمح التوثيق ، سمح

---

(١) الذريعة / ٢١٢ .

التضعيف ، سمح التربية ، سمح التفقه والاجتهاد ، وسمح التخطيط والقيادة .

ويمثل هذا تفسر استدراكات الأئمة حين إيرادهم الصفات الثقيلة الوطأة ، كجعل الحسن البصري الحزم مشروطاً باللين ، والحُكم مقيداً بالعلم [1] .

● ولست أجد لوصف السماحة في شخصية الداعية أقرب من وصف العربي للنخلة ، وكيف أن طَلْعها في البداية : (ينشق عن مثل اللؤلؤة ، ثم لا ينشب أن يصير مثل الزمرّد الأخضر ، ثم لم ينشب أن يصير مثل الياقوت الأحمر والأصفر ، ثم لا ينشب أن يَيبس فيُصرم ويُدّخر ، فمنه طعام المقيم ، وزاد المسافر ، وتُحفة الصبي إذا بكى .) [2] .

فكذلك الداعية اللؤلؤة هو : يتلون ، وكما يتنوع الرُطب بين أحمر وأصفر : يتميز عطاء الدعاة ، بين مُرَبٍّ يعظ ، وسياسي يناور ، وفقيه يفكر ويجتهد ، وكلهم ذخيرة الأمة إذا عركهم التجريب ، وبنتاجهم وآثار بذلهم يثبت الذين هم في معركة التحدي ، ويستقر القلقون ، وتتلقن الأجيال الصاعدة خبر استعلاء الإيمان ، فتمتنع عن بكاء التاريخ وندب الأيام وتضعيف الناس ، بل تنطلق في درب الإصلاح والإبداع ، ولا أجد هذا العربي مُغربا ، ولا وصفي لعطاء الدعاة متكلّفا ، لأننا نتابع تشبيه النبي ﷺ حين قال : (مَثل المؤمن كالنخلة) .

● ثم هذه التلوّنات وتلك السماحة لا تمنعانه أن يُبالغ في إيمانه حتى يبلغ اليقين ، وأن يخشع في صلاته حتى تكون ركعاته مدرسة .

وقد وصف حاتم الأصم صلاة الخاشع ، وكيف ينبغي أن :

يتمثل الصراط تحت قدمه ، والجنة عن يمينه ، والنار عن يساره ، ومَلك الموت وراء ظهره ، والكعبة قبلته .

ثم يكبر تكبيراً بالخوف ، ويقرأ بالترتيل ، ويركع ركوعاً بالتمام ، ويسجد

---

(١) البداية والنهاية ٩/ ٢٨٢ .

(٢) البصائر ٢/ ٣٦ .

سجوداً بالتواضع ، ويتشهد بالرجاء ، ويسلم بالرحمة .[1]

● ويَشرع في مضاعفة عملية التصفية والتنقية ، ففي بضاعة السوق فكرٌ في تخليط ، وجاهليات مختفية بين طيّات الإيمان .

(وقيل للمتعبد : ناسِكٌ ، لأنه خلّص نفسه وصفّاها لله تعالى من دنس الآثام ، كالسبيكة المُخلّصة من الخَبَث . وسئل ثعلب عن الناسك ما هو ؟ فقال هو مأخوذ من النسيكة ، وهو سبيكة الفضة المصفّاة .)[2] .

● ويلقن نفسَه تمام التوكل ، مُنصتاً لقول الحسن البصري :

(**يا ابن آدم : إن من ضَعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يدي الله عز وجل .**) .

وإذا تعاهدت جمهرة الدعاة هذا النوع من التوكل : يحصل توكل جماعي نحن بحاجة إليه ، فالأسباب تُراعى ، والانتظام أساس الارتكاز ، والخطط مظنة الإنجاز . ولكنْ قبل ذلك وبعده : ثقة بالله أنه لا يترك عباده وحدهم ، بل يرسل ملائكته يردفونهم ، ويمنح البَرَكة التي تجعل الضعيفَ قوياً ، ونعمت الثقة بربٍّ يُعز دينَه .

● وهذه التصفية ، ثم هذا التوكل : هما بعض الأصول الأساسية في عملية التربية الإيمانية ، والتي عناها الراغب الأصبهاني حين قال :

(لا يستطيع الوصول مَن ضيّع الأصول) .

ومن ثَمّ قال : (فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور ، ومَن شغله الفضل عن الفرض فمغرور .)[3] .

في إشارة إلى بدعة تضييع الصلاة بدعوى تزكية القلب والاهتمام بالمعرفيات والفكر .

وكما أنها أصول العقيدة يَعنيها هذا الشعار : فإنها أصول الفقه يعنيها كذلك . فإن العقلية الأصولية التقعيدية الاستنباطية هي وقود التحريك ، والأسلوب

---

(١) البصائر ٧/ ١٤٦ .

(٢) لسان العرب ٣/ ٦٢٨ .

(٣) الذريعة / ٩٤ .

التاصيلي هو جذر السلوك الإبداعي .

● ومن شأن " المؤمن الإبداعي " أن يبني شخصيته التامة التي يصلح بها أن يكون رائداً وقيادياً وقدوة في الخير ومحور تحريك للحياة ، وهذه العملية البنائية تنقسم إلى طريقين متميزين التفت لهما الزاهد أبو علي الدقاق فقال :

(طريق السالكين أطول ، وهو الرياضة ، وطريق الخواص أقرب ، لكنه أشق ، وهو أن يكون عملك بالرضا ، ورضاك بالقضا .)[1] .

ففي هذا تنبيه إلى ظاهرة مفادها أن حركات الحياة قصيرة وطويلة بحسب الوسائل ، وللاختصار ثمن وكلفة زائدة ، ومهندس السيطرة ينبغي أن يراعي ذلك في خططه .

أما من الناحية الموضوعية : فإن هذا التميز بين الطريقين يكشف عن منهجين في الإعداد الذاتي : منهج الرياضة ، وفيه إلزام بدني بصلاة وصوم وخدمات للناس ، وجوانب مادية يقترفها بشكل إيجابي ، مثل إنفاق المال ، وبشكل سلبي ، مثل ترك الملذات الحرام والمشبوهة ، ولا بد أن تختلط هذه الممارسات البدنية والمادية بشيء من العمل القلبي النفسي ، من تزكيةٍ وتمحيصٍ للنوايا ، بالتسلسل المشروح في تهذيب مدارج السالكين .

ومنهج الرضا والاستسلام لاختيار الله ما دام الأمر ليس شراً في عُرف الشرع ، فعندئذ يكون قَدَر سوء ندفعه بقدر خير ، لكن إذا كان الأمر من القدر الذي لا يمكن دفعه ، من موت قريب وحدوث كوارث ، فالتسليم والمطاوعة وتأول وجود خير يريده الله من ذلك ، أو حكمة ، أو هي عقوبة عادلة لذنب اقترفه ، فيذعن لها ، وهذا الطريق مبدؤه أعماق النفس وتصرفاتها ، وبعض المؤمنين يمكنهم السيطرة على نفوسهم وحملها على الرضا ، ولكنْ بمشقة ، وهؤلاء هم الذين يُختصر لهم الطريق وتصل بهم المساعي إلى نفس قيادية ، وبعض المؤمنين ضعاف لا يستطيعون ذلك ويملكهم الجَزَع ، فيكون طريق الرياضة لهم أولى ، والكل يُنتج ، ولكن الإثمار عاجل وآجل ، وكل ميسر لما خُلق له .

---

(١) الرسالة القشيرية / ١٥٢ .

والمربي يوزع تلامذته ويفرزهم إلى رهطين بحسب فراسته فيهم، مع أن طريق "التفويض" والرضا والتسليم صعب جداً ولا تستطيعه غير نفوس قوية نادرة. وقد لا يكون المربي نفسه من أهل التفويض التام، وفحص الواقع يرينا أن توازي الطريقين أقرب إلى المحال، ولكن **تتابع الطريقين هو الأليق الأوفق** الممكن، أي إتقان الرياضة، أي السير في المنازل والمدارج المتصاعدة حتى يصل إلى درجة عالية يستطيع فيها التفويض.

وهذه الظاهرة والملاحظة ترينا أن "النفس" كمخلوق خلقها الله تعالى هي أعقد وأصعب بكثير مما يظنه علم النفس الغربي وما يفهمه أطباء النفس منها، ففيها طبقات سطحية وأخرى عميقة، وعلم النفس وطب النفس إنما يعالجان الجزء السطحي منها عن طريق الجلسات والانفتاح في الكلام مع المريض، أو الارتقاء بمستوى الأسوياء عن طريق المنهجيات التربوية المعروفة في التعليم الغربي، وأما الطبقات العميقة والمستويات الخاصة التي يصل فيها المرء إلى التجرد والعدل وشعور العزة والمسؤولية الأخلاقية والحساسية التامة تجاه اختلاطات الظلم: فهي صنعة إيمانية إسلامية محضة لا يبلغها كافر مهما زعم علمه بالنفس وطبّها، وقد أنتجت التربية الغربية شجعاناً ومفكرين ومبدعين، لكنها لم تطهرهم من المفهوم الاستعماري، وبلغت المناهج الديمقراطية الأوج، ولكنها لم تصدهم عن استعباد الشعوب الأخرى، بل لم تمنعهم عن استخدام وسائل معيبة عند تنافسهم، والانفجار المعرفي الغربي أعجوبة، ولكنها معرفة مختلطة بتزوير وفيها انحياز ورواسب عصبيات وتكبّر وغرور، وهذه الظاهرة تسمح بتوجيه نصيحة إلى مدربي الإبداع وعموم التربويين في الأمة الإسلامية اليوم أن لا يكون نقل التجربة الغربية في ذلك نقلاً تقليدياً وحرفياً، بل أول طريق الإبداع أن يطوروا طرائقهم، بتحويرها إلى طرائق تستحضر مقتضيات الإيمان، وتستمد من التراث وتجارب السلف من الزهاد والمجاهدين ورجال الحضارة الإسلامية، مع استثمار خواطر معرفية ضخمة في حجمها وردت في الأدب وأبيات الشعراء وفي ثنايا تحليل التاريخ وفقه اللغة ومحاولات التفلسف.

□ التربية المنهجية تصوغ الظواهر الأخلاقية الجامعة

□ أما أوجنا الذي بلغناه فمختلف ، وقد أنتج النماذج الفريدة في صفاتها ، بما في الإسلام من حقائق تكامل ومدى إنساني عام هَدَر العصبيات ، بل حتى قبل الإسلام أنتجت بقايا الحنيفية الإبراهيمية الأخيار ، وكانت من ميزات خيريتهم : الاستمرار ، والبقاء على وتيرة الجد والعلو ، دونما هبوط .

ولذلك كان "ذوو الهيئات" عند العرب يحتلون منزلة خاصة .

و(الهيئة : صُورة الشيء وشَكْلُه وحالته .) ويريدون بذلك (ذوي الهيئات الحسنة ، الذين يلزمون هيئة واحدة وسَمْتاً واحدا ، ولا تختلف حالاتهم بالتنقّل من هيئة إلى هيئة .)[1] .

على هذا فإن كون الحياة متحركة لا يعني تسويغ الصعود والنزول ، ولكن البقاء في مستوى العلو هو أوفى الحركة ، لأنه يتطلب عزماً فيزياوياً مكثفاً ، بسبب معاندته الجاذبية ونوازع النزول ، وحركته تتبين في استمراره ودأبه ، لا في تذبذبه .

● ثم بان التميز أكثر بتكوين طبقات من الأخيار ، فالأمر تعدى الاقتصار على الأداء الفردي ليكون ظاهرة اجتماعية ، ونجحت التربية في تكوين مجموعات تحكمها أنساق فكرية واجتهادات موحدة وصياغات ذوقية وأخلاقية متقاربة ، فصارت تلك المجموعات تمثل عنصر الاستقرار والرسوخ الاجتماعي ، وعامل حفظ الوحدة ، وعنوان هوية الأمة ، وتمثلت في مذاهب الاجتهاد الفقهي ، وتكتلات المجاهدين والمرابطين على الثغور ، وأرهاط الزهاد والمتصوفة قبل دخول البدعة عليهم ، بل وحتى نجد مسحة من ذلك في تضامن التجار ، وتعاطيات الأدب واللغة العربية ، وذلك هو الشأن الحضاري حين تتكامل عناصره .

● بل وأكثر من ذلك ، فإن هذه الظاهرة التي تصعد بالطباع والأخلاق إلى مستوى جماعي كانت من القوة بحيث حفلت بها اللغة العربية كثيراً واعتنت

---

(١) لسان العرب ٣/ ٨٥١ .

بتوصيفها وإطلاق التسميات والاصطلاحات عليها وتوغلت في تعريفها وبيان أجزائها عبر التوسع في الاشتقاق والتركيب من جذورها .

وقد تولى أبو الفتح عثمان بن جني بيان ذلك فقال :

(بابٌ : في تلاقي المعاني ، على اختلاف الأصول والمباني .

هذا فصل من العربية حَسَن كثير المنفعة ، قوي الدلالة على شرف هذه اللغة . وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة ، فتبحث عن أصل كل اسم منها ، فتجده مُفضيَ المعنى إلى معنى صاحبه .

وذلك كقولهم : " خُلُق الإنسان " فهو " فُعُل " مِن خَلُقْتَ الشيء ، أي : ملَّسته ، ومنه صخرة خَلْقاء ، للملساء . ومعناه أن خُلُق الإنسان هو ما قُدِّرَ له ورُتِّب عليه ، فكأنه أمرٌ قد استقر ، وزال عنه الشك . ومنه قولهم في الخبر : " قد فرغ الله من الخَلْق والخُلُق " . والخليقة فعيلة منه .

وقد كثرت فعيلة في هذا الموضع . وهو قولهم : " الطبيعة " ، وهي مِن طبعت الشيء ، أي قرّرته على أمر ثبتَ عليه ، كما يُطبع الشيء ، كالدرهم والدينار ، فتلزمه أشكاله ، فلا يمكنه انصرافه عنها ولا انتقاله .

... و " النحيتة " كالخليقة ، هذا من نحت ، وهذا من خلّقت .

ومنها " الغريزة " ، وهي فعيلة من غرزت ، كما قيل لها طبيعة ، لأن طبع الدرهم ونحوه ضربٌ من وسمه ، وتغريزه بالآلة التي تُثبت عليه الصورة ، وذلك استكراه له وغمز عليه ، كالطبع .

.. ومنها " السجية " هي فعيلة من سجا يسجو إذا سَكَن ، ومنه : طرْفٌ ساجٍ ، وليل ساج ...

.. ومنها " الطريقة " ، من طَرَّقت الشيء : أي وطّاته وذلّلته ، وهذا هو معنى ضربته ، ونقبته ، وغرزته ، ونحته ، لأن هذه كلها رياضاتٌ وتدريب واعتمادات وتهذيب .

ومنها " السجيحة " ، وهي فعيلة من سَجِح خُلُقه ، وذلك أن الطبيعة قد قرّت واطمأنت فسجحت وتذلّلت ، وليس على الإنسان من طبعه كُلفة ، وإنما الكُلفة

فيما يتعاطاه ويتجشمه ...

وقال الأصمعي : إذا استوت أخلاق القوم قيل : هم على سُرجُوجة واحدة ، ومَرِن واحد ... فسرجوجة : فعلولة ، من لفظ السَّرْج ومعناه ، والتقاؤهما : ان السرج إنما أُريد للراكب ليُعَدّله ، ويزيل اعتلاله ومَيْله ، فهو من تقويم الأمر ، وكذلك إذا استَتَبّوا على وتيرة واحدة فقد تشابهت أحوالهم وزاح خلافهم ، وهذا أيضاً ضربٌ من التقرير والتقدير ، فهو بالمعنى عائد إلى النحيتة ، والسجية ، والخليقة ، لأن هذه كلها صفاتٌ تؤذِن بالمشابهة والمقاربة ، والمرِن مصدر ، كالحِلف والكذِب ، والفعل منه : مَرَن على الشيء إذا ألِفه ، فلانَ له . وهو عندي من مارِن الأنف : لما لانَ منه ، فهو أيضاً عائدٌ إلى أصل الباب ، ألا ترى أن الخليقة ، والنحيتة ، والطبيعة ، والسجية ، وجميع هذه المعاني التي تقدمت : تُؤذِن بالإلف والملاينة ، والإصحاب والمتابعة !

ومنها « السليقة » ، وهي من قولهم : فلان يقرأ بالسليقة ، أي بالطبيعة ، وتلخيص ذلك أنها كالنحيتة ، وذلك أن السليق ما تحاتّ من صغار الشجر ...

وذلك أنه إذا تحاتّ : لانَ وزالت شدته ، والحتّ كالنحت ، وهما في غاية القرب .. وهذا هو نفس المعنى .. كله التمرين على الشيء ، وتليين القوي ليُصْحِب وينجذب .) [1] .

وأنا أرشح هذه الجمهرة من التسميات لعلماء النفس أن يستخدموها لوصف مذاهبهم .

فالإصحاب والمتابعة والانجذاب ، وتليين القوي : كلمات يسيرات يوردها فقه اللغة ، لكنها تحمل أكبر المعاني المؤثرة في تحريك الحياة عبر الطرائق التربوية ، ومَن يروم الإصلاح ويعمل سياسياً إذا أراد تمام التأثير : عليه أن يُدرك أن وسيلته لذلك تكمن في الذي أشار إليه الأصمعي وأبو الفتح من تكوين مجتمع الإلف وتحقيق الوتيرة الواحدة بين الأتباع وتشابه الأحوال في الجنود وإزاحة الاختلاف ، وإنما تأتي هذه المنح بالرياضات والتهذيب التربوي والتدريب ، وهذه هي تعابيرهم الآنفة ،

---

(١) الخصائص في اللغة ٢/ ١١٤-١١٧ .

وكل ذلك فكر قديم تكاملت له أوصاف الإبداع ، وقد تداوله السلف ، وهم أبرع من سذّج تاهوا في دروب الارتجال في آخر الزمان ، وغمرتهم العفوية ، ولم يتنبهوا إلى تأصيل خططي إبداعي كانت أفكاره الجزئية الكثيرة تتفجر خلال محاورات علمية ولغوية تحت قباب مساجد بغداد والبصرة ودمشق والقيروان وفاس !!

□ عُشارية صناعة الإلف والمقاربة والسجيّة

□ والوصول إلى ذلك واضح في الأدب الشرعي والإيماني ، وما هو بصعب ، ولكنه متشعب ويحتاج شيئاً من مراعاة التكامل وضَمّ خُلُق إلى خُلُق وتكوين حصيلة متنوعة يردف بعضها بعضا ، وخلفية الاستمداد واسعة ، لأن كل وصايا الدين وتجارب المسلمين تصلح لذلك ، بل ويمكن اقتباس بعض تجارب الإنسانية والشعوب ، ولذلك تعدّدت مذاهب الاجتهاد في هذا المضمار ، وأنا قد أفصحت في مجمل مباحث فقه الدعوة عن أكثر من اجتهاد أراه ، وأما في هذا الموطن بخاصة فإني أرى أن إلف الدعاة ووحدة سجاياهم تحققها أخلاق عشرة :

● وأول ذلك "النوايا" ، وهي كبرى "الأصول" .

وروى التوحيدي أن حكيماً قال :

(أحيوا قلوبَ إخوانكم ببصائر نيّاتكم كما تُحيون مواتَ البلدِ بنوامي البذر ، فإنَّ نفساً تُنقَذُ من الشبهات أفضل من أرض تُصلحُ للنبات .)[1] .

وهذه الوصية تكشف عن أن النيات ليست سواء ، فهي بلهاء وذات بصيرة ، ومن لم تقده نية الإصلاح كان الخاسر ، لأن ألوفاً من الناس الحيرى لو تركهم المصلح على محجة بيضاء وقلوب مستقيمة لسهل عليهم تناوش الإبداع والإنتاج وإضافة مفيدة للحياة من كل منهم ، وفي كل موسم يكون منهم مثل ذلك ، لأنّ سواء النفس يقود إلى الإيجابية الذاتية ، وبذلك يستبين فضلهم على الزرع ، وفي هذه

---

(١) (٢) البصائر ٨/ ١٥ ، ٥/ ٣٩ .

الحقائق ما يحرك كل مؤمن إلى أن ينضم إلى زمرة الإصلاح الاجتماعي والسياسي، لتطهير حياة الناس من الشبهات وانحراف الشهوات، ليس ليكسب الأجر في آخرته فحسب، بل ليرعى دنياه أيضاً، ويرفع معيشة عائلته عن حد الفاقة.

وقُدّم زاهد إلى المحراب ليصلي بالناس، فقال: استووا رحمكم الله!

ثم تراجع إلى الصف وأبى.

قال: (إني استحييتُ من ربي أن آمركم بالاستواء وأكونَ مقيماً على عِوَج.)[٢].

وتأخره مرجوح، وفي ذلك مسحة تكلّف يميزها الفقيه، لكن المربي يجد في القصة موعظة.

فالداعية إمام لمَن حَوله، يقول لهم: استووا على أخلاق وأدب وحكم شرعي وإصلاح. فأنّى ينبغي له إفتاء نفسه بعوَج يحرف استقامتهم؟

بل يشدد على نفسه ويأبى أن يكون أول مخالف!!

وكان أحد الزهاد في رحلته إلى مكة يتهم نفسه ويخشى أن تكون نيته مخلطة، وقد ابتدع أن يقول:

(يا رب، هي مملكةٌ تحتمل الطُفيلي.)[١].

وحُسن الظن بالله أولى، وعَرَفة موطن الغفران، ولكن إن استكثر أحدٌ على نفسه عملاً دعوياً يرشحه القَدَر له، فليقل مثل قول الزاهد: إنها مملكة تحتمل الطفيلي، فتصحيح النوايا يحصل من خلال السير، ولا يستلزم الانتظار، وليست عملياته معقدة، وإنما هي عزمة جازمة في لحظة حاسمة تضع لكل شيء قدْرا وتتحول مخاطرات الشيطان إلى خواطر تستمد من الرحمن.

● والإخاء مورد إلف ثان، وفي قنواته تجري أمانةٌ وآراءٌ مُسدّدة.

لنا جُلساءُ ما نَملُّ حَديثَهم	ألِبّاءُ مأمونونَ غيباً ومشهدا
يفيدوننا من عِلمِهم عِلمَ من مضى	وحُكماً وتأديباً ورأياً مُسدّدا

---

(١) الرسالة القشيرية / ٢٢٤.

وأيضاً هناك شيء ثمين آخر نسيه الشاعر وذكره التابعي مجاهد فقال : (لو لم يُصِب المسلم من أخيه إلاّ حياءً منه يمنعه من المعاصي : لكان في ذلك خير .)[1] .

ثم يبلغ الإخاء مبلغاً أبعد ، وتمتزج الأرواح ، فتكون للحر المؤاخي المنتسب لعشيرة الدعاة مشيئة أخرى جماعية هي غير ما اختص به لما كان سائباً ، ولما يكبر ويكتب مذكراته ويروي تاريخه يشرع يفخر ويقول فيها[2] :

وكـنـتُ إذا عقـدتُ حبال قـومٍ
صـحبتُهُمُ وشـيمتيَ الـوفاءُ
فأحسنُ حين يحسنُ مُحسنوهم
وأجتنبُ الإساءةَ إن أساءوا
أشاءُ سوى مشيئتهم فآتي
مشيئتَهم وأتركُ ما أشاءُ

فهو وفاء للمصالح الجماعية ، والخلاع عن الفردية ، وتغليب لمنافع جمهرة الدعاة على القضايا والأهوية الشخصية ، وبمثل هذه النوايا الخيرية وسلوك الإيثار ونكران الذات تكون وحدة الكتلة الإسلامية وترسخ المواقف الإيمانية في أرض الزلازل وأوقات الاهتزاز ، ويطفق القائد يخاطب الجبل المائد أن اثبت ، فإن عليك كلّ صادق ووفي ومحسن !!

● والاتحاد ، ونفي التحاسد ، ودوام الانتباه : أخلاق هي عنوان المحطة الثالثة في عُشارية بناء السجية المتجانسة .

ومن قول يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي أن :

(لا يغرنّك حُسنُ رأيٍ ، فإنما تفسده عثرة .)[3] .

وهذه العثرات من العقلاء والسادة والقادة والمربين هي التي لطالما شوّشت

---

(١) (٢) البداية والنهاية ٩/ ٢٣٧ / ٢٧٦ .

(٣) العقد الفريد ٤/ ٢٩١ طبعة العلمية .

وأوجدت قلقاً في طريق الدعاة السلس المناسب ، فبينما يمسي الواعي جذلاً فرحاً بنظره الصائب : تثقل عليه وطأة رأي تحركه العصبية ، أو ينميه سوء ظن ، فتكون الفلتة عند الحوار ، فيكون الرد وطلب الدليل ، فيكون التصلب ، ولربما نشأ افتراق ، وذلك من مظاهر انتفاء العصمة عن البشر مهما نبلوا .

وأكثر ما تكون عثرة النبيل عندما يدخل حاسد بينه وبين ثقة من أصحابه ، وفي مثلها كانت شكوى بريء خاطب أستاذه أنه ما وجد من أمره غير (**نفثة حاسدٍ زخرفها على لسان واشٍ ، نبذها إليك في بعض غِرّاتك : أصابت مني مقتلاً ، وشفت منه غليلاً .**)[1] .

فوجود الحسود أمر لا يستغربه فاحص لمجاري الحياة ، لكنّ "بعض الغِرّات" هذه هي المستغربة من أهل العلم والفضل ، ثم هي التي تعكّر الصوافي .

لذلك كثرت الوصايا الصريحة من القادة في هذا المعنى ، حتى في مثل جماعة النور المتجردة للعبادة بعيداً عن مزالق السياسة ، ووجدتُ بديع الزمان يوصي أصحابه أنْ (اخوتي الأعزاء : إنّ أول ما نوصيه وآخره : الحفاظ على الرابطة فيما بينكم ، والحذر من الأنانية والغرور والمزاحمة ، مع أخذ الحذر وضبط النفس .)[2] .

وجذر الحذر يكمن في "الرؤية النفسية" التي تؤدي إلى النسبية في التعامل مع الزمان والمكان والناس ، وشاهِدُها المثل الذي استشهد به بديع الزمان نورسي[3] :

أرض الفـلاة مـع الأعـداء فـنجانٌ

سَـمُّ الخِـياط مـع الأحـباب مـيدانٌ

فهذه الظاهرة الحيوية تجعلنا نُلح في تأكيد معاني التحابب والاخوّة والمصالحات وأي مسلك تعاضد وتعاون ، فإنه بداية العلاج النفسي للأمراض الجماعية .

وكأن حياة الدعاة اليوم بحاجة إلى لمسة كان قاضي البصرة كعب بن سَوْر

---

(١) العقد الفريد ٤/ ٣١٤ طبعة العلمية .

(٢) الشعاعات / ٣٦٧ .

(٣) اللمعات / ٢٥ .

الأزدي قد أضافها إلى صورة حياة المسلمين في صدر الإسلام وما زال لونها الجميل يشع جمالاً ، فإنه لما وقعت وقعة الجمل : (اعتزل الفتنة ، فقيل لعائشة إنْ خرج معك كعب لم يتخلف من الأزد أحَد ، فركبت إليه ، فكلمته ، فأخذ مصحفه ونشره ، وخرج بين الصفين يُذكّر الفريقين ويدعوهم إلى السلام ، والقتال ناشب ، فجاءه سهم فقتله .)[1] .

وحين ينشط الشيطان بين الدعاة ويكون خلاف وتقرعُ الآذانَ لغةُ هَدَر وجُزاف وغيبة وسُخرية الثقات من أنفسهم : تظهر الحاجة لمصلح قرآني إيماني على هذا النمط الجريء ، يقف بين الصفين واعظاً لائماً يطالب بحق الأجيال القادمة . ويكون وكيلاً عن المستقبل الإسلامي يدعو لكفالته ، وليصبه سهم طائش كما أصاب الأزدي ، وليذهب شهيداً في سلسلة شهداء الإصلاح ، لم لا ؟

وإنّ نداء الممس الحَيي من بُعدٍ لا يكاد يسمعه أحد إذا اللغو علا ...

● وبعد ذلك يليق الصبر ، وهو أمر صعب ، ولكن الحصيف يتدرب على احتمال المكروه ، ويتدرج ويتلطف ، جرياً مع ظاهرة في الحياة ، فإن الله تعالى يُلهم الحيوان التدريب ، وفي فطرة الإنسان شيء مثيل .

فمن ذلك : ما تفعله البقرة الوحشية من تعفير ولدها ، وذلك إذا (قطعت عنه الرضاع يوماً أو يومين ، فإن خافت أن يضرّه ذلك : ردّته إلى الرضاع أياماً ، ثم أعادته إلى الفِطام ، تفعل ذلك مرّات حتى يستمر عليه ، فذلك التعفير ، والولد : مُعَفَّر . وذلك إذا أرادت فطامَه . وحكاه أبو عبيد في المرأة والناقة . قال أبو عُبيد : والأم تفعل مثل ذلك بولدها الإنسي) (تُرضعه بين اليوم واليومين : تبلو بذلك صبرَه .)[2] .

وكذلك يُفعل بالنخل ، ويسمى العَفار ، وهو (أن يُترك النخل بعد السقي أربعين يوماً لا يُسقى ، لئلا ينتفِض حملُها ، ثم يُسقى ، ثم يُترك إلى أن يَعطَشَ ، ثم يُسقى .) .

---

(١) الأعلام للزركلي ٥/ ٢٢٧ نقله عن أخبار القضاة لوكيع .

(٢) لسان العرب ٢/ ٨٢١ .

والداعية أولى الناس بالصبر ، وعليه أن يستقبل المصائب بروح التفاؤل ، فإنه لا يدري ما هو مخبوء له من خير ، والتأول أقرب المسالك إلى الفرج ، وله مع فقه الشاعر سعيد بن حُميد التقاء [1] ...

لا تعـتبنْ علـى الـنوائبْ   فالدهـر يُـرغمُ كُـلَّ عاتِـبْ
واصـبر علـى حَدثانـهِ   إنّ الأمـور لهـا عـواقِبْ
والدهـرُ أولى مـا صَـبرْ   تَ لـه علـى كَـدَرِ المشاربْ
فلكـلِ خالـصةٍ قَـذى   ولكـلِّ صـافيةٍ شـوائبْ
كـم فـرحةٍ مَطـويةٍ   لـك بـين أثـناء الـنوائبْ
ومَـسَرّةٍ قـد أقـبلتْ   مـن حـيثُ تُنتظـرُ المـصائبْ

والقصص في ذلك كثيرة صادقة ، والتجارب وافرة ، ومَن جزل إيمانه واستتب يقينه يُطلع اللهُ قلبَه على جريان الأقدار ويشرع يفهم الكثير مما يستغلق على العَجول القلق المشمئز ، وتميل به فراسته إلى السكون ورباطة الجاش ، ولن يطيش عند غوامض الأقدار غير غافل عن سنن الله في الأنفُس ، وأما اللبيب المتمرس بموارد الحسنات ومصادر السيئات فإنه يعي قوانين الجزاء وطرائق الاستدراج والقمع أو سُبل العصمة والنجدة الربانية ، فيتجانس مع المنطق الإيماني ، ويميل نحو التفويض والتوكل والرضا ، حتى تستقر في أعماقه الثقة بالله ، وينشرح صدره لما اختير له .

فـيارُبَّ كُـرهٍ جـاء مـن حَـيثُ لم تَخَفْ
ومَـيسورِ أمـرٍ في الـذي أنـتَ خائـفُ

وفي هذه الظواهر ما يجعل الداعية ثابتاً رابط الجاش مستمسكاً بمفاد التخطيط الذي اختطه لنفسه ما دام وجه الصواب الشرعي والواقعي بادياً له فيه ، مهما عوكس بما يكره ، ويتاول ذلك تأولاً خيرياً : أنه بحكمة الله ، فيكرر المحاولة ، ويعظ نفسه بآية سورة الروم ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠﴾ ، وعندئذ يكون رسوخه مقدمة صعوده .

---

(١) البصائر ٣/ ١٥٨ .

● وفي التجربة : أن الصدق والصبر يجتمعان ويتبادلان التأثير ، فتجد الصابر صادقاً ، والصادق صابراً ، وهما حلقتان متجاورتان في المنظومة الأخلاقية ، و(الصدق ملبَسٌ بَهي ، ومَنهَلٌ عَذبٌ ، وشُعاعٌ مُنبثٌ ، وقل من اعتاده ومَرَن عليه إلا صحبته السكينة ، وأيده التوفيق ، وخدمته القلوبُ بالمحبة ، ولحظتْهُ العيون بالمهابة .)[1] .

● وهما يقودان إلى الكرم كخصلة سادسة تنشر الوئام بين أفراد المجموعة ، وتقارب بين القلوب ، وفي مشاهدات الحياة أن الكريم يكون شجاعاً ، ويكون شريفاً ، ووفياً لن يخون ، وكأن جمال هذه الأخلاق هو الجزاء الدنيوي الرباني للكريم ، مع شُكرٍ من الناس ودعاء وحُسن ظن وولاء وتقديم ، إذ البخيل يتوارى ويلاحقه الذم .

فلا تكن العاجز عن فعل الخير ما استطعت ، فإنه عِزٌّ لحالك في الدنيا ، وذِكر لك في ديوان الله ، وسَنَد لضعفك عند الحساب ، وأموالك تحسبها لك وإنما هي مثل العارية عندك ، ووارثك ينتظر متى يتعفر خدك في قبرك ليبعثر ما جمعت ، ولعله يعجز حتى عن مجرد الدعاء لك اليوم ، لاجتماع المُلهيات عليه ، وأما إنه ينساك غداً فذلك أمر أكيد ، وهو في الموقف سوف يحاول أن يجادل عن نفسه فقط ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ ، فأتح لذهبك أن ينصرَ مَذهبَ الدعوة ليذهبَ بك يومَ المذهبين يمينا .

وكان امحمد بن الطَّلَب اليعقوبي الشنقيطي من الكرماء (وكان يوماً في مسجد قومه ومعه رجالهم ، فقدم عليهم ناس من أبناء دُلَيم ، فطلبوا منهم جملا ، وهذا الطلب يسمى " مداراة " في عرفهم ، فكل الناس أحبّ أن يتولى دفع الجمل غيره ، وإن كان بحسب العُرف يُقسم على الحاضرين ، فيدفعون قيمته لصاحبه من الغنم واللباس ، فدفع هو جملاً عنده لا يملك غيره ، فقال له أحد أقاربه : عن أي شيء تداري ؟ فقال : عن مائة ناقة هنا ، وضرب صدره ، يشير إلى انه غني النفس .)[2] .

وكان عُبيد الله بن أبي بكرة الثقفي يُمثل مؤسسة خيرية لوحده ، (وهو تابعي ثقة من أهل البصرة . كان أمير سجستان .. وولي قضاء البصرة ، وكان أسود

---

(١) لأبي حيان في البصائر ٢/ ١٦٤ .

(٢) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ٩٥ .

اللون ، وهو ابن الصحابي أبي بكرة نُفيع بن الحارث ، وكانت لعُبيد الله ثروة واسعة ، فاشتهر بأخبار من الجود تشبه الخيال . نقل الذهبي أنه كان ينفق على جيرانه : يُنفق على اربعين داراً عن يمينه ، واربعين عن يساره ، واربعين أمامه ، واربعين وراءه ، سائر نفقاتهم ، ويبعث إليهم بالتحف والكسوة ، ويزوج من أراد منهم الزواج ، ويعتق في كل عيد مائة عبد .)[1] .

ومذهب الوسطية يليق في هذا المجال ، وإحلال التعادل أولى ، والنسبية تخريج صحيح ، وذلك كما قال ابن الجوزي : (أن الإمساك في حق الكريم جهاد ، لأنه قد ألف الكرم ، كما أن إخراج ما في يد البخيل جهاد .)[2] .

● والحرص على الوقت هو من المعالم المهمة ، وللدعاة اقتداء في ذلك بنمط محمد بن محمد بن المختار اليعقوبي الشنقيطي (فاق أقرانه في العلم والكرم وجودة الشعر) (وكل أخباره تُكتب بالذهب) (يقال : إنه إذا سافر ونزل بحيّ من الزوايا نهاراً : أول ما يسألهم عنه : القاموس ، فإن كان موجوداً عندهم : طلب منهم الإتيان به لينظر إليه يومَه ، فإن لم يكن فيهم : ارتحل عنهم ، ولا يترك يومه ضائعاً .)[3] .

وإذا كان ذلك ديدن ذاك الجيل وفي حياة الصحراء البسيطة : فإن مثله يكون أوجب في حياة المدن المعاصرة ذات الصخب ، وأحدنا يهدر ساعات كل يوم في مشاهدة برامج الفضائيات ، واغلبها قليل النفع ، ومثل ذلك في مطالعة الصحف ، ومعظمها هذيان ، ومثلها في التنقل وازدحام المرور والتسوق ، ومكيفات الهواء تُنيمنا أطول ، والأدوية الكيماوية تنهك أجسامنا أكثر وتجعلنا بحاجة إلى راحة ، وأنواع الطعام ومواده الحافظة تقعد بنا وتسبب الفتور ، فيستوي أكثر يومنا بين كسل وشرود ذهن وخَدَر ونوم ، والتعلم منقطع ، والإنتاج نادر ، وزادت الإنترنيت الطين بلّة ، وسرقت الموبايلات بقايا الوقت ،

---

(١) الأعلام للزركلي ٤/ ١٩١ .

(٢) عن الآداب الشرعية لابن مرعي ١/ ٢٥٠ .

(٣) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ٩٥ .

فصرنا الآن في نكبة حقيقية ، وتجعلها المرطبات الغازيّة والقهوة نكبتين .

وحال مثل هذه تحتاج ثورة على الواقع السيء ، ولسنا نستطيع ضبط المجتمع . ولكنّ عزماتٍ معدودات تكفي لضبط الجماعة وتنظيم أوقات الدعاة وفرض منهجية عملية عليهم تمنع هدر الوقت الثمين الذي لا بد أن نحسن استثماره إذا أردنا تحقيق إنجاز إسلامي في تحريك الحياة ، وأما الاستسلام للأحوال الحاضرة فهو ما يريده أسياد الرأسمالية العالمية من تعويد الناس على الأنماط الاستهلاكية وإشغالهم والتحكم بطرائق تحريكهم ، **وإذا نجحت الدعوة في كل قطر في السيطرة على مجمل الحركات اليومية لدعاتها ولرواد المساجد من خلال اعتماد ما ينقض كل أسباب هدر الوقت : فإن معنى ذلك أن نوعاً من التفوق الاستراتيجي والترجيح البعيد المدى نكون قد امتلكناه وحُزناه** ، وقواعد الدين صريحة واضحة تدعونا إلى مزيد العبادة وكثرة التعلّم وفعل الخيرات ، وتحقيق ذلك يمر من طريق فطم أنفسنا عن الاسترسال مع الإعلام الرخيص ، ومع شهوات فيها فضول ، وباطل في الإنترنيت يختلط بالحق الذي فيها .

ووجه تأدية هذا الخُلق في تنظيم الأوقات إلى وحدة المجموعة وتعميم السمت : أن الخروج عن مألوف الناس وأخذ النفوس بالعزائم يحتاج تواصياً بالحق والصبر ، وإسناد الأخ لأخيه وتشجيعه ، وشخوص قدوات عملية يمثلون الجد ، فيكون الداعية ملتصقاً بالبقية من أجل أن يديم لنفسه الوتيرة المخالفة لأعراف الناس المبالغة في الترخص واللهو الغفلة .

● الكلام في الكُنه ، وإصابته ، والإفصاح عن المقصود بأوضح التعبير والتركيب والسياق ، وذلك يتطلب استمداداً من الفقه ، واقتباساً من الأصول ، ودراية ببعض المنطق وقواعد المناظرة والحوار والجَدَل ، مع شيء من خَبَر البلاغة ومنهجية البحث والتقرير والمحاضرة ، وأهم من ذلك : تعتيق الخواطر والأفكار وتمحيصها وفحصها وإنضاجها ، وعدم إرسالها على عواهنها ، ومبدأ ذلك : احترام عقول الآخرين ، فإنهم لم يصحبوك لتبدي لهم

السذاجة ، وإنما ينتظرون المشاركة في العطاء ، وذلك يكون بالتعب وطلب الحكمة من مظانها .

وعند موسى عجمي أن (الإنسان هو مبدأ الحركة الفاعلة) وأنه (حياة محورية ، وقدرة فائقة ، وحركة جدلية في الأخذ والعطاء) لذلك ليس الناس سواء ، بل هم مراتب ودرجات ، وأفضلهم انفعهم للحياة والناس ، ومرتبة فاضلة أن يشارك المرء بإحساسه ، ولكن أفضل منها أن يشارك بعقله أيضاً ويقدم فكراً ، ثم أفضل من ذلك أن ينفذ ، وذلك هو (الكمال والتمام)[1] .

وهذا هو أصل نظرية "الشروط" في الوعي الدعوي ، والتي بلغت مبلغاً عظيماً من التفصيل والتدقيق والتماس المنطق الفقهي الأصولي لتخريج قضاياها ، كما هو واضح في نظرية الشروط من كتاب "أصول الإفتاء والاجتهاد" .

وكان شاعر العرب يقول[2] :

وإن كــلامَ المــرءِ في غــير كُــنْهِهِ

لَكالنَبْلِ تهـوي لـيس فـيها نـصالُها

وكُنه الشيء : نهايته وغايته في الإتقان ، وحقيقته ، وموافاته في الوقت المناسب .

وكان ثابت قُطنة الأزدي من فرسان العرب ومن أمراء الجهاد .

ثم (أراد أن يخطُب في الناس ، لكنه حُصر وأُرتج عليه ، فقال : سيجعل الله بعد عسرٍ يُسرا ، وبعد عيٍّ بيانا ، وأنتم إلى أمير فعّال أحوج منكم إلى أمير قوّال ، وأنشد :

فــإلاّ أكــنْ فــيكم خطيــباً فــإنني

بــسيفي إذا جَــدَّ الوغــى لخطــيب

فبلغت كلماته خالدَ بن صفوان ، الخطيب المشهور ، فقال معلقاً : والله ما علا ذلك المنبر أخطب منه في كلماته هذه .)[3] .

---

(١) حركة الحياة لموسى عجمي / ٤١ .

(٢) لسان العرب ٣/ ٣٠٦ .

(٣) الموسوعة العربية ٧/ ٢٧٩ .

وقاتلَ في جهاد التُرك حتى استُشهِد رحمه الله عام ١١٠هـ .

وفي حياتنا الدعوية مؤتمرات وندوات ، ولا يصح أن يأتي المحاضر والخطيب والمناقِش ليرتَجل الرأي ، بل لا بد من تحضير وتفكير ووقوف على ما في الساحة من اجتهادٍ ومقالٍ طارف ، وما يزعمه يحتاج البرهانَ الواقعي أحياناً ، من رجوع إلى إحصاءٍ أو وثيقة علمية ، والقول الدقيق المختصَر : خيرٌ من ظنون ومترادفات وعواطف ، وما يناسب خواص الناس غير الذي يُقال للعامّة ، بل أنا أحبذ أن تكون حتى خُطب الجمعة منقحة يتبين في بنائها التفكير ، ولن يعيب أحدٌ متكلماً يستوفي التنظير وإيراد الشواهد والأدلة ثم يختم بعواطف وتأجيج للحماسة ، وفي الميدان الآن مَن يذهب في التفصيل بعيداً حتى يتولد الملل ، أو يُجبر الحضور على سماع كلام خارج الموضوع الذي اجتمعوا من أجله .

وكون الكلام الصائب تتولد منه طبيعة جماعية واحدة إنما يحصل من خلال سببين : قوة الصواب وحصول الاقتناع ، خلافاً لمجموعة تتشعب في ساحتها الأسئلة وتكتشف فقدان المفكرين الذين يجيبون . ثم فخر الدعاة بعلماء الدعوة ومفكريها ، وحصول سطوة العلم وهيبته ، فيكون من الجميع الإذعان .

● استعظام السوء ، وكون التعطل عن فعل الخيرات أهون من اقتراف الشر ، فما يُتداوَل عندنا في فقه التربية الدعوية من ترجيح موعظة التخويف على التبشير إذا انتشر في الناس السوء : له فرعٌ يميل إلى إشعار الموعوظ بثقل وطأه السيئة ، وصلادة معدنها ، وجثومها على صدر الغافل الجانح للتفريط ، واللغة العربية لها أساليب في الإشعار بذلك وتجعل قوة اللفظ تبعاً لقوة المعنى ، وهو فصل من فقه اللغة ذكره أبو الفتح عثمان بن جني ، وأورد منه ما يكون على (باب : فعل وافتعل ، نحو : قدر واقتدر ، فاقتدر أقوى معنى من قولهم : قدر .) .

قال : (وهو محض القياس . قال الله سبحانه : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، فمقتدر هنا أوفق من قادر ، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدّة الأخذ . وعليه عندي قول الله عز وجل : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ ، وتأويل ذلك أن كسب الحسنة

بالإضافة إلى اكتساب السيئة : أمر يسير ومستصغر ، وذلك لقوله عزّ اسمه ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ ، أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها ، صِغر الواحد إلى العشرة ، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها : لم تحتقر إلى الجزاء عنها ، فعُلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة ، ولذلك قال تبارك وتعالى : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ . فإذا كان فعل السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية : عَظُم قدرها ، وفُخّم لفظ العبارة عنها ، فقيل : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ فزيدَ في لفظ فعل السيئة ، وانتقص من لفظ فعل الحسنة ، لما ذكرنا .)[1] .

قال : (وذاكرت بهذا الموضع بعض أشياخنا من المتكلمين : فسُرّ به ، وحَسُنَ في نفسه .) .

● وإجادة اللغة العربية خُلُق عاشر تتزين به بقية الأخلاق .

وقد أشاد أبو الفتح بن جني بقُدرة اللغوي ، والتفت إلى (ما تعطيه العربية صاحبها من قوة النفس ودُرْبة الفكر .)[2] .

وإنها لكذلك مورد قوة للداعية الذي يتعاهد اللغة ويتعلم الفصاحة ويتداول القياس والاشتقاق اللغوي ومعاني الأبنية ، فإن نفسَه الإبداعية تكون أكثر حركة ، ويتأسس عنده ذوق رفيع حيوي شمولي يتناول أطراف الحياة جميعاً ، وتظهر أنفاسه الجمالية وتظل تتعاظم حتى تحكمه في شأنه كلّه .

وقضية تعريب الدعوات بعد استكمال الدعوة صفتها العالمية : قضية يجب أن يفهمها غير العرب حق فهمها ، فإن الأمر لا يحركه الحياز للعرب بدافع عصبي ، أبداً ، وإنما لأن نصوص الإسلام كلها ، وشروح الفقه ، والفكر الإسلامي كلها عربية ، والترجمة تبقى قاصرة عن الوفاء ، ووراء الأحكام والحلال والحرام كتلة معرفية أدبية وتاريخية وفلسفية واسعة جداً من اللائق أن تعم منافعها مدونة

---

(١) (٢) الخصائص ٣/ ٢٦٥ / ٢٥٥ .

بالعربية من المحال ترجمتها ، ثم في البلاغة العربية إطرابٌ وهزات ونفضات روحية عاطفية لا يصح حرمان الدعاة منها ، وسيكون للتعريب إذا تمّ أثر عظيم في توحيد سليقة الدعاة وأفكارهم ، ويتوازى مع ذلك توحيد نفسي وذوقي تتحرك به الحياة حركة قوية ، ويحصل استثمار تخصصات دعوية عديدة يتحقق من خلالها التكامل ، وتتحقق في التنمية الإسلامية إنجازات مهمة ، وفراستي تُريني بَرَكةً يولدها التعريب عديدة الأنواع وتكون سابغة وافرة ، واقترح أن يمسح بعض المثقفين الشموليين الإسلاميين في بحوث متعمقة جميع الآثار الإيجابية لعملية تعريب الدعوة ومحاسنها ، ليحصل إغراء يكفي لتصاعد الوعي والعواطف واتخاذ القرار الذي يحسم هذه القضية بعد أن طال التردد ، وفي الأمر صعوبة الآن لأنّ المحاولات فردية ، ولكنّ تحويله إلى شأن جماعي تسنده منهجيات ومؤسسات ويشرف عليه رهط مؤهل : يجعله سهلاً ميسوراً بإذن الله . وهناك مثال يشهد في الحياة الماليزية ، فقد درس ألوف من ابنائها في البلاد العربية ومصر بخاصة ، وتعرّبوا ، فظهرت آثار إيجابية واضحة فيهم ، يمكنها أن تتطور إلى ظاهرة معرفية لو تولى قيادتها عمل مؤسسي وزعيم ثقافي بعيد الأفق ، وأظن أن علماء لنفس وأطباء النفس أقدر من غيرهم على اكتشاف فوائد تعريب الدعوات الإسلامية وأفصح في تعليل ذلك وفي صياغة منطق الإقناع ، وأرى في المدارس القرآنية والشرعية العامة ذخيرة للتنفيذ إذا طورت أساليبها .

وأنا أذهب إلى أبعد من ذلك ، ولي اجتهادٌ أوردتُ بعضَه في قصة " سهام المحارب " ذهبتُ فيه إلى استحضار العرب أنفسهم معاني البداوة الأولى ، ومعيشة الصحراء ، والتغني بالنخل والمها والجمال ، فإن ذلك جزء من بناء الشخصية المستقلة التي ترفض ظلم العولمة وتنزع نحو الجهاد ، وكتلة المعرفة الجاهلية اليوم تخدمها بحوث نفسية تمنح العدو مقدرة على إيحاء نفسي سلبي يقذفه في قلوب ذراري المسلمين والجيل اللاهي المعاصر ، ولا بُد إزاء ذلك من تميّزٍ وحفاظٍ على الهوية وتقوية العواطف الإيمانية وبناء حصانة ضد الغزو

الفكري والسياسي هي مقدمة النفير الجهادي إذا اجتاح أرضنا الغاصب ، والأمر يتم بقيام قدوة يمثل البداوة وليس بتحويل مجتمع الدعاة إلى مجتمع بدوي في عصر العلم والمدنية .

وبعض النبلاء كان يراعي بناء شخصيته : قديمة خالصة ويحافظ على الأعراف ويُحاكي الأولين في كل شيء ، ليبقي الوتيرة الأصيلة حَيّة ، مثل الشريف العلوي امحمد بن المختار اليعقوبي المعروف بابن الطلب ، فإنه :

(كان يَبري النبالَ ، فيصطاد بها الوحش ، لشَغَفه باقتفاء العرب .) [1] .

وتحسَب ذلك لهواً ، لكنه في موازين الحركة الحيوية عمل عظيم ، وهوية ، وانتساب ، وعنوان شخصية متميزة ، وبرهان فروسية ، وطريقة فِطرية ، وتعبير عن لباس الحرية ، ومثل هذا التكلف سائغ ومحمود ، ولا يُراد للمجتمع كله أن يتلبس به وتكون الأعرابية في عصر الذَرّة والفضاء ، ولكن وجود نَفَر من المؤمنين يبنون شخصياتهم على هذا النمط يمثل موعظة تربوية تُبقي عَبير حياة الصحراء فواحاً في يوم العولمة والتغريب .

وذلك ما كان يريد نقيب الصحفيين المصريين عبد القادر حمزة بعد الحرب العالمية الثانية حين أصدر مجلة " الأنصار " ودعا إلى العودة إلى حياة الصحراء ، واتخذ النخلة والجمل شعاراً لمجلته التي كانت صنو " الرسالة " التي يصدرها الزيات ، ولكن لم يفهمه أكثر العرب ، وهو والد كاريمان حمزة التي اشتهر عنها أنها أول إعلامية في التلفزيون المصري تحجبت ، وكان شقيقي يقرؤني هذه المجلة حين كنت صغيراً ، فطبعت في لاشعوري محبة البدو والكثبان ، والذي أراه أن الله تعالى بحكمته أبقى مسحة من حياة الصحراء البدوية في الإمارات ونجد بخاصة ، وأن الدعوة في هذين الإقليمين حُبِيَت بهذه الخصائص في نقاء الأعراف العربية وما تحويه من كرم وإباء ، وبإمكانها أن تمثل الحرية الفطرية الأصيلة في المجتمع الدعوي العالمي وتقوم بتعليم

---

(١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط / ٧٥ .

رفض العولمة النفسية والثقافية والاقتصادية ، وفي موريتانيا عِرق بداوة أصيل ، وإذا اجتمعت نقاوة البداوة مع الوعي المنهجي في الحواضر فإن الأمر يقارب التمام . وقد مهّدت الانتفاضة الجهادية البدوية في أنبار العراق الأمرَ تمهيداً ، وبسطت مدارج لمن يروم أن يصعد .

□ أما بعد : فإنّ هذه مكوناتٌ عشرة لمنهجية بناء كتلة دعوية تنزل إلى الميدان لتحريك الحياة ، وكأنّ حياة الدعاة منذ أول تأسيس الدعوة المعاصرة تميل إلى نمط البداوة هذا ، وتتجانس مع " بسمة البر الفسيح " .

□ تمتين البناء الداخلي .. في رحاب الفضاء الخارجي

□ حتى الهزل ووقت الأنس نتداول خلالهما الفكر الوامض ، وشاعرٌ مثل علي بن الجَهم عريقٌ في الأعرابية ، وكان منحازاً في محنة خلق القرآن للإمام أحمد بن حنبل وينشد القصائد في مدحه ومدح رهطه من أهل الحديث ، لكنه يضيف إلى ذلك : التداول المعرفي ، وفي ضوء البدر [1] ...

ولـــيلةٍ كأنهـــا نهـــارُ
سَـــهِرتُها وفتـــية اخـــيارُ
لَهـوهُم الأسمـارُ والأشـعارُ
ومُلَـحٌ تُقـدحُ مـنها الـنارُ

ويخرج من هذا المجلس إلى ندوة تُدارس " الفقه اللاهب " لإمام الحرَمين الجويني ، تعقبها ليلة توبة واستغفار على نمط ما يريده الغزالي ، ثم ليلة توقِد فيها " لُبينى " النار للطارقين حين تسمع من أبيها :

يا لُبينى أوقدي .. طال المدى

---

(١) البصائر ٢/١٤٦ .

• وأعراف الدعوة كلها صحيحة بحمد الله ، ولا يُتاح لنمط تربوي أن يستمر ويثبت ما لم تشهد الأيام على قوة ما أُدع فيه من تأثير يجعل القلوب تذعن له طواعية .

وعُرف خروج الدعاة إلى البرّ الرحب للذكر والعبادة والخلوة والتفكر : من أرسخ هذه الأعراف ، لما في السكون والعزلة التي تعقب الحركات من توافقٍ مع طبيعة الفطرة ، واسترواح المؤمن لتأملٍ يجعل قلبه يسمع من كل جامدٍ همسة فيها حكمة ، أو صرخة ربما ، تجاوب الوديانُ أصداءها ، تهيب به أن يرشح نفسه ليكون السيّد المهاب الذي يرشد السواد الغافل ويقود الكون ، لتستوي حياة التسبيح ، لينساب المجتمع المؤمن مع الحركة الكونية ويجهر بنفس لغتها .

وهذا هو الذي نفَضَ أحرارَ القلوب في أجيال صدر الإسلام فجعلهم يكسرون قيد النمطية والانحصار بين الجدران ، حيث استهلاك النفس ، ومالوا إلى الانطلاق ، كما كان شأن سَلَف لنا اسمه أبو مُزاحم الزاهد ، لما قيل له : ما لذتُكَ ؟ فقال :

(في سياحة البلادِ ، وطيِّ البوادِ ، وحضور النوادِ ، ومفاكهة الأنداد ، ومنافرة الأضداد .)[1] .

وهل بعد هذا شاردة من مثيرات الإبداع ؟

ولا أعلم وارثاً لأبي مزاحم في تمثل هذه السياحة اليوم أبرع من اليماني عبده ناشر .

وقد أتاحت المنهجية التربوية الدعوية أن نجمع كل هذه اللذائذ معاً في "المخيم التربوي" . فهو خلوة بَرّيّة ، لكنها جماعية ، تجمع الأشكالَ المتآلفين الأنداد في نادٍ منعقدٍ لحوار جاد ، لكنه رقيق هادئ ، بعيداً عن أغيارٍ عكّرت الأوهام عليهم

---

(١) البصائر ٢/ ٩٧ .

شأنهم فهم في ريبهم يترددون ، فيرجع الداعية من المخيم وقد تجدّدت روحُه ، وازهرت تأملاته ، العقلية ، وثارت هواتفه القلبية ، ليصحّح معادلات المدينة السادرة .

إن المؤتمر التأملي ليس نهاية ، وإنما هو حلقة في سلسلة تربوية طويلة ، ولكن المنهجية الدعوية تريد أن تذيقك طعمَه ، لتنطلق أنت من بعد ذلك مستزيداً ، على طريقتك ، فتكتال الخير وتجمع الإيجابيات من أطرافها المتوزعة على قمم الجبال وبواطن الوديان ، أو بين الخُضرة ورمال الصحراء وسواحل البحار ، على مذهب الشاعر الذي يقول لصاحبه ...

دعـني أجـوبُ الأرضَ في فَلـواتها

فـلا الكَـرَجُ الدنـيا ولا الـناسُ قاسِمُ

وقاسم : هو أبو دُلَف القاسم العجلي أحد كبار قادة الجيوش العباسية النبلاء ، والكرَج هي المدينة التي بناها كمثابةٍ ومعسكر لجيوشه ، وأخطأتُ في المنطلق حين سميتُها الكرْخ ، متابعةً لخطأ وقع فيه محقق كتاب " بغداد " لابن طيفور .

فمن ذا الذي يغشك فيزعم أن الدنيا هي دارك فقط ؟

ومَن الذي حَجَب الواسع فجعل نهاية العلم والمعارف عند قرينك الذي تودّه أو قدوتك الذي تتبعه مهما كان حكيماً نبيلاً ؟

بل انتفض على ما تألف ، واخرج إلى البراري ، وقم في الناد ، وشافه الرجال ، وانقل أقدامك إلى مؤتمرات المؤمنين : تغنم فقهاً وتجربة ، ويأنس قلبك ، وتتوطأ لك الدرجات ..!

● إلاّ أن شغباً يعكر علينا هذه اللذة ، فإن بعض الحكومات تتخوف أننا نتدرب على السلاح في هذه المخيمات وننوي إرهاباً ، ولا تفهم منهجنا التربوي التعبّدي ، فصار من الحكمة أن نتحول بالأسلوب إلى طريقة جماعة التبليغ ، مثلاً ، فيخرج الثلاثة فقط ، لا الجمهرة ، رفقاً بأنفسنا وبالمتخوفين ، وتخلّصاً من

الفتن والمحن ، وتفلتاً من التهمة الزور .

● **وتبقى " التربية الدعوية " أوسع من ذلك جداً ، وهدفها : صناعة الداعية الشمولي الماهر في كل عمل .**

ويسمى هذا العنصر الإبداعي : " اللَّبق " .

وفي لسان العرب عن الليث اللغوي : (رجل لَبِـقٌ ، ويقال : لَبيق : وهو الحاذق الرفيق بكل عمل . وامرأة لبيقة : ظريفة رفيقة .)[1] .

● وهناك تشابه بين دواعي تطوير التربية العامة في المجتمع ، وتطويرها في المجال الدعوي ، فإن المنطق في ذلك واحد ، والظروف متقاربة ، لأننا جزء من المجتمع ونعيش في داخله ومتعاملين معه ومستخدمين لإمكاناته .

(فالتطور سريع جداً ، وكبير لدرجة مذهلة ، ولذلك كان لا بد لإيجاد المبدعين الذين عليهم أن يضطلعوا بأعباء العالم المقبل : من تغيير جذري للتربية في أهدافها ومناهجها وطرائقها ووسائلها ، تغييراً يصنع ذوي الفكر الخلّاق والعزم والخيال والمثابرة .) .

(إن هدف التربية كان حتى وقت قريب : تعلّم الحقائق والمعارف التي توصّل إليها العلم . والواقع أن هذا الهدف وما يستتبعه من مناهج وطرائق ووسائل : بات قديماً .

إن هدف التربية في عصر الفضاء وعصر الحاسوب يجب أن يكون التفكير . التفكير بكل معانيه :

التفكير الناقد ، والتفكير البنّاء ، والتفكير الحرّ ، والتفكير المنطقي ، والتفكير التحليلي ، والتفكير التركيبي . وهذا الهدف التفكيري يغير المناهج والطرائق والوسائل والبرامج والعلاقات)[2] .

---

(١) لسان العرب ٣/ ٣٣٦ .

(٢) الموسوعة العربية ١/ ٤٨ .

وهي أنواع التفكير التي يجب أن تكون عنوان التربية الدعوية أيضاً ، خصوصاً مع امتلاك الدعوة لعوامل ترجيح أساسية على بقية المجتمع ، منها أن الدعاة هم خلاصة المجتمع واحسن عناصره ، ونسبة الذكاء فيهم أرفع ، وتغشاهم سكينة قلبية بسبب التدين والعفاف ، ودافع الأجر الأخروي ، والإخلاص ، ثم خضوعهم لمناهج التطوير ، والوعي الذي يكتسبونه من خلال المعيشة الجماعية التي تسيطر عليها خطة شاملة ، وعوامل أخرى تنتج التفوق الحاسم ليست خافية .

□□ والأمر بعد ذلك يُفهم من خلال الشمول ، فهذه الوصايا إنما هي جزء من كُلٍ أعم ، والنفس محور التحريك ، وهي مرجَل يغلي ، نسمع أزيزه ولا نرى حقيقة داخله ، وهذه الفصول وصف لوقع الأزيز في الآذان ، والتقوى تريك ما يعجز عنه هذا الوصف ✻

□□ من شأن النفس أنها لا تنفرد في عملها ، بل تميل إلى الاتصال بالعقل وإبداء نتاج مشترك ، ففي العقل قدرة تفكير وقياس واستعراض للتجارب والرصيد والسوابق ، وتصنيفها ، والتمهيد للاستفادة منها ، فتأتي النفس فتحرك هذا الكيان ، فيسري تيار من الشعور فيه ، فينبض ، كمثل ما تهز الكهرباء كياناً تدخله ، فتتحول المعاني إلى مواعظ وإلى دروس مشحونة بالعاطفة ، وتلك هي التربية في حقيقتها المبسطة ، وهي كذلك في صفتها الميدانية حين تتعاطى مع كل حدث وانعكاساته ، فيكون التأثر المتجدد ، وأثناء كل ذلك يكون العقل هو المعمل المنتج للفكرة بعد الفكرة ، لكن هذه الأفكار تبقى عائمة ، مثل زورق تلعب به الأمواج فيبتعد ، ووظيفة النفس أن تربط هذه الأفكار بروابط شعورية فتكون عقيدة أو ما يقارب ذلك من درجات التصديق وإضمار الاستعمال لها واحترامها والثقة بها ، كمن يربط الزورق بحبل إلى مرفأ أو يأسر شارداً .

□ نتوغل واثقين ... في دربنا اللاحب

□ لكن مجال النفس فسيح ، وتتنوع درجات استقبالها للأفكار ، وفيها استعداد لتوظيف الكثير منها أو الاحتفال بها وتحويلها إلى رصيد إيجابي ترجع إليه وتستعمله حين تبدو مناسبة ما ، أو حين تحسّ بالحاجة إليه ، ومعنى ذلك : سعة الخيارات ، وحجم هذه السعة يحدده مدى الذكاء من جهة العقل ، ومدى ثبات المشاعر وسرعة تدفقها من جهة النفس ، ولأن المؤمن يصون عقله عن أضرار الخمر والتدخين والزنا والأمراض : فإن عقله يبقى يومض . ثم لأن نفسه مطمئنة لا تقلق ، ويقودها التوكل إلى سكينة متصلة :

تكون أرصدتها المعنوية وافرة ، فيتعاضد هذا الإيجاب من الطرفين ليقذف في ضمير المؤمن أنه دائماً خارج دائرة الضيق ، وأنه يمرح ، والله تعالى قد علم ما في قلوب المؤمنين فرفع أنواع الحرج عنهم فيما شرَع ، فانضافت هذه الحرية إلى ذاك المرح والإقبال الواثق فجعل الطريق الإسلامي " لاحباً " فسيحاً . وذلك سِر دندنة سيد قطب رحمه الله في الظلال حول " دربنا اللاحب " ، وولعه به ، وكثرة ذكره له .

قال ابن منظور في لسان العرب :

(واللحْبُ : الطريق الواضح ، واللاحب : مِثله ، وهو فاعل بمعنى مفعول ، أي ملحوب .) (ويقال أيضاً : لَحَبَ : إذا مَرّ مَرّاً مستقيماً .) وروى عن الليث اللغوي قال : (اللاحب : الطريق الواسع المنقاد الذي لا ينقطع .)[1] .

● **وصِفة عدم الانقطاع هذه هي التي انتبه لها صلاح جاهين في رباعياته [2] حين أبصر طبيعة طريق الفرسان الشجعان ، فرسان الأمة ، الذين ينطلقون من عمق التاريخ الإسلامي العتيد ، إلى عمق المستقبل الواعد ، وملؤهم ثقة ، فالمسيرة المتصلة التي لا تتوقف : تحتاج طريقاً لاحباً لا ينتهي ...**

فـارسْ وحـيد جَـوة الدروع الحديد
رفـرف علـيه عصفور وقال له نشيد
مِـنين منين .. ولِفين لفين يا جَدَع ؟
قـال : مِن بـعيد ، ولسّه رايح بـعيد

● ثم سعة هذا الطريق هي نتيجةٌ هندسية لازمة ، لأنها تتناسب مع رحابة الحقائق الشرعية ، ومع كونها تمتد لتغطي مساحة الحاجات الدينية والدنيوية التي تحاول ضبطها وحكمها بما يصلحها ، كما هو شأنها الذي عرفه الفقهاء عنها

---

(١) لسان العرب ٣/ ٣٤٦ .

(٢) أخبار الأدب عدد ٩/ ٩/ ٢٠٠٧ .

واعتقدوه ، مما هو واضح مثلاً في قول العز بن عبد السلام في وصف الفتيا : (نفع الفتيا عام لكل سائل عن حكم شرعي متعلق بدينٍ أو دنيا ، والتصدي لذلك : هَمٌّ بهذا النوع من الإحسان ، ومَن هَمّ بحسنة فلم يعملها : كُتبت له حسنة . وتتفاوت فضائل الفتيا بتفاوت فضائل المستفتَى عنه ، لأنها وسيلة إليه ، لدلالتها عليه .)[1] .

وأصحاب مسعى الإصلاح ورعاية الشأن الدعوي ونمطه في الاهتمام : يتجاوزون قضايا النذور وحوادث الطلاق التي تستهلك طاقات غيرهم إلى إفتاءٍ في جهاد ، ومواقف سياسية ، ونهي عن منكر عام ، وطرائق تنموية شاملة ، وما يوازي ذلك من عُيون الفضائل ودلائل الخيرات وأنماط الوعي .

● وكان بديع الزمان نورسي كلما أحزنته المصائب يخاطب نفسه أنْ :

(انظر إلى الحياة من حيث " الحي القيوم " الذي وهب لك الحياة) (وكلما كان الإيمان حياةً للحياة وروحاً لها : تكسب البقاء ، بل تعطي ثماراً باقية كذلك .)[2] .

وهذا النظر الإيماني الذي يستحضر معاني هذه الأسماء الحسنى يضيف صفة أخرى إلى هذا الطريق : أنها باقية ، مستمرة ، تمضي مهما عوكست ، وهي تستطيل كل الطول لِذي الدأبِ الراغب الذي يُغرم بالمضي قدماً ، وتلك صفةٌ في حركة الحياة : أنها تتجاوب مع أهلها الذين يتحركون مع حركتها ، وتبذل لهم التمهيد والمعونة ، وتمتد إذا امتدت نواياهم ، والبرهان على ذلك : أنّ بديع الزمان اتبع طريقة مراقبة " القيومية " هذه ، فانفتحت لتركيا دروب الحياة بعد سَكرة وخَدَر ، ونضجت الثمار كذلك في صورة اجتماع الرئاسة وأغلبية البرلمان وتمحّض الحكومة ، وتمت ، وبالخير عَمّت .

---

(١) شجرة المعارف / ٣٢٦ .

(٢) اللمعات للنورسي / ٣٩٢ ترجمة إحسان الصالحي .

□ مَدْرجٌ ممتد .. لتحليق الحركة إذا اشتدّت

□ إن هذه الاستقامة والامتداد في الطريق الإيماني ، ثم استمداده من "القيومية" تجعله تلقائياً مَدْرج طيران يتيح لصاحب كلمات الصدق الآمر الناهي أن يتمنى تحليقها ...

طِيري حُروفي واحمليني فوق أجنحة السطورِ
غنّي وهُزّي يا حروفي كل أوتار الشعورِ
فعسى سنسمع من جديدٍ صوت مملكة الضميرِ

تماماً مثل ما تمناها الشاعر السوري عبد المعطي الدالاتي [1] ، فإن حياة الآلة والكومبيوتر والرقميات جعلت سلطة المادة تطغى ، واضمحلت قوانين القلوب ، لذلك تلزم المربي والناصح والداعية : "فوقية نفسية" يرتفعون بها عن معية الهمم الواطئة ، ليتمكنوا من التوجيه ودلالة التائهين ، فإن القعر من شانه أن يكون مُظلما ، فتضيع الوجهة ، وتكون الحِيدة عن استواء الدرب .

● والتائه ينظر إلى ما في العلو من خطر السقوط ، ولا يعلم ما فيه من لذة البسط والاستقلال والسيطرة والمُكنة وسعة المنظر ، لذلك يخاف من كلمات الراشد التي تغريه أن يجرب فوقية العقل والإبداع ، وتحليق النفس ورفرفة الضمير ...

من هنا أضطرُ أن استعمل الحث تجاه مثل هؤلاء ، وأن أدعوهم إلى الاقتداء بالشباب الإسلامي الأحرار الذين يحتفلون بحروفي ويحملوني عبر أشواقهم الفوارة على إتحافهم بمزيد .....

اقرؤوني .. علّني اغدو شُعاعاً في الليالي الحالكات
اقرؤوني .. لا تخافوا أن تكونوا من ضحايا الكلمات

---

(١) ديوان "أحبك ربي" / ٥٥ طبعة دار الفكر بدمشق .

أقولها كما قالها الدالاتي [1] ، فإن عناصر رجعية لا تتعاطى الفكر الاجتهادي تخيف المقلدين من نمط مباحث إحياء فقه الدعوة وتحريك الحياة ، ومما هنالك من دعوةٍ لسلوكٍ حضاري ، ونهج تنموي ، والتزام تخطيطي ، وأداء مؤسسي ، وتبادل شوروي ، لأن كل ذلك سيتيح من المقارنات ما تتبين بها دركات التخلف الذي هم فيه ، وتجاوز الزمن لطرائقهم العتيقة الساذجة .

● أما الشباب التطوري : فإنهم يعلمون أن الحياة تعقدت ، وأن عليهم التعامل معها بمنهج علمي تأصيلي يجدونه بين " المسار " و " أصول الإفتاء " و " صناعة الحياة " .

❑ ذبذبات العقول وتساميات النفوس تتلاقيان في بؤر تربوية

❑ والسبب الذي يجعل سطور فقه الدعوة مشحونة بهذه القابلية التأثيرية وبقدرة الربط القوي بينها وبين الداعية القارئ لها : أنها تتجاوز كونها أفكاراً تأملية ، بل هي دروس عملية تجريبية مستنبَطة من أطراف الواقع وتفجرها معاناة عميقة غالباً ما تختلط بظلم ظالم وجهالات فاسق يرفض الحق الذي مع الدعاة فيعاكسهم ويحاول التضييق عليهم ، مع أنهم يبذلون المودة والسلام في الأرجاء التي يوجدون فيها ، ويسعون لتداول معرفي يتمم أنوار الوحي ، وهذا هو الذي أنطق شاعر الإيمان مصطفى عكرمة [2] فقال في وصف هذه الحالة الحرجة :

قلبٌ عليه الدهرُ حربٌ ... وسلاحه أدبٌ وحبُّ

آماله نهب الحياة وقلـ ... ـبُه للهمّ نهبُ

ما راحَ خطبٌ هدَّهُ ... إلاّ وصَبَّ عليه خَطبُ

---

(١) ديوان " أحبك ربي " / ١١ .

(٢) ديوان " يقظة " / ٣٨ .

● والدهر لا يحارب المؤمنين ، إنما هم الفساق الدهريون يكون منهم الإلحاد والتجديف وتعطيل السبيل ، ومع ذلك لا يقابل الشاعر المؤمن ذلك بغير الأدب ... والحب . ليس هذا فقط : بل بأحسن الألفاظ الرقيقة الموزونة التي تتوازى مع المعاني الموزونة المدروسة التي طال فيها النظر وجال الفكر قبل إرسالها ، فيكون من خلال التعاضد تأثير مضاعف ، وكان الشاعر دقيقاً حين سمى الأدب سلاحاً ، لأنه أمضى من سلاح المقابل وحديده ، **وفي ذلك ما يجعل " الأدب " حقيقة استراتيجية في تحريك الحياة يجدر بالتخطيط الإسلامي أن يلاحظها** .

● وأنا أشارك د. عبد المعطي الدالاتي في مذهبه الذي يرى فيه أن (ليس كالشعر شيءٌ يحمل عبء البوح عن سرّ عميق .. أو وعي دقيق ، فالشعر هو الذي تشعر بمعانيه تناجيك ، وبألفاظه تكاد تخرج من فيك .)[1] .

وذاك هو الذي جعل وسيلتي في التعرّف على " فقه الدعوة " واسرار " حركة الحياة " : استفتاء الشعراء ، فإن الشاعر مؤسسة فكرية كاملة ، وموسوعة معرفية شاملة ، وفي سويعات تفتيشه عن القافية : تتفجر له ينابيع الرؤى الصافية ، واقرب أسباب فضله : أنه لا ينطق إلا بعد صمت وتأمل وأقيسة عقلانية ومطارحات وجدانية .

● وأوضح ما يكون ذلك : حين تكثف الحياة المعرفية في بؤرة ويتداول الشان الفكري ناسٌ كثير عددهم ، فإن النواتج تتركز ، وينضم بعضها إلى بعض فتكون كتلة مشحونة بالطاقة ، وكما يكون في السياق الفيزياوي تفريغ كهربائي عند الامتلاء : تكون في السياق المعرفي انسيابية وانتقالات ، ويكون ثمّ سَيحٌ وجريان وانتشار وتوزيع للرقعة والجمال والأثر .

● مثال ذلك : التركز والتحشيد الذي شهدته مصر ، حتى حصل الامتلاء العلمي والمعرفي ، مما قام به الأزهر ووجود جامعة القاهرة وغيرها ، ورهط

---

(١) مقدمة ديوان " احبك ربي " / ١٧ .

الشعراء ، وعمليات تحقيق كتب التراث ونشرها ، وعمليات الترجمة ، والنشاط الإعلامي الواسع ، فازدحمت مصر ، فانفجرت ، في توزيع للعلم والمعرفة شمل كل العالم الإسلامي والجاليات الإسلامية في عموم القارات .

وذلك ما تغنّت به خديجة مكحلي [1] حين فخرت :

(نيل منسرح ..

لم يضمر لسواه ضغائن ..

أرسل نحو الخُلد سفائن ..

جابت أزمنة ومدائن ..) .

وقد صدقت ، فسفائن التعليم والثقافة التي صدرت من مصر تشهد ، وكانت المنقبة الكبرى في ذلك : صيرورتها مركز الدعوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة ، ومخرت سفائن النيل الدعوية العُباب إلى جميع مدائن العرب والعجم ، فجابت ازمنة وأجيالاً متتالية ، حتى نضجت اليوم في صورة " الدعوة الإسلامية العالمية " التي تناط بها آمال التنمية وتحرير فلسطين ومقارعة العولمة الأميركية الاستعمارية وصناعة جولة جديدة حضارية إسلامية .

ومن دلائل (ظاهر التمركز والانفجار) : إنجازات جامعة القاهرة التي فخر بها عبد الرحيم زلط بمناسبة مائة سنة لإنشائها وقوله :

مضى الزمان بقرنٍ كل عِشرتها
إنجابُ أعلامٍ وفي الآفاق راعيها

أبناء مصر وأعلام لهم عَرَبٌ
وغيرهم من بلادٍ تاه حاصيها

وهذا فخر صحيح ، فإن المدقق لا يكاد إحصاء أسماء البلاد التي جاء منها الطلاب فنهلوا من علمها ورجعوا ينشرونه ، وكان أصل مقصد إنشائها ترسيخ

---

(١) اخبار الأدب عدد ٥/ ٨/ ٢٠٠٧ .

المنهج العلماني التغريبي ، ولكن المخزون الإسلامي في الحياة المصرية كان هو المتغلب ، وحظه في نتاجها هو الأوفر ، وكذلك هو شأن الأصالة دوماً ، ومنطقها يُرجح جانب المؤمنين .

● ونفس هذه الظاهرة نراها تتكرر في البلدان ذات المخزون الحضاري العريق والتحشيد المعرفي المتراكم ، فهي موجودة في بلاد الشام التي يراها جابر إبراهيم سلمان [1] " قلباً نابضاً " ، فيعرب عن ثقته بدمشق وأهلها ، وبمسحات جمالها ، وباعثاً اسمها القديم " جِلّق " ...

قالوا الرهان ! فقلتُ : جلّقُ وحدَها فَرَسُ الرهانْ
الحُسنُ صَوغُ يمينها ، والوجهُ بعضٌ من جُمانْ
زُرها ، فجلّقُ للأحبة ، أهلُها بحر الحنان
وهُم - إذا ما انتابها خَطْبٌ - فأهلٌ للطِعان
حُيّيتِ يا أُختَ المدائن قامةً من خيزران
للحَرف فيها بسطةٌ ، إيقاعها وَتَرُ الكمان
فإذا الشديُ بصوته يجتاز أطباق العَنان
ويصير فيه العقلُ حُراً لا يُكدِّره ارتهان

● ونحن من ثقته نستمد ، وله نقلد ، وبفتياه نأخذ .

إن حروف أحرار دمشق وآدابهم : كلها موزونة ، منسابة مع العَروض ، ومنسجمة مع موسيقى النشيد الاستنهاضي الذي يربي الناس على عشق الحرية الاستعلائية التي تكون وسيلتُها : العقل الحُر ، فيحصل نبض القلوب ، وذلك هو الذي جعل فقهاء التخطيط الإسلامي يراهنون على دمشق وإن طال المدى .

● وكذلك الأمر في منارات بغداد التي ارتفعت كرموز تُعبّر عن الأصالة ، وسفائن دجلة والفرات التي أبحرت وراء الخلجان ، وبنادق الجيش العراقي التي

---

(١) جريدة الأسبوع الأدبي السورية عدد ١٠/ ٣/ ٢٠٠٧ .

لعلعت في جنين ثم الجولان ، وبين الرافدين كتلة علم ومعرفة انفجرت ، فخافتها العولمة فاحتلت أرضها ، ولكنها تخسأ أن تحتل نقطة في القلوب .

● وهذه أمثلة لإيجابيات ظاهرة (التمركز البؤري والانتشار) التي هي من أهم ظواهر حركة الحياة ، والتخطيط الإسلامي مُطالَب بأن يستوعبها ويفهم قوانين "الداينمك" التي تنظم نبضها ودفقها العاتي أو انسيابها الرفيق ، بحسب الأحوال النسبية ، ليحاول استخدامها والسيطرة عليها ومواكبة نمط تأثيرها من أجل امتلاكه وحيازته حين يستقر في الأرض بعد الضرب فيها واجتيازه مرحلة النشوء والنضوج ، و " مِنى لمن سبق " ، والتمركزات فخمة غنية ثرية ، لكنها سائبة ، وبإمكان الدعوة أن تقودها من داخلها أو من خارجها ، وتتخذها نقاط انطلاق لسيطرة علمية ومعرفية ثم تنموية ثم تحريكية ، فيكون الإصلاح بعد الفساد ، وعلى الشاعر نحت القوافي من مَقاطعها ، وهو بريء من هُوَيْنى البطيء .

● وهذه الظاهرة أصيلة قديمة في الأمة الإسلامية ، لأنها أمة رسالة ، وقد كلفها الله أن تشرحها لكل الشعوب بمختلف اللغات ، والقرآن الكريم هو النقطة البؤرية التي تتمركز فتدور حولها أنواع المعارف وأفكار الإيمان وحكمة الشعراء وتدقيقات الفقهاء ، وقد قدّر الذهبي في زمنه في النصف الأول من القرن الثامن عدد المصاحف في الأمة الإسلامية بمليوني نسخة وقال : (منه الآن في الأرض أزيَدُ من ألفي ألف نسخة .)[1] .

وهذا عدد كبير ، لقلة النفوس آنذاك ، فقد قرأت في مذكرات السلطان عبد الحميد بعد ستمائة سنة من ذلك أنه يقدر عدد المسلمين في الدولة العثمانية في أيامه بثلاثين مليون نفس فقط ، بمعنى أن الأمة كلها في زمنه ربما كانت دون عشرة أمثال ذلك ، فلو أخذنا ظاهرة التكاثر الإنسانية العامة لكانت الأمة زمن

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٤١ .

الذهبي في حدود المائة المليون ، ولو أخرجنا منهم الطفل والأمي لكانوا دون ذلك بكثير ، بمعنى أن كلّ عشرة أنفس او أقل كانوا يشتركون بمصحف ، أي بمعدل مصحف لكل عائلة ، وهذا إنجاز جيد قبل عهد المطابع ، ثم جاءت المطابع فتضاعفت النسخ ، وما تزال الأمة في كل سنة تزداد في حدود عشرين مليوناً من المواليد ، والمطابع مكلفة أن تطبع لهم مليوني نسخة ربما كل سنة للحفاظ على نفس المعدل ، وجاءت الأشرطة والأقراص والفضائيات لتشيعه أكثر .

هذا فقط لمتن القرآن ، وأما كل المعارف الإسلامية فمخطوطاتها ثم إنتاجها المعاصر يملأ مكتبات الأرض ويتمركز في الحواضر العلمية الثقافية ، فتولدت من ذلك ظاهرة البيئة المشحونة التي تنفجر وتنتشر خيراتها في الجهات ، حتى **وصلت بعض كتب الدعوة الإسلامية إلى اقاصي كازخستان وأزبكستان ، فكانوا يتدارسونها في السراديب زمن الاستبداد الشيوعي ، وانعقدت تحت الأرض حلقات التربية** ، كما أخبرني الدكتور الطبيب أحمد القاضي رحمه الله ، الذي كان رئيس حزب النهضة الإسلامي في الاتحاد السوفييتي ، وحدثني أحد الطلاب العرب الذين درسوا هناك أنه رأى منطقة يتحدث كثير من شبابها معه باللغة العربية ، فتعجب ، ثم قادوه إلى امرأة عجوز طاعنة في السن تسكن قرية جبلية نائية واخبروه أنها هي التي علمتهم العربية لتمكينهم من فهم الإسلام ، وبمثل هذه التضحيات حصلت صناعة الحياة الإيمانية ، وظهرت مواقع التحشيد والانطلاق الإيماني والمعرفي ، والآن في هذه السنوات تجري عمليات استدراكية من هذا النوع في الصين ، مستثمرة حصول الحرية النسبية ، حتى انه تم بناء أربعة آلاف مسجد هناك في أول سنتين من انطلاق العمليات في تسعينات القرن العشرين ، وهذا شيء في الميزان عظيم ، لأن مسلمي الصين يعدل عددهم نصف العرب ، ومن يرغب في فهم مزيد من أسلوب التمركز فلينظر إلى البلدة الصغيرة القريبة من مدينة كسلا في السودان ، والتي جعلتها الطريقة الختمية مركزاً لتحفيظ القرآن وتربية الموالين لها ، إذ بلغ عدد طلاب مدارسها خمساً وعشرين ألفاً من

أنحاء إفريقيا كلها ، مع توفير الطعام واللباس والمسكن لهم ، وفي نمط عمل الزوايا السنوسية قديماً شيء مماثل ، وكان عددها في ليبيا وبعض إفريقيا بالمئات ، وكلها مراكز تعليم وتحشيد وتربية ثم انتشار ، وفي تركيا عشرة آلاف طالب يحفظون القرآن ويدرسون العلوم الإسلامية في مدرسة واحدة ويضمهم سور واحد ، وهم في أقسام داخلية تضمن طعامهم ، وتكون السيطرة عليهم أربعاً وعشرين ساعة ، وفي سومطرة مدرسة إسلامية دعوية يبلغ طلابها أكثر من سبعة آلاف في مكان واحد ، وغير ذلك من أمثلة التربية والضم التي تتبع أسلوب توحيد المنهج وتتناثر أماكنها الصغيرة الكبيرة في حجمها الإجمالي لو جمعناها ، مما يصنع الزخم العاتي الذي لا يحتاج غير عقل تخطيطي إبداعي متطور يقوده بالحسنى إلى تحقيق النقلة وبالحكمة من دون تهور وإرهاب وتكفير ، ومن العجب أن تظل مجاميع من الدعاة في عجز عن فهم هذه الظاهرة وموازاتها ومجاراتها ومداراتها ، ويبقون يُتلفهم الترف المالي أو الترهل الفكري والمؤسسي وبلا خطوات عملية تزحزح الواقع عن جثمته ، ثم أعجب من ذلك : حاكم ظالم يتضايق من هذا المدّ الإسلامي وضغط التيار الإيماني فتبلغ أقصى خططه أن يمنع ويعاكس ويكيد ، ولا ينتبه إلى ضرورة التعامل بالحسنى مع أقدار ربانية نافذة هي أعتى في طاقتها من مبلغ قدرته المحدودة ، ولو كان يُحسن قراءة التطور الذي حصل خلال القرن الأخير ، وبعد زوال الشيوعية بخاصة : لأدرك أن المستقبل لهذا الدين ، وأن موجة الصحوة الإسلامية أقوى من أن توقف .

● وهذه إنما هي أمانينا فقط ، وأما قوانين حركة الحياة فتكشف عن شيء آخر ، ولو رجعنا إليها كما وصفتها مباحث رصدها لوجدنا أن " العداوة " بين البشر ، في الأمة الواحدة أو بين الأمم : هي مشيئة ربانية مؤكدة ، ومفاد آية ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يؤكد ذلك ، في الآية الأخرى : ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مزيد توكيد وشرح ، والفسق تشمله الظاهرة ، ومن الكفر ما هو كفر أصغر لا يُخرج من الملة ، وإنما هو فسوق غليظ .

● والسبب كامن في التحليل النفسي الإيماني ، فآية ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ هي آية مركزية محورية في هذا التحليل نفتأ نرجع إليها مراراً ، وذلك ان جانب التقوى قد يترجح عند أحد فيكون مؤمناً ، ويلتزم ، ويذعن للقرآن ، ويعمل عملاً صالحاً يصبّ في النهاية في عملية التمركز والتحشيد والانتشار . أو قد يترجح جانب الفجور عند آخر ، فيغتر ويعاكس المؤمنين ويعمل بعمل المنافقين ، وأوائل سورة البقرة تجبه الذي يريد التعرف على الإسلام والقرآن : ليجد تصريحاً في الصفحة الثانية فقط يذكر مرض بعض القلوب ، وأن بعض الناس ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ ، وذلك هو تفسير انقسام المجتمعات .

● من هنا ، فإننا حين نتحدث عن مجامع الخير وتمركزه في مصر أو الشام أو العراق أو نجد او الحجاز أو ديوبند الهندية أو في فاس أو في غيرها من حواضر الخير والمعروف والعلم الكثيرة في أرجاء العالم الإسلامي كله : فإنما نتحدث ونعني : يقظة أهل الحق من المؤمنين في ذلك البلد أو تلك الحاضرة ، وميلهم إلى الإنتاج والعمل وترك السلبية والكسل ، ولا نعني خلو المجتمع ذاك من مفسد وفاسق ولص وعلماني يتحرر من التزام الحلال والحرام ، ممن يتسلل بهم فجور النفس المذكور في القرآن .

● وحين نمسح أرض الواقع : نجد رقعة الأشرار واسعة أيضاً ، ومتعددة أنواع السوء ، ولكن تستقر بجانبها منارات الأخيار ودارات الإيمان .

فمصر التي تغنينا بجمال إيمانها وتمركز العلم فيها وانفجاره وانتشاره : طلع منها مَن يرتكب أكبر جريمة علمية معرفية في العصر الحاضر ، فيسرق مخطوطة كتاب " الرسالة " للإمام الشافعي التي هي بخط الشافعي نفسه ، والتي تعدل في حجمها المعنوي ، لهذه الميزة : كمّاً كبيراً من كتب التراث ، فاختلط مع من يبني العلم والتنمية والركن الحضاري : مَن يهدم ويترك لوعة في قلوب المؤمنين .

ففي جريدة أخبار الأدب المصرية [1] تقرير خطير عن إحالة مسؤولين بدار الكتب للمحاكمة التأديبية بعد سنوات من سرقة مخطوطة الرسالة التي هي أقدم مخطوط عربي وأشرف مخطوط ، لكونه خُطَّ بيمين الإمام الشافعي نفسه . ويذكر التقرير أسماء المسؤولين الأربعة ، وأن مدير الدار آنذاك ومعه رئيس مجلس إدارة الدار (تستّرا على الواقعة وطلبا عمل نسخة أخرى من المخطوط والادعاء بالعثور عليها . وترجع وقائع هذه القضية إلى عام ٢٠٠٢ حينما تم اكتشاف اختفاء المخطوط) (وقد كشفت التحقيقات أن مجهولاً استولى على المخطوط وهو في طريقه للعرض أثناء الاحتفال بيوم الوثيقة العربية في ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٢) .

● هذا يحدث في الوقت الذي تكشف فيه التنقيبات الآثارية مثلاً : بقاء المكتبة العامة في مملكة " إبلا " جنوب غرب حلب منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، وعثر فيها على نسختين من ملحمة كلكامش ، وخمسة عشر ألف لوح تمثل المكتبة الملكية ، ونسخاً من وثيقة ميزانية الحكومة آنذاك لعدة سنوات ، وإشارة إلى مجيء معلم للحساب من مدينة كيش إلى إبلا [2] . ومثلها : مكتبة مدرسة للرياضيات في تل محمد من أنحاء بغداد التي عثر فيها على ثلاثين ألف لوح في علم المثلثات بالخط المسماري البابلي ، والكثير منها أجوبة الطلاب في الامتحانات ، فتأمل .!

● لذلك : فإن هذه الملابسات التي سُرقت فيها رسالة الشافعي تجعل الدعاة يؤمنون بأن من أهم محركات الحياة : كشف التراث ، وتحقيقه وإشاعته ، وتدوين مناقب الأولين والتاريخ العلمي والحضاري المعرفي ، لا السياسي فقط ، لأن كتلة المعرفيات المتراكمة القديمة هي مَدَد معنوي عظيم لأبناء الصحوة الإسلامية ، وعامل نفسي مهم يحركهم نحو الاقتداء بالسلف ، والنسج على منوالهم ، وتلك الكتل المعرفية التي حفظتها رفوف الزيتونة واليمن وسمرقند وحيدرآباد ، ثم

---

(١) أخبار الأدب عدد ٩/ ٩/ ٢٠٠٧ .

(٢) الموسوعة العربية ١/ ١٠٧/ ١٠٨ .

اجتمعت في اسطمبول ثم القاهرة : كانت من أهم أسباب حصول ظاهرة التمركز وذيوع الخير من تلك المراكز ، إذ هي التي تولت توليد نصف الحميَّة والهمة ، ونصف آخر صاغته سير العلماء والزهاد والأبطال في كل جيل . والدعاة اليوم حين يتصدون لإنجاز عملية تربية كبرى في الأمة بحاجة إلى صيانة تلك الكتل المعرفية والعلمية ، ورعايتها وترويجها وتقريبها من أيادي الصاحين الصالحين المتربين ، وبمثل ذلك تتحرك الحياة .

ليس هذا في العالم الإسلامي فقط ، بل سرت هذه الظاهرة بسبب نمط الحياة الحديثة إلى مراكز العلم والثقافة في أوروبا وعموم الغرب ، فهناك جامعات ومكتبات تحوي تراثنا ، ثم هناك جاليات إسلامية والوف من المسلمين في الدراسات العليا ، فتولدت من ذلك ومن المنهجية الغربية الناضجة : تمركزات مثيلة مهمة نتج عنها الانتشار ، والخطط الإسلامية يجب أن تنطلق من هناك أيضاً ، لتصلح وتستثمر وتقود .

ومثل مصيبة ضياع "الرسالة" لا توقف الخير والإصلاح ، فإنهما تياران ثريان يستمدان زخمهما من القوة التي في قلوب المؤمنين في كل جيل ، ولكن فقد وثيقة مباركة أمر مؤلم للقلب ، وأن تكون "الرسالة" هي المفقودة بخاصة ، لأنها ليست كتاباً تقليدياً ولا هي مبحث تجميع نقول ، وإنما هي قطعة أدبية لغوية بليغة بقلم أفصح الفقهاء ، وهي عمل عقلي ناضج ، ومحاكمات منطقية ، واسترسالات إبداعية تذهب في مذاهب الشريعة نفسها ، فتوسع نظر الفقيه ، وتعلمه التعليل وفن الاستنباط وطرائق الاجتهاد ، وهي مطبوعة مشهورة وحصل مقصود تأليفها ، ولكن ضياع أصلها يجرح ، وأنا أقيس البركة التي فيها وفي مثلها على العناية التي أبداها الصالحون من بني إسرائيل بالبقية التي تركها آل موسى وآل هارون من نعلٍ وعصا ، فجاءتهم في التابوت ، فأثر الفقهاء من الجيل الأول البارع تمتزج به بركة هي دون بركة متاع الأنبياء ، ولكنها شعبة منها ، وفي أوراق العلم بهاءٌ أوفر .

● وإذا كانت رسالة الشافعي تنالها يد لص : فإن رسائل الله محفوظة وتقود أمة الإسلام ، وهي التي ذكرها العز بن عبد السلام في تفسير قوله الله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ص/ ٢٩ ، وقوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ النساء/ ٨٢ ، فقال :

(إنما أنزل الله كتابه ليتأدّب عباده بآدابه ، ويتخلقوا بأخلاقه ، ويتأملوا ما فيه من الثناء على الله . وما لم يُتدبّر ذلك حتى يُفهم : لا يمكن العمل به ، فإنه رسائل أرسلها الله تعالى إلى عباده لينفذوها ، لا لتقرأ عليهم فلا يفهموها ولا يقيموها .)[1] .

وقد قال تعالى : ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ .

وأما أخذها بضَعف وتردد ومن دون فهمها : فهي من آثار غفلة تعتري المؤمنين ، فإن الله كما خلق أنفس الناس على شكلين : مؤمنة وكافرة : جعل نفس المؤمن الواحد مترددة بين حالتي رجحان الإيمان ونقصانه ، وفي الآية الكريمة ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ : تصريح بأن نفس المؤمن في الحياة الدنيا تجمع إلى إيمانها وأنواع الخيرات فيها شيئاً من غِلّ وبقية من سخيمة وما يضادد معنى الاخوّة ، ولكن المحاسن هي الأكثر ، فيدخل صاحبها الجنة بالرغم من ذلك مصداقاً للآية الكريمة ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

هكذا أفهم آية نزع الغل ، وهو الأثر الباقي من الفجور المذكور في ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ ، فقد ذهَب أكثر الفجور بالترويض والتوبات والاتعاظ ، وبقي بعضه الذي سُمّي غِلاً ، وهو اسم بشعٌ أيضاً ، لأن القليل من الشر والعيب كثير في النظر الإيماني . ثم ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ آية تشهد بقوة العنصر الفجوري في

---

(١) شجرة المعارف / ١٢٧ .

النفس لولا رادع الدين والتقوى ومخافة الله .

☐ بين حدود الفاع التأصيلي وزوايا التنمية تتكامل الكتلة التخطيطية

☐ إن استثمار ظاهرة البؤر التربوية المتمركزة يقتضي صنعة تخطيطية واضحة المعالم ، من شأنها بيان كيفية التناول المنهجي الصحيح لقضية التأثير ، وشرح طريقة تحريك الحياة من خلال منظومة متناسقة من المعاني والعقائد والأساليب والوسائل ، وما ذلك بالسهل ، ولا تأتي به العجلة ، وإنما هو فكر عميق يندمج مع تجريب عملي ، وبهما يتجاوز الدعاة التصرفات الساذجة والخطوات القافزة التي ابتلي بها بعض الطارئين في ساحة العمل الإسلامي ممن حاص فأدى إلى توليد أضرار وبروز موانع وعقبات ترهق الدعاة .

● وتبدأ المسألة التخطيطية بتأسيس نظر إلى المستقبل انتبه له الإمام بديع الزمان نورسي ، فقال في اللمعات :

(التفكير بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل إلى الحاضر خيالاً ، بل الذهاب فكراً من الحاضر إلى المستقبل ، ومشاهدة المستقبل من خلال الحاضر الواقع .)[1] .

وواضح أنها عملية تستند إلى القياس الذي هو نتاج مُكنة عقلية ، ثم تستند من ناحية أخرى إلى معرفة الواقع بدقة من خلال البحوث الميدانية والإحصاء والوصف الأمين الذي لا يبالغ ولا يخفي الحقائق المعيبة وأنواع التقصير والتفريط ، بل يقول للخطأ أنه خطأ حتى لو جرح شعور الكبرياء الزائفة التي تستولي على مقترفه ، وبعض أعوان القادة يحجبون عنهم أحياناً الأخبار السلبية ، فيسبب ذلك تشويشاً للصورة ورؤية زيف جمالي فقط في صورة

---

(١) اللمعات / ٢٤٦ .

الواقع ، فتكون القرارات المهلكة والخطط المثالية التي لا يعضدها رصيد تنفيذي ، فيكون الفشل الذي يولد الإحباط ، وتبدأ قصص التلاوم فالاختلاف .

● وذاك النظر المستقبلي إلى الأمام يلزمه من أجل اكتمال القياس نوعاً من إدارة الرأس إلى الوراء ، ورؤية الماضي ، والتدقيق فيه ، واستنباط دروسه ومفادها .

وعبد المعطي الدالاتي يرى أن (الحياةَ التفات)[1] ، وهو يعني أن الحي الذي يحياها لا يجوز له أن يدأب في المضي قُدماً ومسايرة استمرارها ، بل يجب عليه أن يفحص المحيط ، ويدري الخبر ، ويمد بصره إلى اليمين والشمال ، ويدرس الآثار التي خلّفها وراءه وطبعات أقدام السائرين ليكتشف ما كان فيها من استقامة وعوَج ، وإقصار ومدّ ، وأما الدائب بلا مراجعة فإنه يوشك أن يكرر الخطأ ، ولا ينتبه لحصول خيدة في زاويته إلاّ بعد أن يوغل في الابتعاد عنها ، فيقبل أحواله على عِللها ، لفداحة ضريبة التصحيح لو أراد ، وذلك منشأ الدهشة التي توسوس بنكوص ، ولو أنه أخذ بوصية " الالتفات " مذ أول أمره : لرشحته الأيام لفاعلية ووصول .

● ومع أنها مسؤولية فردية في التأمل الكثيف لرؤية الأمام والخلف : إلاّ أنها مسؤولية جماعية أيضاً نؤديها من خلال الحوار الحُر الملتزم بأخلاقيات تبادل الرأي ثم بقواعد المنطق والأسلوب الأصولي .

وكان العالم النفسي السوري د. حسين عبد القادر قد أطال النظر ، فرأى أن (الخطو الساكت مسكون بالعتمة) ثم بهرته جماليات التعاطي النقدي فاستأنف واستدرك فقال : (وما أروع إضاءات الحوار كي تستقر على شطآنٍ للفهم ، وقد ندفع معاً أبواب الليل الجاثم) وقد استفزته (غابة الصمت)[2] .

---

(١) ديوان " أحبك ربي " / ١٤ .

(٢) التحليل النفسي / ٣٤٨ من منشورات دار الفكر بدمشق .

وأخوف ما أخاف : **أن تدخل بعض أجزاء الدعوة في بعض الأقطار** (غابة الصمت) **والخَرَس وإطباق الفم ، فيضحى الأمر بالمعروف سبب تضعيف . فيخرج عفريت من جن (العَتَمة) يشعر بالعظمة ، فيصرخ الصرخة البلهاء .** فيرتجف الدعاة جرّاء الإرجاف ، وقد كان الحوار ممكناً لهم لو كانوا يعلمون سياسة النفوس .

● وفي استطرادات د. حسين عبد القادر في هذا الباب (أن الفكر العلمي سيظل تصحيحاً لمعرفة ، وإمساكاً بما وراءها ، إدراكاً بأن بُنية هذا الفكر العلمي إنما هي الوعي بأخطائه) وذلك (ان قوام الفكر ذاته أن يفهم المرء أنه لم يفهم ، عندها نستطيع الإبحار في مركب الفهم ، كشفاً للجديد عبر النقيض .)[1] .

وهذه مفاهيم صحيحة في منهجية التطور المعرفي ، إنما هذا الإطلاق في القول يلزمه بعض الاستدراك الذي يستثني الإسلاميين ، فإنهم أحسن حالاً من غيرهم بسبب القاعدة العلمية الصحيحة التي وفرها لهم القرآن الكريم ثم حديث النبي ﷺ ، فهم يفهمون أنهم يفهمون ، ولكن المعارف التي هي خارج نطاق ما كشفه الوحي مطلوبة ، والعلم البحت والتطبيقي ضروري ، وفي منهجية حيازتهما يصدق كلام اتهام النفس بأنها لم تفهم مهما فهمت ، وأن الخطأ متوقع منها . وأن وعي الأخطاء هو محور تنامي المعرفة .

● والأساس في التوسع المعرفي : هو الانسجام مع القواعد التي بيّنها الوحي أنها تحكم العلاقات البشرية ، ثم العلاقات الكونية العامة ، وذلك ما شرحه سيد قطب في الظلال بوفاء وإتقان ، وكان بديع الزمان قبله قد أكثر من الإشارة إليه ، وفي لمعاته : (**أن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة : لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي ما لم تكن الحركة**

---

(١) التحليل النفسي / ٣٤٥ .

منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون .)[1] .

● لكن القوانين الفطرية لا ينتبه لها ملحد ضال ، إنما تحتاج فطرة نقية أصيلة لم يشبها تعكير مستقرة في داخل نفس الناظر إلى تلك القوانين ، فتتحد خِلْقة الناظر والمنظور إليه ، كما اتحدت عند مؤمن اللاذقية مصطفى عكرمة [2] ، فاسترسل في التمجيد ...

يـا ربِّ قـد أبـدعتَ مـن عَـدَمٍ جميعَ الكائـناتِ
الأرضُ كـم أعطـتِ الإنـسان شـتى الأعطـياتِ
هـذي الـسماءُ بـلا دعـائمَ حَيَّـرتْ كُـلَّ البُـناةِ
أمـسكتها فـإذا بهـا مـثل الثَّـباتِ علـى الثَّـباتِ
الكـلُّ في فَلَـكٍ يـدورُ كمـا أردتَ بـلا انفـلاتِ

● وفي هذا المجال يكثر شوق المؤمنين لرؤية الأفلاك والمجرات العظيمة ، وما تكشفه التلسكوبات الجبارة الجديدة من دلائل الإعجاز في الخلق الكوني العظيم وإبداع المبدع سبحانه ، وتلك سُنة حسنة وتطمين لقلب كل مؤمن ، ولكن الأمر أقرب من ذلك عند العلماء من المؤمنين ، ولا يقتضي الشأن الإيماني أن نذهب إلى البعيد القصي ، **بل يكفينا أن نسبح الله مع بديع الزمان نورسي ، وأن نعتقد ما يعتقد من أنه (يلزم لإيجاد نقطة في مكانها الصحيح : قُدرة مطلقة تستطيع إيجاد الكون كله .)**[3] .

فصغائر عقيدة التوحيد بوزن أكابرها ، والقضية قضية يقين بوجود إله قادر خالق ، وخلق النقطة الضامرة شأن عظيم جداً ، والذي يأتيه ويسطيعه لا يعسر عليه خلق المجرات والثقوب السوداء وملايين الشموس .

بهذه البساطة ينساب الإيمان إلى قلوب أهل المنطق السوي .

---

(١) اللمعات / ٢٥٧ .

(٢) ديوان حتى ترضى / ٥٠ .

(٣) المكتوبات للنورسي / ٦٠١ .

● وظاهرة استمرارية الحياة هي جزء من دلائل هذا المنطق التبسيطي . يشرحها لنا مصطفى عكرمة [1] لما رآها في صورتها المتحركة ذات الدوام ..

قــدرتَ أرزاقَ كــلُّ الخلــقِ مِــن عَــدَمِ
وزدتَ في الــرزقِ يــاذا الجــودِ والكَــرَمِ
فالــنملُ ، والطــيرُ والأسمــاكُ أجمَعُهــا
مَــن عاشَ في النورِ أو مَن عاشَ في الظُلَمِ
وكــلُّ ذي مُهجَــةٍ في الأرض زاحفَــةٍ
أو غــيرِ زاحفَــةٍ تــسعى علــى قَــدَمِ
آلافُ آلافِ أعـــوامٍ ومـــا بَـــرِحَتْ
كــل الخلائــق تلقــى غايــةَ الكَــرَمِ

● وفي مذهب "المثالية المطلقة" الفلسفي الذي قال به هيغل وشيلنغ ورويس مسحة من هذا التبسيط ، وإضافة دليل منطقي ظاهر إلى دلائل التوحيد يفترض ان زوال المخلوق يدل على أزلية الخالق ، وهذا استنتاج لائق ، مع أن كلام الفلاسفة يداخله تخليط ، (والمثالية تذهب بوجه عام إلى أن الحقيقة المطلقة كامنة في عالم يتعدى عالم الظواهر ، وهي تعني – عند هيغل بخاصة – أن العالم المحدود لا يعدو أن يكون انعكاساً للعقل ، الذي هو وحده حقيقي بكل ما في الكلمة من معنى ، في هذا العالم . ليس هذا فحسب ، بل لقد انطلق هيغل من ذلك إلى القول بأن الكائن المحدود ، أو الكائن الذي يوجد ثم ينعدم : يفترض وجود ذات أزلية مطلقة يشكل الكائن المحدود في نطاقها عنصراً تابعاً .)[2] .

ومبحثنا يلتقي معه في الاحتفال بالعقل ، لكنه ليس وحده هو الحقيقي ، بل نحن والمخلوقات حقائق أخرى مشاركة ، ولذلك كان الإنسان حاملاً للمسؤولية

---

(1) ديوان "حتى ترضى" / ٦٢ .
(2) موسوعة المورد ١/ ٢٥ .

شرعاً، ومحاسَباً من الله، وكأنه يجعل النفس مندمجة مع العقل، لأنها حقيقة اخرى عظيمة، وسياقه يقتضي أن النفس تفسر المنظر الخارج أو الحدث وتعطيه سمة فرح او حزن او يأس أو تفاؤل، أو ما سوى ذلك من الأوصاف، وهذا قول يصدق في كثير من الأحوال وإن كان لا يطرد، لأن لهذه الأوصاف حقائق خارجية أيضاً، وقول هيغل في انعدام المخلوق يتحفظ عليه مفاد عقيدتنا الإسلامية، لبقاء الروح، والبعث بعد الموت، وتلك هي الاختلاطات التي تعيب مذاهب الفلاسفة، وإنما أردت الإتيان بشاهد مُجمَل من مفاهيم الفلسفة يلتقي مع طبيعة مباحثنا في مواطن وإن فاصلناه في مواطن أخرى، وعلم الكلام الإسلامي قد حوى المقدار الصحيح من هذا التصريح الفلسفي ابتداءً.

● **إنما موطن افتراق طريقة المؤمنين في التعاطي مع العقل عن طريقة الفلاسفة يكمن في الالتزام العملي بمفاد استنتاجاته، وفي قضية الأخلاق بخاصة، وفي ضبطه للنفس الجامحة ذات الطمع وطبيعة التفلت والتمرد، بينما الفلاسفة يتعاملون معه تعاملاً خارجياً، وكأنه مؤسسة مستقلة عنهم، ويفتح أحدهم حواراً مع عقله وكأنه كيان آخر، وما ثم غير عقل واحد وانعكاسه وصداه، ولذلك تبقى نفسه آبية شاردة وكأن الأمر لا يعنيها، وهذا الامتياز الإيماني هو سر الاحتياط الذي وُفق له الشاعر الطُغرائي وترفعه عن المستوى الدون وقوله:**

اصالة الراي صانتني عن الخَطَلِ

وحِلية الفضل زانتني لدى العَطَلِ

فهو يجمع فضلاً إلى الرأي الاجتهادي، ومحاسن أخلاق تنتسب إلى عِرق في التفكر عميق، فليس هو بطارئ ولا خفيف سطحي، وإنما له نفس إلى جانب العقل، فيتيح لها أن تنفعل، فتتحرك بذلك حياته الخاصة، فتتحرك الحياة بحركتها، كما في ظواهر الفيزياء.

● ومن آثار هذه الظاهرة: أن الفنان أقدر من الفيلسوف على تحريك الحياة، وامهر، واعمق فهماً لها ولقوانين التحريك، وبخاصة إذا كان انطباعياً أو

تجريدياً ، لأنه يظل يرقب خلجات نفسه ومحاولات فهمها للواقع وفق طرائقها الذاتية ، ومن خلال استقباله لمئات درجات الصدى ربما : يصطاد أحدها وكأنها هي التي صيغت من أجله ، فيأخذها ويستعملها وينفعل بها ، فتتوافق هندسة خارجية مع وعاء داخلي مستقر في أعماقه ، فيكون التئام والالتحام ، والتئام يتحرك وينتفض ويحاول عَرض ذاته والفخر بإنجازه ، فيكون تحريك الحياة بذلك ، وتكون الألوان عندها مجرد عامل مساعد لتكثيف المعنى .

● بمثل هذا أفهم قول الفنان الانطباعي الفرنسي سيسلي المتوفى عام ١٨٩٩ (الحياة والحركة ضروريتان ، تعتمدان على انفعال الفنان ، الذي عليه أن يُعدّل من صياغة العمل الفني بموجب هذا الانفعال .)[١] .

وهذا مبدأ فني ، لكنه قانون لكل الحياة وشرح للتلازم بين الانفعال والحركة في عرصة الحياة كلها .

ومثل هذا الفهم لمقدرة الفن على التحريك هو مفتاح فهمنا لأثر المعرفة كلها في التحريك ، لأن الفن هو بعضها ، وبه يتبين دليل آخر على خطأ من يتناول قضية التحريك تناولاً سياسياً فقط دون عمل تكاملي متعاضد ومنهجية شمولية ، وبمثله نستوعب المغزى العظيم لكلمات يسيرات أدلى بها د. نبيل علي ، خبير الثقافة بمصر ، حين قال :

(إن الثقافة برمتها منظومة معلوماتية ، وفي عهد المعلومات أصبحت النظرة الى الثقافة أكثر شمولاً ، وأصبحت عملية الثقافة هي محور عملية التنمية ، وبالتالي لم يُنظر للثقافة نظرة جزئية .) (إن خطابنا الثقافي قد ترهل ، لأنه انشغل باهتمامات سياسية فقط ، أو أدبية ، وترك منظومة الثقافة بمكوناتها المختلفة دون سند حقيقي من المفكر .)[٢] .

---

(١) الموسوعة العربية ١١/ ٤٢٨ .

(٢) أخبار الأدب عدد ٩/ ٩/ ٢٠٠٧ .

• هذا السند يكمن في منهجية التفكير التي تدور بين الاستقراء المستقصي المحصي الراصد ، والاستنتاج التحليلي التعليلي الفاحص النازل إلى أعماق عديدة تحت السطح ، وهما أسلوبان متكاملان لا استبداد لأحدهما ، (فقيمة الاستنتاج تكاد تعادل قيمة الاستقراء ، بل إنه لا قيمة لأحدهما من دون الآخر) و(ينتقل المرء من الاستقراء إلى الاستنتاج ومن الاستنتاج إلى الاستقراء .)[1] .

وواضح أن ركن ذلك هو العمل العقلي الذي فيه مقارنات وقياس ومحاكمات واستنباط ، ولكن الأثر النفسي في تلك الأثناء له حضور وبيان ، فتضحى النفس طرفاً في المعادلة لا يمكن تجاوزه .

ومثل هذا اكتشاف قديم ، وفيه تعبير عن منهجية مألوفة في تناول قضايا الحياة ، ومن خلال استيعابها قال الشاعر سلامة بن جندل[2] في وصف أيام قومه من بني سعد ، وأنها :

يَـومانِ : يـومُ مُقامـات وأنديـةٍ
ويـومُ سـيرٍ إلى الأعـداء تأويـبُ

فاليوم الأول : إقامة حوار في الأندية ، وإجالة الفكر ، والقياس والاستنباط ، ووضع القرار ، وما يكون خلال ذلك من ترويح للنفس وطربٍ وخيالٍ ونشوة ، ومحاولة عزلٍ ونسيانٍ لأنواع الهموم ، وغسل الإناء الداخلي من آثار الأحزان السابقة وإجلاء المتراكم ومعالجة الوسوسة .

واليوم الثاني : يوم تنفيذ وسير عملي ، وممارسة إصلاح ، وجهاد ، واستقبال لضرائب من التضحيات جديدة ، وحُسن تأويل لها ، وفهم لسببٍ ثمنٍ واجب الدفع كي تستقيم الحركة أو تدور حول محور . !

وهذا هو التخطيط المتقن في صورته النموذجية .

---

(١) الموسوعة العربية ٢/ ٢٢١ .

(٢) تفسير ابن عطية ١٢/ ١٤١ .

● والمذهب الإيماني يُقر سياسة اليومين ، ومن فقه العز بن عبد السلام أنه (قد يُثاب الإنسانُ على أكله ونومه إذا قَصَدَ بهما التقوّي على الطاعة . وعلى بعض المزاح إذا قصد به جَبْرَ المزوح معه ، وعلى ذلك يُحمل مُزاح الأنبياء عليهم السلام . فكم من راقدٍ على فراشه وهو سائر إلى الله ، وكم من آكلٍ وشاربٍ ومازحٍ ومُلاعبٍ : مقتربٍ إلى الله بمقصده في ذلك .)[1] .

وهذا هو تفسير وصايا نظرية حركة الحياة في أن تعيش حياة المرح ، حليفاً للفن واللون وإبداعات المعماريين وآليات الجمال .. !

❑ التنظيم إبداع بركة من إسقاطات اصطلاح الابتداع

❑ **لكن الاسم الجهادي لهذا اليوم الثاني مأخوذ من وصف نهايته وساعته الأخيرة ، وأما ما قبل ذلك وصباحه وضحاه وظُهره وأصيله : فهو يوم تنظيم وتربية وتنمية شمولية وعمران ، وقد تفتح فتوحك سِلماً وترغيباً وبآليات الإقناع والانتخاب ، ورُبَّ فاجر تسيطر عليه نفس شرهة يمكنك تحييده بالمال ، وليس يضيرك أن يكون يوم البناء هذا طويلاً ، لأنه يمنحك من النتائج أرسخها وأثبتها وأكثرها إتقاناً ، وأما الطفرات فتعيرك طارئاً تسترجعه .**

ويمكنك أن تسميه " يوم الجَدَل الطويل " مع الأغيار بعد أن تكون قضيت " يوم الحوار الطويل " التربوي مع إخوانك .

قال العز بن عبد السلام : (فصل في :

الجَدَل لإظهار الحق

قال الله تعالى : " ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ " العنكبوت/ ٤٦ ، وقال : " قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا " هود/ ٣٢ ، وقال : " وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ

---

(١) شجرة المعارف / ٤٥٩ .

أَحْسَنُ" النحل/ ١٢٥ .

إحسان الجَدَل : إحسان إلى المجادَل ، بإرشاده إلى الحق ، وإبطال شُبَهِهِ . وشرفه بشرف المجادَل فيه . فالمجادلة لإظهار الأيمان : أفضل المجادلات .)[1] .

وهو عمل منهجي متشعب الأنماط والفنون ويتخذ من الحقائق الشرعية والكتلة المعرفية كلها قاعدة وخلفية انطلاق ووسيلة ، ولذلك يؤدى من خلال سُنة التنظيم الإبداعية ، لمكان الحاجة إلى ترتيب مختلف أنواع التخصصات والجهود في سياق واحد متجانس متتابع متسلسل ، لذلك يكون هو الإبداع المنشود الممدوح ، وما لفظ البدعة الذي أوهمَ البعضَ وغرّهم ظاهر حروفه غير اصطلاح مستعار من تقليب وجوه الاشتقاق اللغوي لأساس الكلمة ولا يعني بتاتاً رجحان تركيبه على أصل المفاد الشرعي وفحوى المصلحة الكامنة في الفعل .

ومصالح الشريعة مُرسلة مع ظاهر الظن فيها ، ولن تغيرها تخوفات مُوسوِس أو قيود مقلد يمنع الاجتهاد .

والمنهج الدعوي المؤسسي ، والتنظيم ، ووضع الخطط : مما يراه البعض بدعة : هو عمل بسُنة ، وقد قال الإمام العز بن عبد السلام في شرح حديث " من سنّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من يعمل بها " : (ابتداع السُنن الحسان : توسّل إلى العمل بها ، وفضله مأخوذ من فضيلة المتوسل إليه) (فكلُّ ما دلّ عليه الكتاب او السنة أو الإجماع على أنه إحسانٌ ، قاصرٌ أو متعدٍ ، فعمل به إنسان لم يُسبق إلى العمل به : فذلك ابتداع حَسَن ، لاندراجه في الشريعة ، فهو مبتدَعٌ من جهة العمل ، لا من جهة كونه مأموراً به ، وذلك كسائر الرُبُط والمدارس ، وتدوين كتب الفقه والأصول والتفاسير ، وغير ذلك ممّا لم يُعهَد في العصر الأول .)[2] .

---

(١) (٢) شجرة المعارف / ٣١٢ / ٤٣١ .

وهذا تخريجٌ ماهر لمعنى البدعة التي أجفلتْ أصحاب الحساسية من المتدينين العُراة عن الفقه ، فإن مكان البدعة هنا في مثل هذه الأعمال هو المبادرة والسبق إلى العمل بذلك ، وأما أصل شرعية العمل فثابت ، وكما بنى المسلمون المدارس ولم يبنها النبي ﷺ : نبني دور الدعوة ، قياساً ، وكما ألف العلماء كتب الشريعة : نؤلف في الفكر والإدارة وحركة الحياة وغير ذلك ، استطراداً ، لثبوت أصل التعلم والتعليم ، فالابتداع هنا وصف حَسَن للفاعل لذلك ، انه كان أسرع من غيره من المسلمين إلى فهم مراد الشرع فكان الأول في تأسيس عمل قائم منظور يترجم الوصية الشرعية إلى واقع ، وليس أنه أتى بشيء ينكره الشرع . وبذلك يزول الإشكال ، وهذه فطنة من العز بن عبد السلام نحن بحاجة إلى مثلها .

❑ الشروط مَحاور التقدم

❑ **ولكي تكون في نشاطك إلى السلامة أقرب : يكون من الواجب التمييز بين العاملين ، وتسليم مفاصل العمل إلى الثقات .**

● ففي الولايات : (نقدّم في كل ولاية : أعرف الناس بمصالحها ومفاسدها ، وأقومهم بجلب المصالح ودفع المفاسد ، فيقدم في الخلافة أكمل الناس في أوصافها وأقومهم بأعبائها . وفي إمامة الصلاة : أفقه الجماعة وأقرأهم .) (ونقدم في ولاية الأوقاف الأعلم فالأعلم ، والأورع فالأورع ، والأصلح فالأصلح . ونقدم في الحروب الأشجع فالأشجع ، والأنفع فالأنفع في معرفة الحروب ومكايد القتال .)[(١)] .

● **والظاهرة التي تلفت النظر : أنك تجد الفروق بين المؤمنين عظيمة ، فالإيمان يجمعهم ، ولكن المقدرة تتباين ، حتى أنك** - كما يقول الراغب الأصفهاني :

(ترى واحداً كألف وألفاً مثل واحد .

---

(١) شجرة المعارف / ٤٥٣ .

كما قال القائل :

ولم أر أمــثال الــرجال تفاوتــت

لــدى المجــد حتى عُدّ ألف بواحد

بل قد ترى واحداً كعشرة آلاف ، وترى عشرة آلاف دون واحد ، كما قال عليه السلام وهو أصدق الناس قيلاً : " الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة " .

والإبل في تعارفهم اسمٌ لمائة بعير ، فمائة إبل هي عشرة آلاف .)[1] .

والأليق أن اللفظ تأكيد وتفسير لمعنى الإبل ، ولكن الراغب لغوي أيضاً ، وله أن يفهم السياق كما فهمه ، وواقع الناس يؤيد ما ذهب إليه .

● هذه الظاهرة هي مصدر قاعدة تولية الأمثل ثم الأمثل ، ورؤساء المؤمنين يجب أن يكونوا وعاة حين تمكين أحد من سلطة أو احتلال مركز نفوذ ، ويسري ذلك ابتداءً من الإدلاء بصوت انتخابي صغير ، ويتصاعد في الأهمية حتى ينتهي بإعانة متطلع لحكم بلاد بأكملها ، فالواجب في كل ذلك أن لا يعين ضعيفاً ولا قوياً طامعاً يريد الدنيا وقد ضمرت عنده أحاسيس نصرة الدين ، فإذا أغمض المؤمن عينه عن ذي أبهة لا تستبعد الفراسة أن يصبح ظالماً : عاقبه الله بأن يسلط عليه ذلك الظالم فيتنكر له ويسيء إليه بمقدار ما أحسن له هذا الثقة .

ومثال ذلك قصة نقيب الأشراف عمر مكرم بمصر واجتهاده في مساعدة محمد علي باشا الكبير وتثبيت حكمه ، ثم ندمه على ذلك بعدما تبينت مساوئ محمد علي .

يقول الجبرتي : (هو الذي قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملّكه الإقليم .)

لكن الباشا خاف منه بعد ذلك ، وتوافق خوفه مع مساعي علماء السوء الذين حسدوه فطفقوا يوغرون صدر الباشا ، مثل شيخ السادات والدواخلي .

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب / ٨٨ .

ولما اجتمع العلماء لبحث قضيته (أخذ الباشا يدبر في تفرق جمعهم وخذلان السيد عمر ، لما في نفسه منه من عدم إنفاذ أغراضه ومعارضته له في غالب الأمور ، ويخشى صولته ، ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره إن شاء جمعهم وإن شاء فرّقهم .) .

وانتهى الأمر بعزل عمر عن ولاية الأشراف ونفيه إلى المنيا ، و(نمّق مشايخ الوقت عرضحال في حق السيد عمر بأمر الباشا ليرسله صحبة السلحدار . وذكروا فيه سبب عزله ونفيه عن مصر ، وعدوا له مثالب ومعايب وجُنحاً وذنوباً .) (وكتبوا عليه أسماء المشايخ وذهبوا به إليهم ليضعوا ختومهم عليه . فامتنع البعض من ذلك وقال : هذا كلام لا أصل له .) (وكان من الممتنعين أولاً وآخراً السيد أحمد الطحطاوي الحنفي) فلذلك (اتفق الأشياخ والمتصدرون على عزل السيد أحمد الطحطاوي من إفتاء الحنفية) (لأنه لم يوافقهم في شهادة الزور ، والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد ، مع أن السيد عمر كان ظلاً ظليلاً عليهم وعلى أهل البلدة ، ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم ، ولم تقم بعد خروجه من مصر راية ، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض . وأما السيد عمر فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه ، ومَن أعان ظالماً : سُلط عليه ، ولا يظلم ربك أحدا .)[1] .

وهذه ظاهرة أخرى ، أي أن من يشغب ويشهد زوراً : ينحط أمره وينخفض ولا تقوم له قائمة .

وجماع القول في ذلك أنه (ليس مَن جَمَع مع الكفاية الأمانة ، كمن أضاف إلى العجز الخيانة .)[2] .

وعلامة السوء في مثل ذلك تكفي ولا تحوجك إلى تدقيقٍ وفحصٍ لما في الخلايا

---

(١) تاريخ الجبرتي ٣/ ١٩٠-١٩٢ طبعة الدار العلمية .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ٣٩٨ .

بالمايكروسكوب ، بل الأمر كقول أبي الأسود الدؤلي :

★ نظرتُ إلى عُنوانه فنَبَذْتُهُ ★

فبعض الناس تعرف من حروفٍ يسيرة إذا كلّمك أنه قد امتلأ شراً وخُبثا ، وما كان أمر محمد علي ليخفى ، ونحن نقرأ المكر واضحاً في الصورة المشهورة التي رُسمت له ، فكيف وقد شافهه عمر مكرم ، ولكنها غفلة الصالحين وسذاجة علماء الشرع أحياناً ، مع أن لهم عبرة في السوابق لو كانوا يقيسون ، فإنه ما أسرّ أحدٌ من سريرة إلا وكشفها الله ، وحركة الأخلاق والنوايا من داخل النفس إلى العلانية حركة مؤكدة لا بُد أن تقع ، وهي التي ذكرها عبد العزيز الأبرش (١) قديماً فقال :

يُلْـــبِسُ اللهُ في العلانــــيةِ العبــــ

ــدَ الذي كان يَخْتَفي في السريرهْ

حَـسَناً كـان ، أو قبيحاً سيُبْدي

كـلُّ مـا كـانَ ثَـمَّ مـن كـل سِيْرَهْ

وفي الحياة السياسية الحديثة والمعاصرة قصص صعود كثيرة لضباط وساسة خدعوا المؤمنين فصعدوا على أكتافهم ، بل بعضهم يعلن ثورة مسلحة ويزعم الجهاد فينال تأييد العمائم والدعاة وهم لا يعرفونه قبل ذلك ولعله مملوء بالفسوق والخيانة ، وليس عذر المؤمنين سوى قولهم : رأيناه يصلي ، أو : بَلَغنا عنه خبر خير ، ولعلها صلاة الثعالب التي ذكرها أحمد شوقي .

● إن علاج هذه السلبيات لا يكون بتجفيف منابع الشر فقط ، فإنه عمل صعب ، ولن نستطيع إصلاح القادة المفسدين مهما بذلنا ، إلا أن يكون إصلاحاً يسيراً قليلاً ، لحلاوة السلطة ، ولكن العلاج يكون بأن يتصدى المؤمن لتطوير قابلياته وعلومه واستعداداته ، ويتخذ لنفسه مشروعاً طموحاً ، وينوي أن يكون

---

(١) روضة العقلاء لابن حبان / ٢٧ .

من صنّاع الحياة وقادتها .

إن ديدن الداعية : أن يزيد في تاريخ الأمة من خلال سيرته تجربة عفيف عصامي أضاف إلى الحياة شيئاً ، وأن يلقّنها مشاعر الود بعد العبوس ، ومفاد رؤى جمع الدعاة المصلحين الذين انتمى إليهم لما حرصوا على تمثيل كتلة المعروف .

فيكون كثير الدعاء مع عبد المعطي الدالاتي [1] ويردد معه :

أنـــا يـــا إلهـــي بقائـــي قلـــيل
بهـــذي الحـــياة فكـــيف الـــسبيلْ
لأجعــل عُمــري قــصيدة طُهــرٍ
وعَــبرةَ حُــبٍ وعِــبرةَ جــيلْ ؟

والله تعالى قد أودع جواب سؤال هذا الطموح في ثنايا آداب الشريعة وشروح جهرة الفقهاء ، فإن اتخاذ المسلم تطوير كفاياته وعلومه ومعارفه وخططه هدفاً : سُنة إيمانية وجعلها العز بن عبد السلام رحمه الله من جُملة التخلّق بمقتضيات أسماء الله الحسنى ، لا أسماء الرحيم الحليم الغفور فقط ، وما وازاها ، بل حتى أسماء الفرد الوتِر الواحد ، فعنده أن (التخلق بالتفرّد بأن تكون فريدَ دهرك ، ووحيد عصرك ، في المعارف والأحوال ، فقد قال ﷺ : سَبَق المفرِّدون . فقيل : مَن هم ؟ فقال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات) [2] ، رواه مسلم .

وهذا استلال جميل ، ومجاز رائق ، فالمؤمن من شأنه أن يتفوق ، ويزداد ، ويسبق ، وأن يحرص على المرتبة الأولى ، وتلك هي المنافسة في الخير ، وذلك هو ما تريده خطط التطوير وتربية الإبداع .

وإعلان البنك الوطني بقَطَر يستند إلى معادلة :

طموحُك + قدراتنا التمويلية = مشروعاً ناجحاً

---

(١) ديوان "أحبك ربي" / ٣٩ .

(٢) شجرة المعارف / ٨٧ .

وهي معادلة صائبة من معادلات حركة الحياة حين يكون الحرص على التكامل وافراً . وفي العمل الإسلامي معادلات متوالية ...

طموح الداعية المبدع + قدرات الدعوة = مؤسسة ناجحة

مؤسسة ناجحة = اشتهار قياديٍ في الميدان الاجتماعي

اشتهارٌ قيادي هو مشروع سياسي دعوي يفوز

فوز سياسي مسلم هو مثال عملي للإصلاح وكبت الفساد

● لكن هذا الطموح الذي يوصل إلى الإصلاح : يستلزم قبل كل شيء أن يهب الطامح كلَّ ذاته وكيانه وعمره وفكره له : ليهبه بالمقابل ما يريد ، وهي الحالة التي استولت على عبد المعطي الدالاتي[1] ...

لا .. لـن يعـوقَ مـسيرتي في الدربِ لهوٌ ، أو خَطيئَةْ
احــيا بظــل عقيدتــي حتــى أسَــرْبلَ بالمنــيّةْ
لعقيدتـي مـا قـد مـضى مـن رِحلتي .. ولها البقيّةْ

فلعقيدة التوحيد كل ما هنالك ، ما أسلفه من عمل وما يَنتظِر ، وهذا هو التجرّد الذي يتواصى به الدعاة ، وفي زعمهم **أن القضية الدعوية لن تنيلك بعضها حتى تمنحها كُلَّك** ...! والعُمر خطوة واحدة إذا حاولتَ قِسمَتها : عثرت .!

● والعلم شرط بعد ذلك ، فإن لم تستقر بأرض المشايخ ولم ترحل : فليس بأقل من أن تكون مثل إبراهيم بن إسماعيل الأجدابي الذي هو من رجال القرن الخامس الهجري ، ونال مكانة في اللغة والفقه من دون أن يرحل ، وهو صاحب كتاب (كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ) المطبوع المشتهر ، وقد سُئل (أنّى لك هذا العلم ولم ترتحل ؟ فقال : اكتسبته من بابَي هوارة وزناتة .) وهما بابان من ابواب سور بلدة أجدابية بليبيا قرب خليج سرت ، يعني أن شيوخه هم العلماء

---

(١) ديوان "أحبك ربي" / ٦٥ .

من المشارقة الذين يتوجهون إلى الغرب ، أو المغاربة الذين يحجون أو يذهبون إلى الشرق ، فكان يلقاهم ويقوم بخدمتهم وضيافتهم ويسألهم أن يلقنوه طرفاً من العلم ، حتى وصل إلى درجة العلماء[1] .

● والعلم يهبك نظراً مستوعباً لحقائق الحياة ، ولأثقال الذنوب ، ولخِفّة الفانيات ، فيميل بك إلى إسراعٍ نحو أرض التوبة ..

ويكون الشعار : وإلى الذي يهب الرغائبَ فارغبِ ...

ويكون الدِثار :

* ما أسعد القلبَ الذي لله بعد الذنبِ تابْ *

وينظر من عرش سعادته مع الشاعر العبدي إلى ذي إصرار طارت من كَفّه اللذات ، فتأسفَ ، و "تأوّه آهة الرجلِ الحزينِ" ...!

فيكون النشيد [2] ...

عُبَيْدٌ عصاكَ .. وها قد دعاكَ
بدمع الأسى خدُّه عفَّرا
فإما عَصيتُ .. فها قد أتيتُ
بقلبٍ حزينٍ ودمعٍ جرى
وإما غفوتُ .. فإني صحوتُ
ومن خاف أدلجَ عند السُرى
وفي الليل رِقٌ .. ودمعٌ وشَوقٌ
وقلبٌ دعاكَ إلهَ الورى

وليس هو الحزن على ما فات ، كمثل صاحب الآهة ، وإنما هو الحزن على حصول الفلتة وقد كان يليق له النقاء .

---

(١) الموسوعة العربية ١/ ٤٠٣ .

(٢) للدالاتي في ديوان "أحبك ربي" / ٣٥ .

وارتجف عمر بن عبد العزيز حين وعظه رجل من أن يوجل من يومٍ يلقى فيه الله : (بلا ثقة من العمل) .. !

وهو عَمَرُ المليء اليدين بالخيرات والصالحات ، ولكنه يعلم أن لا ضمان لعمل المؤمنين إلاّ أن يتغمدهم الله برحمته وفضله وإحسانه .

☐ شعور الثقة محتكر لفرسانٍ على ظهور الخيل .. !

☐ إلاّ الذين يقتربون من لحظة الشهادة : فإن لهم من حق الثقة بجهادهم ما ليس لغيرهم ، وهم في منزلةٍ لا يرفض الله ما يرجون من رحمته ، ومَن كُتبت له الشهادة فإنه يعلمها ربما ، وتكون له علامات يستدل بها على أن قَدَرَه أن يستشهد ، كالذي كان من البراء بن مالك أخو أنس ﷺ ، فإنه كان يتغنى ، فدخل عليه أنس وقال : (تتغنى بالشِعر وقد أبدَلكَ الله به القرآن ؟ .)

فقال : (أتخشى عليّ أن أموت على فراشي وقد قتلتُ تسعة وتسعين نفساً من المشركين مبارزة ؟)[1] .

فكانت تلك له قرينة أنه سيُقتل شهيداً ، ولذلك كان فرحاً جذلاً يترنم .

● وبدماء ذاك الجيل : وصل حكم المسلمين في صدر الإسلام من الصين إلى ما وراء إفريقية التي هي تونس الحاضرة وشرق الجزائر ، ثم إلى المغرب والأندلس ، ومَن هناك من عرب يفصحون بالعربية أو عجم ، وفي قول الشاعر الأحوص[2] :

يَجْبُونَ ما الصينُ تحويه ، مقانبهم
إلى الأفاريقِ ، من فُصْحٍ ومن عَجَمِ

جَمع اسم إفريقية على أفاريق .

---

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ١٩٨ .

(٢) لسان العرب ٢/ ١٠٨٨ .

والمقانب : سرايا الفرسان .

والفصح : العرب الذين ينطقون بالعربية .

● **ولستُ أقول بأن الخَلَف قعدوا عما كان عليه السَلف من جهاد ، لأن تحليلي لمعالم (تطور الدعوة وتاريخ الجهاد) أوصلني إلى فهم ظاهرة تناوب الغفلة ثم الإفاقة والانتفاض والبلاء الحسن الذي يعقبه بطر وترف ربما يميل معهما الجيل إلى تفريط يتفاقم فتعود الانتباهة والحَميّة الجهادية ، في تعاقب يُصلح الله به الشأنَ كلما انثلم** ، وقد كان قَدَر الجيل قبل الأخير أن يعيش فترة الذهول والفتور . ولذلك قال مصطفى عكرمة [1] في تعبير عما يجول في دواخل شعراء ذاك الجيل :

تَبَدّلَ كلُّ ما قد كانَ منّا
وصارَ خيالُ غاصبنا مُهابا
يسوقُ لنا الفناءَ بكلِّ آنٍ
ونحذَرُ أن نسوق له العِتابا

وتقريع النفس كثير في أدبيات الخمسينات والستينات من القرن العشرين ، ثم مع السبعينات بدأت آمال الصحوة والاستدراك وأعمال إصلاح الخلل .

● وكان من دِقة الاستيعاب لجغرافيا محاور التقدم أن تبدأ الدعوة البدايات التربوية والفكرية والإعلامية والتعليمية ، والاستجابة لمراد الله تعالى في التبشير بالهداية في كل العرصات وخلال جميع السُبل ، بما ورد في الآية الكريمة :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ العنكبوت/ ٦٩ .

قال ابن عطية : (فهي قبل الجهاد العُرفي ، وإنما هو جهاد عام في دين الله تعالى وطلب رضائه) (وقال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد في هذه الآية قتالَ العدو فقط ، بل هو نصر الدين ، والردّ على المبطلين ، وقمع الظالمين ،

---

(١) ديوان ' عليكم بالشام ' / ٧١ .

وعُظْمُه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالى .)[1] .

● فلما استوى الإصلاح وصار عالمي المدى : كان من قَدَر جيلنا الحاضر أن يكون هو جيل ما بعد اليقظة ... جيل الهوية الجهادية التي اكتسبها معطرة بوعي حين توالت مسيرة شهداء القسّام ، مستندةً إلى الأصل القديم والبواكير القادحة التي سجلت الرفض الجهادي الدعوي الأول لتأسيس إسرائيل ، ثم التوغل في أرض العراق لما هبط بها جُند المارينز ، مع استحضارٍ لومضةٍ في الأفغان أخذها الجاهلون ..

● بمثل هذه الأحاسيس تحركت الحياة ، ورصد عبد المعطي الدالاتي[2] لحظة الفصل :

(في لحظةٍ أحسستُ بالإيمان يُشرق من جديد فرنوتُ للأفق البعيد
للفجر .. للإنسان .. للإيمان .. للعيش الرغيد
فخلعتُ أثوابَ الدنيّة
ورجعتُ أبحث عن هُويّة
حتى وجدتُ البندقيّة) .

● بَيْد أن نظرية حركة الحياة تذهب في فهم كيفية نمو ونضوج الصولات الجهادية مذهباً فيه سعة تصوّر ومجاراة لنمط تطور المعنى النفسي في دواخل الصدور من شرارةٍ إلى وجيبٍ إلى لهيب ، واللمعة العقلية من خاطرة إلى فكرة إلى منظومة تنظيرية ، فتأخذها مأخذاً " معرفياً " يتفجر من تحت ، من حيث الفن والأدب والرمز والخيال ، حيث تكون البداية مع الفنان الفرنسي " جيريكو " ١٧٩١-١٨٢٤ وأمثاله ، وبتحويرٍ ربما تقتضيه احتياطات الفن الإسلامي .

---

(١) تفسير ابن عطية ١١/ ٤١٩ .

(٢) ديوان " أحبك ربي " / ٧٨ .

(ولع جيريكو بالحصان) و(أضاف جديداً للموضوع عبر دراسات عدة أجراها على رسم الحصان ، انطلاقاً من حدة ملاحظته وحِسه المرهف . وقد أدرج جيريكو الحصان في آخر حياته في جل أعماله في التصوير وفي الحفر . فالحصان عنده ليس موضوعاً اجتماعياً ولا تزيينياً ، كما هي الحال عند معلمه فرنيه ، وإنما هو محور أسطورة شخصية ، فهو حامل تأملاته في العاطفة المشبوبة المتقدة ، وفي العمل والألم والموت .)[1] .

وكأني بهذا الاهتمام بالحصان يمثل صنعة إيمانية إسلامية قبل أن يكون محوراً فنياً لاستلهام حالة الاتقاد التي أرادها هذا الفنان ، وشواهد ذلك قد تناثرت في رسائل حركة الحياة ، وأظهرها وصية جبريل بالحصان وكراهه إذلاله ، وأنا أزعم أن حيازة نبيل من نبلاء الدعاة لبعض الخيل وإباحتها لإخوانه في مجموعته للركوب والطرد والسباق : هو من أعلى الأعمال التربوية التي توقظ مشاعر العزة والاستعلاء والصلابة .

من هاهنا تبدأ الرحلة ، ومع الفنان العراقي فايق حسن الذي برع في تصوير حركات الخيل ، ومع كل فنان وشاعر وناثر أجاد مناجاة السيف والقوس والرمح والسماء والنجوم العوالي ، أو غاص يستنبط الطموح من أعماق النفوس وقيعان القلوب ، وكل الكتلة المعرفية هي خلفية انطلاق الشمولي الذي يقتفي التدرج ولا يغش نفسه بقفزٍ يكاد يكون استهتاراً .. !

□ قيود السجن لا تُرهق أحرار القلوب

□ الفَرق : أن نسائم المعرفة باردة ، ونسائم الجهاد حارّة ، ففي الجهاد بذل وتضحيات وآلام ، ولا بد من الصبر عليها ، مع إقدامٍ على خوض المصاعب حتى تتحول عند المجاهد إلى فرح بها ، لوفور رؤية الثواب الآجل وجمال العاقبة .

---

(١) الموسوعة العربية ٧/ ٨٤٢ .

ودابُ مصطفى عكرمة[1] هو كذلك ...

سـبحانك اللـهمَّ مـا لـي حـيلةٌ
لـولاك ، فاجعـل في هُداك ثباتي

أردُ المـصاعبَ ، أسـتلذُّ بخوضـها
فهُـداك صَـيَّرها مـن اللـذاتِ

● والمؤمن اللبق باستطاعته أن يستقبل قَدَر السوء الذي لا مفر منه استقبالاً حسناً فيحوله إلى سبب إنتاج ، من خلال مصارعته بقدر الخير ، كمثل الفعلة الإبداعية التي اقترنها الأزهري اللغوي حين وقع في أسْر القرامطة من بدو هوازن ، فانتبه إلى فصاحة لغتهم ، فطفق يجمعها ويسجلها من أفواههم ، وأودعها كُتُبه ، فتحول الأسر إلى مدرسة[2] .

● وكان المعتمد بن عباد الملك الأندلسي يخاطب قيدَه حين رسف في أغلال يوسف بن تاشفين البطل ملك المغرب ...

قَـيدي : أمـا تعلمـني مـسلماً ؟
أبـيتَ أن تُـشفِقَ أو تَـرحما ؟

واصل القصة مشهور ، فقد ندم المعتمد على ما كان منه من حياة الترف ، ووجد أن جيشه لا يقوى على صد هجمة الأسبان ، فتاب واستدعى ابنَ تاشفين لنجدة المسلمين ، فأنجدهم ، ونصره الله في معركة الزلاقة الكبرى ، وقاتل المعتمد معه ، فلما استتب الأمر عزله ابن تاشفين ونفاه إلى المغرب مقيداً حيث عاش عيشة الفقراء حتى موته .

والتحليل النفسي والدعوي يبدي اجتماع خطأ وصواب عند كلٍ من طَرَفي هذه القصة الغريبة ..

---

(١) ديوان "حتى ترضى" ١٨/ .

(٢) الموسوعة العربية ٢/ ٢٥ .

فالمعتمد وإن بدأ حياته بخطأ اللهو والإسراف إلا أنه تاب واستدرك على تفريطه بصواب قراره في استدعاء ابن تاشفين ، وذلك سلوك منه يتوافق مع الموازين الدعوية .

وابن تاشفين جَمَع الصواب من أطرافه بسرعة النفرة الجهادية وإحسان القتال ، إلا أنه ارتكب شيئاً من الخطأ من خلال المبالغة في الاحتياط وإذلال المعتمد وإفقاره وإثقاله بالقيود ، وقد كان يكفيه أن يعزله ، لكنه خرج إلى غلو .

وصبر المعتمد على القيد وشظف العيش من بعد توبته السياسية الجهادية فضيلتان تعدلان في الميزان جهاد ابن تاشفين وحزمه ، والجميع سَلَف لنا نفخر بهم ، ولا نقول فيهما إلاّ قولاً حَسَنا ، فالمعتمد اقترب من المعنى الدعوي بتوبته ثم جهاده وإظهار البلاء الوافي تحت راية ابن تاشفين في الزلاقة ، وابن تاشفين مجاهد كبير خلط مع جهاده مسحة من قسوة يتأولها حزما ، وفي كل ذلك بعض دروس لمن يريد إتقان تحريك الحياة .

● وحين قام إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بتخريب الدرعية وقرى نجد استطاع أسر الأمير عبد الله بن سعود ، وأرسله إلى اسطمبول ، فكان أن (طافوا به البلدة وقتلوه عند باب همايون ، وقتلوا أتباعه أيضاً في نواح متفرقة ، فذهبوا مع الشهداء .) كما يقول الجبرتي في تاريخه [١] . وكان أكثرهم أصحاب علم وفضل ، ولما حصلت حملة طوسون باشا بن محمد علي على أنحاء المدينة المنورة : تصالح معهم ، وأرسل منهم وفداً إلى مصر للتكلم مع أبيه ، فرأى الجبرتي اثنين منهم فأثنى عليهما على الرغم من بيئته الأزهرية والمحيط الموتور ضد الوهابية ، وقال : (وقد اجتمعت بهما مرتين ، فوجدت منهما أنساً وطلاقة لسان واطلاعاً وتضلعاً ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق وحُسن الأدب في الخطاب والتفقه في الدين واستحضار الفروع الفقهية واختلاف

---

(١) تاريخ الجبرتي ٣/ ٤٢١ طبعة الدار العلمية .

المذاهب فيها : ما يفوق الوصف .)[1] ، مع أن المقام مقام خوف وهما في شبه اعتقال وأسر ، وطيش الباشا في مثل هذه الأحوال مشهور ، ولكن **حُسن المعتقد وجودة التربية تظهر آثارهما الإيجابية في ساعات الحَرَج والمحن والفتن .**

● ويروي بديع الزمان النورسي أنه حين جلبوه للمحاكمة وهو في سن الخامسة والسبعين أجلسه الحارس على كرسي لما رأى من تعبه ، (وفجأة أتى الحاكم وقال مغاضباً مع إهانة وتحقير : لم لا ينتظر هذا واقفاً ؟) قال : (ففار الغضب في أعماقي على انعدام الرحمة للشيب . والتفتُ فإذا بجمع غفير من المسلمين قد احتشدوا حولنا ينظرون إلينا بعيون ملؤها الرأفة ، بقلوب ملؤها الرحمة والاخوة ، حتى لم يستطع أحد صرفهم عن هذا التجمع .) .

(إن هؤلاء الناس في هذا الوقت العصيب ينشدون سلواناً كاملاً ونوراً لا ينطفئ وإيماناً راسخا) .

فصار هذا المنظر تعويضاً في نفس بديع الزمان عن الإهانة .

(لقد ورد إلى القلب أنه حِيال إهانتنا والاستخفاف بنا بحجة إخلالنا بالأمن العام ، وإزاء صرف إقبال الناس عنا بالمعاملات الدنيئة التي يقوم بها أشخاص معدودون من المغرر بهم : فإن هناك الترحيب الحار والقدْر اللائق لكم من قِبَل أهل الحقيقة وأبناء الجيل القادم . نعم .)[2] .

ولو نظر الدعاة اليوم إلى ألوف مظاهر التعويضات التي يدبرها الله لهم : لعرفوا أن الحياة تتحرك فعلاً ، وبزخم قوي .

(نعم ، فهذا هو الذي فهمته من ذلك التنبيه المعنوي ، فقلت : شكراً لله بلا نهاية .. وفرحت بشيخوختي ورضيت بالسجن .)[3] .

قال : (ما دامت في الدنيا حياة ، فلا بد أن الذين يفهمون سِرّ الحياة من البشر

---

(١) تاريخ الجبرتي ٣/ ٣٤٧.

(٢) (٣) اللمعات / ٤٠٠ / ٤٠٢ .

ولا يسيؤون استعمال حياتهم : يكونون أهلاً لحياة باقية ، في دار باقية ، وفي جنة باقية .)[1] .

● **وهذه القصص كلها إنما هي من بركات التعليم الرباني للمسلمين ، مما ورد** في آية ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ﴾ الشعراء/ ٥٠ ، وآية ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ طه/ ٧٢ .

ولذلك قال العز بن عبد السلام تعقيباً على هاتين الآيتين :

(إظهار الجَلَد : نوعٌ من الجهاد ومراغمة الأعداء .)[2] .

والجَلَد موقف نفسي استعلائي يجيده الدعاة ، وللأجيال المتعاقبة سَنَد في ذلك يعلو حتى يصل الإمام أحمد بن حنبل ، حيث أبدى منه المقدار الوافر أثناء محنته ، وصَبَر مَليًا ، وصارت قصته مصدر تثبيت للدعاة ومثال تربية .

◻ المفاصلات ، والحواجز اللكمونية الفبادية : تمنع دبيب السوء

◻ ولكن يقابل الثبات في الصف الإسلامي : اختلاط في الصف العلماني .

وقد عاب الإمام أحمد من يكون عطشاناً وهو بين الناس فلا يطلب منهم أن يسقوه ، وذلك أن الترفع مطلوب ، ولكن بلا تنطع وتكلف ، ويجب على كل أحد أن يكون على السجية ويشارك الناسَ في أعرافها ما لم يعلم إثما ، **واليوم هناك عطش فكري ويبست الأفواه من هتافٍ سياسي فارغ ، ومع ذلك يأبى البعض إلاّ أن يعيش ذكرياته مع الأحزاب التائهة ، والوعي منه قريب تبذله دعوة الإسلام لو أراد الاغتراف منه** ، والحكمة الإيمانية يصدع بها الدعاة لو أراد الاستسقاء وطَلَبَ التوجيه ، ولكن بعض المسلمين أسرى الظنون .

---

(١) الكلمات للنورسي / ١١٧ .

(٢) شجرة المعارف / ٣١٩ .

قال العز بن عبد السلام : (فصل في الدعاء بفراق الفَجَرة . قال الله تعالى : ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ المائدة/ ٢٥ .

فراقُ الفجَرَة من شِيَم البررة .)[1] .

وقال : (ومحبّة الأبرار حسنةٌ ، لأدائها إلى موالاتهم ومعاضدتهم ، ومحبة الفجار قبيحةٌ ، لأدائها إلى مصافاتهم ومساعدتهم . وعداوة الكفار حسنة لدعائها إلى مُنابذتهم ، وعداوة الأخيار قبيحة ، لإفضائها إلى مقاطعتهم .)[2] .

● **وأكبر عيباً من حَيرة العطشان : حيصة الريّان** ، بعد دهرٍ من الرَفَل بالخيرات والرغد والأمن ، والميل إلى تجفيف منابعه ، والتفريط بموارد شربه ، بعدما كان ينهل الصفاء الرقراق .

والتقديرات الواقعية والتحليلات النفسية تجعلنا نرى عوامل مساعدة في شكل أخطاء جماعية وقيادية تقذف في قلب ذي الحيصة زهداً باستمرار علاقته ، فينكص ، ويصدق وهو الكذوب ، ويحوز حقاً وهو المبطل ، وقد كان يليق له أن يحرص على خير الحالتين ، ويوازن ويدفع أعظم المفسدتين .

● **ولمعرفة مستوى الحصانة ضد الانشقاقات في الجماعات الإسلامية : نرجع إلى منهج القياس على الحقائق الذرية** ، مما استعملناه سابقاً في توضيح معنى الولاء والقيادة ، فحول نواة كل ذرة هناك ما يسمى : (**الحاجز الكموني الكهربائي المحيط بالنواة**) والذي يدفع عنها الجسيمات البطيئة المشحونة بشحنة كهربائية موجبة ، مثل البروتونات وجُسيمات الأشعة ، ويسهل اقتراب الجسيمات السالبة الشحنة ، كالالكترونات .

لكن حين تُرجم النواة بجسيمات ذات طاقة حركية كبيرة : يكون تجاوزها للمدارات الالكترونية العديدة حول الذرة ، ثم تخترق النواة ، فتفلقها ، أو تحدث تحولات في نوى العناصر القلقة الإشعاعية بصورة طبيعية .

---

(١) (٢) شجرة المعارف / ٣٧٧ / ٥٦ .

وهذا ما يحدث في الجماعات ، فإن نواتها القيادية والتربوية ورصيدها النفسي المعنوي وإنجازها الفكري : كل ذلك يبقى موحداً وحاجزاً كمونياً من خلال عوامله الذاتية القوية ، ولا تكون الانشقاقات إلاّ حين تدهمها مقولة قيادية أقوى ، وأساليب تأثيرية تنفذ إلى النفوس ومنطق فكري أثقل ، ومعنى ذلك ان طريق الحماية من الفتن والانقسام هو أمر احتياطي انتباهي بديم وتيرة من المكنة القيادية والتعاهد التربوي والإذكاء المعنوي والتجديد الفكري أكثر مما هو معالجة وقتية ونداء بالطاعة وفصل الموسوس العاصي ، فالحصانة هي الأصل ، ولا تنشق جماعة تكون بؤرتها القيادية والنفسية والفكرية قوية ، وإنما تنشق حين تفتر وتهبط معدلات هذا الأداء في المركز ، فتنمو في الأطراف مقولات وهواجس حتى تصل إلى درجة العصف فالفلق ، وهذه الطريقة الاحتياطية الوقائية إنما تتكفل بأكثرها الخطة ، لأنها مجموعة أعمال متكاملة تديم الحالة الإنتاجية .

● ولسنا نشك في أن " صَخَب الفتن " والعدوانية التي تلتحق بها يعود بعض سببه إلى حصول حالة إحباط بعد موقف دعوي خاطئ أو غامض غير مشروح ، أو إلى رؤية الداعية وجود فرق بين المثاليات التي آمن بها والواقع المتخلف ، والعلاج لذلك يكون مشتقاً من علاج حالات الاضطراب النفسي العامة التي تلحق الأفراد ، وهو علاج (يتمركز حول المتعالج) و(قد أسسه كارل روجرز معتمداً على الاتجاه الإنساني في العلاج النفسي ، ويقوم هذا النوع من أنواع المعالجة النفسية على أنها نتيجة للتناقض بين مفهوم الذات المثالي والواقعي ، وهو تناقض ينشأ في أثناء سعي الإنسان إلى تحقيق ذاته ، وينطلق المعالجون بهذا الأسلوب من فرضية مفادها أنه عندما تتوافر للمتعالج علاقة إنسانية يشعر فيها بالتقدير والاحترام غير المشروطين والتفهم المتعاطف : فإن مسيرة العلاج تتحرك باتجاه تعديل صورة تحقيق الذات ، فتنخفض حدة التضررات النفسية . وأهم ما يميز هذا النوع من المعالجة النفسية هو عدم التطفل على المتعالج واقتحام حياته بالنصائح الجاهزة ، والتركيز بدلاً من ذلك على احترام كرامة الإنسان وقيمته في سعيه نحو تحقيق ذاته .) (ويمكن إجراء المعالجة

النفسية فردياً أو ضمن المجموعات .)[1] .

وهذا فهم صحيح إلى مدى بعيد ، والعلاج الدعوي يبدأ من نقطة لمسة الحنان العاطفية القيادية ، واحترام إنسانية وإيمانية كل الدعاة ، والإدلاء بشروح تحليلية توضح سبب القصور عن بلوغ الحالة المثالية ، وعدم التورط ابتداءً في المبالغة في الوعود المعسولة الجانبية ورسم الصور المشرقة التي تخفي العلل الواقعية والسلبيات الجاثمة ، وبعض ذلك يكون أيضاً من خلال وجود قدوات تربويين يبذلون المحبة وصوافي معاني الإخاء ويتواضعون ، وبعضه الآخر يكمن في ملازمة المساجد والنمط الإيماني ، ثم في ترويج الأدب الإسلامي شعراً ونثراً ، وذكر مناقب الدعوة وبطولات التاريخ الإسلامي وجعلهما ضمن المنهج التربوي وتوفير من يتكلم فيهما في الإعلام الدعوي اليومي ، وأما التجرد للكلام السياسي والممارسة التنافسية مع الأحزاب من دون هذه المرطبات واللمسات العاطفية ، ثم بناء العلاقة بين القيادة والجندية على أساس الصرامة والطاعة المبالغ فيها ، وتقليل الشورى : فإنه يوشك أن ينتج الفتن وأشكال الاضطراب النفسي لدى مجموع الدعاة ، بل هو حتماً سبب قوي يثير العدوانية ، بل قد يؤدي إلى اضطراب نفسي حتى لدى القياديين ، بسبب حياة التوتر التي ستكون ، ومجابهتهم للتحديات وشبهات التناجي ووساوس الانشقاقات ، بل قد تبلغ الحياة القيادية أن تكون في إنذار دائم وحالة طوارئ تتلوها حالة طوارئ أخرى ، فيستهلك الإنشداد النفسي ما هنالك من رصيد عاطفي وإيماني ، وتتحول الروابط القلبية إلى علاقات ميكانيكية جافة تسبب المرض والإحباط لأقوى الدعاة .

وهذه صراحة نقترفها من أجل تعليم صنعة التحليل ، ومُبطل مَن يحرص على اجتزاء ما ينصر هواه منها ويرتكب العناد □□□

---

(١) الموسوعة العربية ٢/ ٦٨٢ .

□□ أما بعد :

فإن هذا الكتاب تعدى أن يكون حشداً من الصفات النفسية ومسحها ورصدها والتعريف بها في ثنايا الملاحظات المبثوثة في الفصول ، وإنما صار الكتاب كله كتلة من التحليلات النفسية الإبداعية مصفوفة مرصوصة ، تنطق بالجمال ، وبالحقائق الخفية ، والملاحظات القدرية ، وتكشف ترادف الحركات الثانوية الكثيرة العَدد لتكوين محركات حيوية مركزية رئيسة يمكن أن تتطرق لها الفنون التخطيطية لتحويلها إلى زُخوم عاتية هادفة تُبدّل المعادلات وتعيد صياغة التكوين الاجتماعي والسياسي عبر السيطرة على الصياغات النفسية .

● والتخطيطات في ذلك عند فقهاء التخطيط تدور حول تنمية الإبداع ، والحقيقة أن ذلك لا يكفي ، ولا المُكنة التصورية الخيالية التي عليها ارتكاز الابتكار ، وإنما عزائم النفس ضرورة ، وشِدّة التصميم على الإنجاز ، وعلو الهمة ، والصبر على طول الأداء ، وسماحة الروح عند الإخفاق الأول والثاني ، بحيث يسارع السائر إلى الاستئناف ويعود إلى المثابرة .

● إن ذلك هو الذي جعل شاباً ضعيف البِنية مثل البريطاني "ستيفن هاوكنز" يؤلف نظرية في الفيزياء تتكامل مع نسبية آنيشتاين ذات منطق ودلائل مغايرة لينال عليها جائزة نوبل إذ هو كسيح مُقعد مشلول شللاً تاماً ، لا يتحرك ولا ينطق ، وحتى الابتسامة صعبة عليه ، ولكنه بقي قوي القدرة على تركيز التفكير بعد أن دهمه المرض وهو في العشرين ، وغيره ينتحر أو يعتزل الحياة ، لكنه أبى إلاّ أن يطور الحياة ويعتكف مع ألوف صغيرة من الحقائق الفيزياوية ليجمع بينها ويكتشف علاقاتها ليرتبها في منظومة ومعادلات قصيرة تشرح سر الخَلق وتؤدي به إلى التوحيد .

● وكما أن من يتملك داراً يذهب إلى دائرة التسجيل العقاري فيتزود بصك

قانوني يذكر الثمن والحقوق وخارطة تصف الحدود : فإن " البهلول " الزاهد الساذج أوضح معالم " الخارطة النفسية " التي تتحكم بسيرة المؤمن وتصرفاته وأخلاقه ، وأورد نموذج "عقد" تملك المسلم لقصرٍ في الجنة ، وصاغه بلغة القانون وتعابيره ، فإذا في الوثيقة :

□ دارٌ أساسها المِسك ، وبلاطها العنبر ، اشتراها عبدٌ أُزعِجَ للرحيل ، كتب على نفسه كتاباً وأشهد على عقد ضمائره شهودا :

- **هذا ما اشترى العبدُ الجافي من الربِّ الوافي :**
- اشترى منه هذه الدار بالخروج من ذل الطمع إلى عز الورع .
- شَهِدَ على هذا العقد : الأمنُ ، والخواطر .
- ولهذه الدار حدودٌ أربعة :
- فالحد الأول ينتهي إلى **مبادي الصفا** .
- والحد الثاني إلى **ترك أخلاق الجفا** .
- والحد الثالث ينتهي إلى **مدارج أهل الوفا** .
- والحد الرابع ينتهي إلى **السكون والرضا** .
- ولهذه الدار شارع ينتهي إلى دار الخلد (١) .

● وتلك هي خلاصة تقريرات الإيمان وعلم النفس التي حوتها فصول كتابنا هذا .

□ دعوة .. وظيفتها تقويم الغلط

□ وفي القديم ، قبل عصر الانفجار المدني المعاصر : كانت أكثر الشعوب فيها وَشَلٌ من الفطرة وأثرٌ من النبوات وإن كانت كافرة ، مما جعل حياتها تحتفظ ببعض الأخلاق والعواطف الصحيحة .

---

(١) بستان الواعظين لابن الجوزي / ٢٣٣ ببعض حذف .

● فالشاعر الإنكليزي هنري فون ، مثلاً ، المتوفى عام ١٦٩٥م : (أحب جمال الطبيعة ، وذهب إلى حد القول بأن كل زهرة تستمتع بالهواء الذي تستنشقه ، وبأن الحجارة والعِصي نفسها تتوقع ، كالإنسان ، أن تُبعث حية .) [١] .

بل ونشأ بعده تيار عريض من الأدب الرومانسي العالمي .

● وما كان كل شعراء الأمم يهيمون في مواضيع مرجوحة ، بل بعضهم لزم الجد ، وأكثر ما يكون هؤلاء هم شعراء الحرية والاستقلال في بلادهم ، كمثل الشاعر الكوبي خوسيه مارتي (١٨٥٣-١٨٩٥) .

وهو (يُعتبر رمزاً لنضال كوبا من أجل التحرر من الحكم الأسباني . صُرع في ميدان المعركة وهو يقاتل في سبيل الاستقلال . من آثاره "أشعار حُرة" التي نظمها في ما بين عام ١٨٧٨ وعام ١٨٨٢ ، وهي تدور على موضوع الحرية ، وتتكشّف عن رؤيا شعرية أصيلة .) [٢] .

بل ونشأ قبله وبعده شعراء في أمم عديدة من أبطال الحرية .

● وكانت رواية "البؤساء" الصادرة سنة ١٨٦٢م من محركات الحياة ، وهي للأديب الفرنسي فيكتور هوغو ، وأودع فيها نزعاته التحررية ، حتى ردّد مترجمها منير البعلبكي قول بعض النقاد فيها أنها (وعاء فلسفة ، وملحمة نضال .) [٣] .

● وحتى في الفنون كانت الإيجابيات النفسية حاضرة ، ولها لغتها الخاصة وطريقتها في إنماء مشاعر الخير ، وكان (الفنان يستخدم اللون لخلق أغراض صلبة في عملية التكوين تكوّن طموحات الفنان التعبيرية والفلسفية من خلال منظاره للحياة ، ويعطي المعنى الرمزي للأفكار التي معانيها مختلفة ، كالإخلاص والوفاء والشرف والحب ، أو الأفكار السوداء والجُبن ، على نقيض الأفكار الأولى .) [٤] .

● بل الإنسان القديم رَسَم (حيواناً كبيراً قد قُتل بالحِراب ، وهو الماموث ،

---

(١) (٢) (٣) موسوعة المورد ١٠/ ٨١ ، ٦/ ٢٠٥ ، ٧/ ٤٠ .

(٤) علم عناصر الفن لفرج عبو ١/ ١٢٠ .

صُوِّر على جسمه في منطقة القلب باللون الأحمر ، يخترقه سهام بنفس اللون ، للدلالة على الموت والدم والقسوة .) [1] .

● **ولكن معاني الحرية والأحاسيس الإيجابية بدأت تضمحل وتجف نداوتها في القرن العشرين بعد الحرب العالمية الأولى ، وحملت أميركا وزر هذه البدعة السيئة** الهدامة ، وكما تُسرق الثورات : سُرقت المعاني العليا وصودرت مشاعر الحرية بالتدريج .

● وكان أول السياق ظهور قصة "ذهَبَ مع الريح" للروائية الأميركية مرغريت ميتشل ١٩٠٠-١٩٤٩ والتي مُثلت سنة ١٩٣٦ في أشهر فلم في تاريخ السينما حتى الآن ، والقصة تصور الحرب الأهلية الأميركية في القرن التاسع عشر من وجهة نظر جنوبية ، ومعنى ذلك أنها تؤيد استعباد السود ، لأن لنكولن والشمال قاتلا من أجل تحريرهم ، وبيع من القصة في حياة المؤلفة ثمانية ملايين نسخة .

● **ثم انهال أدب التكبر الأميركي كالسيل ، ومورس التزوير على اوسع نطاق ، وانقلبت موازين التوصيف للنفس .**

● وكان "فرويد" قد ميّز منذ وقت مبكر هذا التحريف الأميركي ، ورأى خضوع مَن فيها للمبادئ الذرائعية والفلسفة النفعية ، حتى قال صارخاً :

(أميركا غلطة ، غلطة عملاقة . هذه حقيقة .) [2] .

مع أنه فرويد صاحب الأوهام ، لكنه لم يحتمل المبالغة الأميركية .

● وقد رأى د. خير الدين عبد الرحمن استرسال أميركا في غلطتها أنه يمثل "**تصدعات في القلعة الأميركية**" وجعله عنوان كتاب جديد صدر له وتولت جريدة عكاظ التعريف به [3] ورأت أن الثقافة الهشة بدأت تزحف على ارض الأحلام .

---

(١) علم عناصر الفن ١/ ٢١ .

(٢) كتاب "التحليل النفسي" لعبد القادر حسين / ٣٣٤ .

(٣) عكاظ عدد ١٦/ ١/ ٢٠٠٨ .

وقد رأى المؤلف في عنوان ثانوي أن كتابه هو "تحليل استشرافي استراتيجي"، واستحضر قصة عاد حين طغوا في البلاد.

ويذهب المؤلف إلى أن أساس سلامة المجتمع هو التزام القيَم التي يتفق المجتمع على اعتبارها معايير لمدى صواب مختلف الأهداف والمواقف والنشاطات، ويعطي أهمية كبرى لأخلاق الحرب تتجاوز أهمية التفوق التقني والتسليحي المادي. ويعتمد الكاتب مراراً على كُتاب أميركيين لتأكيد هشاشة وضع التعليم ونكوص الأجيال الجديدة عن العلم والاتجاه نحو الربح السهل والإثراء السريع بأي ثمن، ونسبة خريجي الجامعات الأميركية من غير الأميركيين تتجاوز ٩٥٪ في بعض الحالات.

ويعرّج الكاتب على واقع الإعلام الأميركي ودوره في تضليل وتزييف الحقائق خدمة لمن يملكون وسائل الإعلام، ثم يتناول سيطرتها العسكرية على العالم، ومزاعم محاربة الإرهاب حتى صار كل من لا يرضخ لإملاءات الكاوبوي إرهابياً.

وتختم عكاظ تعريفها بالكتاب بقولها إنه وثيقة مهمة لبيان حجم الانهدامات في بنيان أقوى دولة في العالم كما تطرح أميركا نفسها، ومحاولتها حل أزماتها على حساب الشعوب.

● والحقيقة أن نموذج الانحراف والخلل هذا انتقل إلى كل الغرب، وتبدلت النفوس وساءت الأخلاق، وإنما تحتل أميركا المكانة القيادية في ذلك وهي التي تحمل كِبر هذا الإثم، ولذلك علت أصوات كثيرة في أوربا منذ وقت مبكر تحذر الناس، وكان من أوائل ذلك قصيدة "الأرض اليباب" للشاعر الإنكليزي إيليوت التي نظمها عام ١٩٢٢، وهي (تعبّر عن خيبة أمل جيل ما بعد الحرب العالمية الأولى، وقرفِهِ أو تقزّزه، وتصور عالماً مُثقلاً بالمخاوف والذعر والشهوات العقيمة. عالَماً ينتظر إشارة ما تؤذن بالخلاص أو تعد به.)[1].

(١) موسوعة المورد ١٠/١٢٦.

وقد اكتسبت هذه القصيدة شهرة واسعة ، وهي تصوير للقلق الذي أدت إليه الحياة الغربية .

● ومن الزخم الذي بذله الأدب الغربي لمعالجة مادية الحضارة : تصويرات الروائي النمساوي " كافكا " للجوانب النفسية السلبية ، إذ (تميّزت آثاره بتصوير **قلق الإنسان المعاصر ومحاولاته العابثة : البحث عن طريق للخلاص)** [1] ولكن دون طائل ، إذ لا يوفر ذلك غير الإيمان .

وكذلك الألماني كايزر الذي يُعتبر أحد أبرز أركان المذهب التعبيري ، والذي (صوّر الإنسان ، في كثير من مسرحياته : في صراع مع العالم الحديث : عالم المال والآلة .) [2] .

● ولكن الترقيع في مثل هذه النوازل الكبرى لا يفيد ، وبقي الغرب حتى الآن تحت أثقال الانحراف النفسي ، **ونقل العلمانيون في العالم الإسلامي تلك الأوضاع الماثلة إلى ثلاثة أجيال من الأمة الإسلامية** حتى الآن ، وتساعدهم السلطات الاستعمارية في ذلك ، أو سلطات الحكومات المستقلة بشروط ، أو أجهزة الإعلام والتربية المدرسية والجامعية .

● وحصلت مبالغات في هذا الانحراف النفسي أرادت له أن يبلغ درجة الإلحاد ، وقد بلغها في كثير من الأحيان بتسويغ يهودي كأنه ينطلق من خطة إضلال العالم الواردة في بروتوكولات حكماء صهيون .

فمما يكشف الجانب المريب في الحركات الإلحادية : ارتباطها باليهود والصهيونية ، فجماعة مثل (جماعة فينا) الفلسفية سنة ١٩٢٢ التي كان ظاهر دعوتها التعرف على وحدة العلم و (توحيد العلوم كلها في فلسفة علمية تشملها جميعاً) ، وذلك أمر جيد ، ولكن جانبها الآخر كان شديد الإنكار على الدين وعقائد الميتافيزقا ، ثم تبين (أنها كانت تجمعاً يهودياً خالصاً ، وذاع أن نواة

---

(١) (٢) موسوعة المورد ٦/ ٣٠ / ٣١ .

دعوتها صهيونية) وقد (قوبلت فلسفتها الوضعية المنطقية بالاستهجان ، لأنها بدت مهاجمة للدين والميتافيزيقة والأخلاق ، فقامت الحكومة النمسوية بحركة تطهير وملاحقة جميع دعاتها في الجامعة وغيرها ، مما دفع الكثير من أعضائها للهجرة) (وكادت الجماعة تنتهي تماماً لولا بعض المناصرين لها من اليهود أيضاً في بريطانية والولايات المتحدة بالذات .) [1] .

● ولكن الشأن في العالم الإسلامي مختلف ، فإن التسرب الذي حصل في ساعة غفلة آبائنا : قد قوبل فيما بعد بعمل دعوي إسلامي واعٍ متسلح بعلم شرعي وفكر معرفي ، وبقي يدأب حتى حصلت الصحوة الشاملة التي ما تزال تسير في طريق النضوج والتكامل ، ويأتي كتاب "النفس في تحريكها الحياة" ليمثل حلقة ضمن الوعي النفسي اللائق لهذه الصحوة .

□ وأمر الاستدراك كأنه قريب ، فإن الصعود الإسلامي تقابله بدايات انكفاء أميركي بعدما دفع ثمناً غالياً للعولمة التي لم تفلح في فرض نفسها ، وهَدْيُنا الإيماني وسَمْتنا الذي يعتمد إحياء جانب التقوى في النفس سيغلب بإذن الله جهد من يتولى إمداد جانب الفجور □□□

---

(١) الموسوعة العربية ٧/ ٦٧١ .

- كتلة النفس فيها غموضٌ وتَداخُل
- ومساحتها ذات عَتَمة .. واختلاط
- وقد قسمها الله إلى شطرين
- تقي .... وفاجر
- ومع الانغلاق .. تتبين الفِطرة البيضاء
- ولكن الشيطان الأسود يأخذ مكانه ليشوّش
- إنما من بين ذبذبات مكامن الزكاء
- تولد الجوهرة ...
- لتعكس أنوارها ...
- وتكون منطلق الإصلاح ...
- وتومض ..
- تغري رُوّاد مذاهب الطموح ..

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب: 14,6366
هاتف: 300227 - فاكس: 701974
Email: ibnhazim@cyberia.net.lb

Al-Fursan
3.500 JD
0300EY03190